صفحات من تاريخ مصر (٣٦)

علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب

(٣٦٢ - ٥٦٧ هـ/ ٩٧٣ - ١١٧١ م)

تأليف الدكتور حسن خضيرى أحمد

كلية الآداب - جامعة جنوب الوادى



Bibliotheca Alexandrina
0017831

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

علاقات الفاطميين
في مصر بدول المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

7019

909.097
671
ح م
ع

909.097671
ح م ع
٢٧٨٤٨

صفحات من تاريخ مصر ٣٦٠

علاقات الفاطميين

فى مصر بدول المغرب

(٣٦٢ - ٥٦٧هـ/ ٩٧٣ - ١١٧١ م)

تأليف

الدكتور حسن خضيرى أحمد

كلية الآداب - جامعة جنوب الوادى

مكتبة مدبولى

اسم الكتاب : **علاقات الفاطميين فى مصر بدول المغرب**

الكاتب : **الدكتور حسن خضيرى احمد**

الناشر : مكتبة مدبولى - ٦ ميدان طلعت حرب

تليفاكس : ٥٧٥٦٤٢١

ت : ٥٧٥٢٨٥٤

الطبعة : الطبعة الأولى

الجمع التصويرى : المكتب العصري ت : ٢٥٢٣٠٥٤

حقوق الطبع محفوظة

لمكتبة مدبولى

الإهـــداء

إلى روح والدي ووالدتي

ترحـــماً وعرفاناً بالفضـــل والجميـــل

المؤلف

(الفهرس)

الصفحة

١ ـ **مقدمـة** ١١

٢ ـ **بحث المصادر**

٣ ـ ***الفصل الأول : العلاقات السياسية:*** ٢٥

أولاً : العلاقات السياسية مع دولة بنى زيرى فى إفريقية ٢٧

ثانيا : العلاقات السياسية مع دولة بنى حماد فى المغرب الأوسط ٧٤

ثالثا : العلاقات السياسية مع دولة المرابطين فى المغرب الأقصى ٨٢

رابعاً : العلاقات السياسية مع دولة الموحدين فى المغرب ٨٨

٤ ـ ***الفصل الثانى : العلاقات التجارية :*** ٩٣

أولاً : طرق التجارة ومسالكها ٩٥

ـ الطرق البرية ٩٥

ـ الطرق البحرية ٩٩

ثانياً : النشاط التجارى ١٠٥

ـ الصادرات المغربية إلى مصر ١٠٥

ـ الصادرات المصرية إلى بلاد المغرب ١١٦

ـ عوامل تدهور النشاط التجارى ١٢٨

ثالثاً : المعاملات التجارية ١٣٣

ـ المعاملات المالية ١٣٣

ـ الموازين والمكاييل والمقاييس ١٤٦

ثانياً : الهجرات المصرية إلى المغرب وتأثيراتها الاجتماعية ٢٥٧
- الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب ٢٥٧
ثالثاً : بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والتأثيرات المتبادلة ٢٦٩
- الأعياد والاحتفالات والمواكب ٢٦٩

٧ - الملاحق : ٢٩١
- الملحق الأول ٢٩٣
- الملحق الثانى ٢٩٦
- الملحق الثالث ٢٩٧
- الملحق الرابع ٢٩٨
- الملحق الخامس ٣٠٠

٨ - الخرائط ٣٠٥ - ٣٠٧
٩ - المصادر والدراسات ٣٠٨

٥ ـ ***الفصل الثالث : العلاقات الثقافية :***	١٥٣
أولاً : مراكز الثقافة فى مصر	١٥٥
ـ المساجد الجامعة	١٥٥
ـ الجامع الأزهر	١٦٠
ـ دار العلم	١٦٩
ـ القصور والمكتبات	١٧٤
ـ المدارس	١٨١
ثانياً : مراكز الثقافة فى المغرب	١٨٤
ـ المساجد الجامعة	١٨٤
ـ جامع القيروان	١٨٦
ـ جامع تلمسان	١٩٢
ـ جامع القرويين بفاس	١٩٦
ـ الجامع الكبير بمراكش	١٩٨
ـ الرباطات	٢٠٢
ـ المكتبات	٢٠٤
ثالثاً : الصلات الثقافية	٢٠٧
ـ العلوم الدينية	٢٠٧
ـ العلوم اللغوية وأدابها	٢٢١
ـ العلوم العقلية	٢٢٥
٦ ـ ***الفصل الرابع : الصلات الاجتماعية والتأثيرات المتبادلة :***	٢٣٣
أولاً : الهجرات المغربية إلى مصر وتأثيراتها الاجتماعية	٢٣٥
ـ القبائل المعزية	٢٣٥
ـ الجاليات المغربية فى المدن المصرية	٢٤٦

مقـدمــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وأشرف المرسلين وبعد:

يتناول هذا الكتاب « علاقات الفاطميين فى مصر بدول المغرب » ، خلال الفترة الممتدة من سنة (٣٦٢ – ٥٦٧هـ /٩٧٣ ـ ١١٧١م)، لابراز تاريخ هذه العلاقات السياسية والحضارية بين مصر ودول المغرب ، وارتباط البلدين وتأثر كل منهما بالأخرى فى هذه الفترة التى تعبر تعبيراً دقيقا عن مرحلة هامة من مراحل التاريخ الاسلامى بوجه عام ، وتاريخ مصر ودول المغرب بوجه خاص ، لما شهدته من تحولات خطيرة ، كان لها جل الأثر فى تشكيل تاريخ البلدين .

وحرصت فى هذه الدراسة اتباع الأسس المنهجية لابراز سمات هذه العلاقات من مختلف الوجوه ، وتأكيد الخطوط العريضة لها ، والعوامل التى كانت تتحكم فيها ، هذا فضلاً عن التطورات السياسية والمذهبية التى شهدتها ساحة المغرب وأثرت على مصيره وتطوره الداخلى .

وحتى يتضح للقارىء الكريم موضوع ومحتويات هذا الكتاب ، فقد قسمته إلى أربعة فصول على النحو التالى :

تناولت فى الفصل الأول « العلاقات السياسية » فعرضت للعلاقات السياسية بين

مصر ودولة بنى زيرى فى إفريقية ، التى كانت تتأرجح ما بين الصعود والهبوط خلال العقود الأربعة منذ انتقال الخليفة المعز لدين الله إلى مصر وحتى خلافة الحاكم، وبينت طموح بنى زيرى فى الانفصال عن الخلافة الفاطمية ، وسياسة الخلفاء الفاطمين نحو أمراء بنى زيرى ، ثم تحدثت عن القطيعة السياسية والمذهبية فى عهد المعز بن باديس ، وتسيير الخلافة لقبائل بنى هلال إلى إفريقية وشرحت النتائج التى ترتبت على هذه الهجرة ومصير إفريقية.

وتحدثت عن العلاقات السياسية بين مصر ودولة بنى حماد فى المغرب الأوسط ، فعرضت لقيام الدولة الحمادية ، ودخول أمراء بنى حماد فى طاعة الخلافة الفاطمية بعد هزيمة بنى عمومتهم ، وأبرزت أن هذه الطاعة كانت إسمية فرضتها الظروف ، ثم عنيت بابراز العلاقات السياسية بين مصر ودولة المرابطين فى المغرب الأقصى ، فعرضت لقيام هذه الدولة ، وانضواء المرابطين تحت لواء الخلافة العباسية ، وكذلك أبرزت أن علاقتهم بالفاطمين المغايرين لهم فى المذهب كانت علاقة عداء واختتمت هذا الفصل بالحديث عن العلاقات السياسية مع دولة الموحدين فى المغرب ، فتحدثت عن طموح خلفاء الموحدين فى الاستيلاء على مصر ، وزعمهم بأحقية خلافتهم بحكم العالم الاسلامى .

وخصصت الفصل الثانى لدراسة « العلاقات التجارية » ، فعرضت لشبكة الطرق البرية والبحرية التى تربط مصر بالمغرب ، ثم شرحت كيف تأثرت هذه الطرق بالتغييرات التى طرأت على الخريطة السياسية لدول المغرب ، كما عنيت بابراز النشاط التجاري بين مصر ودول المغرب فتحدثت عن الصادرات المغربية إلى مصر والصادرات المصرية إلى المغرب ، وبينت أن النشاط التجارى لم ينقطع بين مصر ودول المغرب طوال عصر الدولة الفاطمية ، ثم عرضت للمعاملات التجارية التى تمثلت فى العملة من دنانير ودراهم ، والسفاتج والصكوك، والموازين والمكاييل ، وأثر هذه الوسائل فى العلاقات التجارية بين البلدين.

وأفردت الفصل الثالث لدراسة « العلاقات الثقافية » فتناولت مراكز الثقافة فى مصر فى المساجد ودار العلم والمكتبات وفى قصور الخلفاء والوزراء ، ثم تناولت مراكز الثقافة فى المغرب فى المساجد والرباطات والمكتبات وفى قصور الأمراء ، وأبرزت أثر المراكز المصرية على المغربية ، ثم تحدثت عن الصلات الثقافية بين مصر ودول المغرب ، فعرضت لطلاب الرحلة المغاربة واستقرارهم فى المدن المصرية ، ودورهم فى نقل العلوم إلى المغرب، وعرضت فى هذا الفصل أيضا للعلوم النقلية والعلوم العقلية، ثم درست لفقهاء المغاربة القاطنين فى مصر ، ومشاركتهم لاخوانهم المصريين فى حلقات دروسهم ، ثم أبرزت كيف أن مصر كانت منبعاً خصباً للتاثير العلمى والأدبى والفنى فى دول المغرب .

وتناولت فى الفصل الرابع « الصلات الاجتماعية والتأثيرات المتبادلة » فعرضت للهجرات المغربية إلى مصر ، فتناولت القبائل المعزية وأماكن سكناها فى أخطاط وحارات القاهرة ، وتحدثت عن الجاليات المغربية التى استقرت فى بعض القرى والمدن المصرية ، وأوضحت مدى الأثر الذى تركه المغاربة فى المجتمع المصرى، ثم واصلت الحديث عن الهجرات المصرية إلى المغرب ، فعرضت للهجرة الهلالية ، وشرحت ظروف هذه الهجرة ، وأبرزت تأثيراتها المتعددة على المجتمع المغربى ، وبينت دور هذه القبائل فى الدفاع عن المغرب والأندلس ، وكذلك أثرها القوى فى اكمال تعريب بلاد المغرب ، كما عنيت بدراسة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ، فتحدثت عن الأعياد والاحتفالات والمواكب ، وبينت كيف انتقلت رسوم بعضها من مصر إلى دول المغرب.

هذا وقد اعتمدت فى إعداد هذا الكتاب على كثير من المصادر الأصلية منها ما هو مخطوط مثل :

كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب »، الجزء (٢٦) لمؤلفه شهاب الدين أحمد

إبن عبد الوهاب النويرى ، ويشتمل على تاريخ عام للدولة الفاطمية ، وقد اعتمد النويرى كثيراً على ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ ، وقد أفدت من هذا الكتاب كثيراً ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة .

كذلك يجب ألا نغفل كتاب « المقفى الكبير » والذى يعرف أيضاً بالمقفى فى تراجم أهل مصر والواردين عليها ، لمؤرخ مصر الكبير تقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) .

ويوجد هذا المخطوط فى أربع مجلدات كلها بخط المقريزى ، الأول فى المكتبة الأهلية بباريس برقم ٢١٤٤ فيه بعض تراجم حرف العين والمجلدات الثلاثة الأخرى فى مكتبة ليدن برقم ١٣٦٦ وتحوى تراجم المحمدين [١] ،والمخطوط بمجلداته الأربعة مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ ، وقد نشر من هذا الكتاب بعض التراجم المشرقية والمغربية عن الفترة العبيدية اختيار وتحقيق محمد اليعلاوى . بيروت ، دار الغرب الاسلامى سنة ١٩٨٧ ، وقد اعتمدت على هذا الكتاب كثيرا فى معظم فصول البحث .

بينما يأتى كتاب « شرح اللمعة من أخبار المعز » لمؤلف مجهول ، ويعرض هذا الكتاب للقبائل المغربية فى مصر ، وأفدت منه فى الفصل الرابع ، والكتاب مخطوط مصور بجامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٢.

كذلك استعنت بالمصادر المطبوعة ومنها « كتاب المجالس والمسايرات » ، تأليف القاضى أبى حنيفة النعمان بن حيون المغربى (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤ م) وترجع أهمية مؤلفات النعمان ، إذ أننا لانجد من بين رجالات الدولة الفاطمية من خدم الدعوة

---

(١) أيمن فؤاد سيد : دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر / ١٧٣

الإسماعيلية ، وعبر عن معتقداتها ، ودافع عنها وأرخ لأئمتها مثل القاضى النعمان[1]، وكان على صلة وثيقة بالخلفاء الفاطميين منذ نشأة دولتهم بالمغرب (سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩م)، وصاحب الخليفة المعز لدين الله عند قدومه إلى مصر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م ، ومما يزيد فى الأهمية الوثائقية لهذا الكتاب أن النعمان كان حريصاً على تسجيل مادته اثر كل مجلس مباشرة ، ويتحرى فى نقل ما ينقله حتى يأتى بلفظ المعز كما ورد على لسانه[2] ، ونشر هذا الكتاب فى تونس سنة ١٩٧٨ ، تحقيق الحبيب الفقى وآخرون ، منشورات الجامعة التونسية ، وقد تمكنت من الحصول على نسخة منه، رجعت إليها فى بحثى هذا، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه امدنا بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة عن نظام الحكم فى عهد المعز، ومنه نقف على مدى اعتماد المعز على الكتاميين فى نواحى النشاط فى دولته ، كما يحفل بالاحداث التاريخية الهامة ولكنها للأسف بدون تحديدات زمنية ، وقد أفدت من هذا الكتاب فى معظم فصول الكتاب .

ومن المصادر الهامة التى استعنت بها كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، ومؤلفه عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) ، وهذا الكتاب يضم أخباراً هامة عن تاريخ المغرب والأندلس فى عصر دولة الموحدين ، وصفها المؤلف شاهد عيان ، أما الفترة السابقة على تاريخ الموحدين فهو تلخيص لروايات من سبقه من المؤرخين ، ومما يجدر الاشارة اليه ان ابتعاد المراكشى عن المغرب وفّر له جواً أرحب لنقد رواياته المتصلة بالموحدين ، ولكنه أثر أيضاً فى دقة أخباره ، وذلك لأنه كتب من ذاكرته وهو بعيد عن مصدر مروياته ، مما جعل بعض رواياته يأتى

(١) الكندى : كتاب الولاة و كتاب القضاة / ٤٩٤ ، ٤٩٥، انظر : ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر (ملحق بكتاب الولاة والقضاه للكندى)، / ٥٨٦

(٢) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات/ ٢٢٤ ، ٣٠١، راجع : ادريس عماد الدين : عيون الأخبار وفنون الآثار السبع السادس / ٤١ ـ ٤٧ .

مرتبكاً ومختلفا عن المصادر المعاصرة الأخرى ، وقد أفدت من هذا الكتاب فى عدة مواضع خاصة ، ما يتعلق بالعلاقات السياسية بين الفاطميين والموحدين ، هذا فضلا عن طرق التجارة ، ومراكز الثقافة فى المغرب .

ويعد كتاب « البيان المغرب » لمؤلفه ابن عذارى المراكشى الذى كان حياً سنة ٧١٢هـ /١٣١٢م من أهم كتب تاريخ المغرب على الاطلاق ، يقع هذا الكتاب فى أربع أجزاء ، كان جل اعتمادى على الجزء الأول طبعة دوزى ، دار صادر- بيروت (١٩٤٧ - ١٩٥٠م) ، وعلى الجزءالرابع تحقيق د . احسان عباس، بيروت ١٩٦٧م ، ويتحدث المؤلف فى الجزء الأول عن الدولتين الزيرية والحمادية ، ولا يغفل جانب علاقات الفاطميين بهما ، وقد أفدت منه كثيراً فى تتبع علاقات الفاطميين السياسية ببنى زيرى وبنى حماد، بينما الجزء الرابع فهو يختص بعصر المرابطين فى المغرب والأندلس ، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى كونه صدراً شاملاً لتاريخ المغرب والأندلس، وهو لذلك من أكثر مصادر تاريخ المغرب الاسلامى تفصيلاً وأثراها مادة، وأخذ ابن عذارى عمن سبقه من مؤرخى المغرب مثل الرقيق وابن القطان والوراق وغيرهم ممن أشار إليهم فيما نقل عنهم ، وابن عذارى يحسن اختيار أخباره، الأمر الذى جعل كتابه وثيقة تاريخية لا غنى عنها لباحث فى تاريخ المغرب ، ورواية ابن عذارى فيما يتعلق بالفاطميين يغلب عليها وجهة النظر السنيّة المناهضة للشيعة ، ومع ذلك فهى تتصف بالاتزان ، والواقع أنه ليس هناك فصل فى البحث لم يكن ابن عذارى مشاركاً فيه بمعلومة أو موضحاً فيه أمراً مهما ، فقد أمدنى بمعلومات وافرة فى دراسة كل فصول البحث دون تحديد .

أما كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لمؤلفه أبى زيد بن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) فعلى الرغم من تأخر مؤلفه الزمنى ، فهو من المصادر الأساسية لتاريخ المغرب ، ومصدر رئيسى لتاريخ الهلالية من عرب هلال وسليم فى بلاد

المغرب ، وقد اعتمدت على المجلد السادس بأقسامه طبعة دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١ ، وأمدنى هذا الكتاب بمعلومات وافرة عن قبائل البربر وعاداتهم ، وتتبعه لدول المغرب موضوع الدراسة هذا فضلاً عن افاضته فى تأريخه ووصفه للهجرة الهلالية ، وهذا الوصف لا يخلو من تحامل على القبائل الهلالية.

وتعد مؤلفات المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١ م) على جانب كبير من الأهمية ومنها كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، فقد أمدنى بمعلومات وافرة فى كل فصول البحث وترجع أهمية ما كتبه المقريزى إلى أنه يعتمد على معظم ما يرويه عن الدولة الفاطمية على مؤرخين عاصروا الدولة الفاطمية ، وكتبوا عنها مؤلفات ضخمة فقدت مع الزمن من أمثال ابن زولاق والمسبحى والقضاعى [1].

ومن مؤلفات المقريزى كتاب « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » والجزء الأول من هذا الكتاب تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨م ، وقام الدكتور محمد حلمى محمد بنشر الجزئين الثانى والثالث ، القاهرة ١٩٧١ ، ١٩٧٣ ، واتعاظ الحنفا يكوّن مجموع الكتب الخاصة بتاريخ الفاطميين فى مصر وحرص فيه المقريزى على نقل كل خبر من مصادره الأصلية الموثوق بها، ولم يهتم كثيراً بالاشارة الى المصادر التى نقل عنها كما فعل فى الخطط ، وقد أفدت كثيراً من هذا الكتاب فى معظم فصول البحث ، وندين للمقريزى شيخ مؤرخى مصر الاسلامية بكثيرمن معارفنا عن تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر ، ومن مؤلفات المقريزى التى أفدت منها واهتم فيها بالأحـوال الاقتصـادية كـتـاب « النقود » وكتاب «إغاثة الأمة».

كما استعنت بمجموعة أخرى من المصادر المغربية منها كتاب « تاريخ المن بالامامة » ومؤلفه عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجى

---

(١) أيمن فؤاد سيد : دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر / ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٧٧

(ت٥٩٤هـ/١١٩٨م) ، وكتاب « أخبار ملوك بنى عبيد » لمؤلفه أبى عبد الله محمد ابن على بن حماد (ت ٦٢٨ هـ / ١٢٣١م) ، وكتاب « الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وكتاب « الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية » لمؤلف مجهول ، وكتاب « أعمال الأعلام » الجزء الثالث لمؤلفه لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م) وقد حققه ونشره د . أحمد مختار العبادى والأستاذ محمد ابراهيم الكتانى ، ونشر فى الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ بعنوان « تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط » .

ومن مصادر التاريخ الاسلامى التى رجعت إليها كتاب « الكامل فى التاريخ » لعز الدين أبو الحسن على بن محمد بن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) ، وكتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب الجزء (٢٤) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى ، وكتاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » الجزء الرابع والجزء الخامس لمؤلفه جمال الدين أبى المحاسن بن يوسف بن تغرى بردى (ت٨٧٤هـ / ١٤٦٥م) ، وعلى الرغم من أن هؤلاء المؤرخين مشارقة إلا أنهم أولوا أخبار المغرب عناية خاصة لاسيما أخبار بنى زيرى وبنى حماد والمرابطين وهم فى هذا لا يتميزون عن المشارقة فحسب وانما يتميزون أيضا عن المغاربة من معاصريهم، وكثير من معلوماتنا التاريخية قد جاءت عنهم ، وكتبهم من أمهات الكتب التى لاغنى عنها لباحث فى التاريخ الاسلامى .

ومن بين المصادر الهامة التى استعنت بها كتاب « عيون الأخبار وفنون الأثار لمؤلفه الداعى ادريس عماد الدين بن الحسن بن عبد الله القرشى (ت٨٧٢هـ/ ١٤٧٠م) ، ويعتبر أشمل الكتب فى تاريخ الدولة الفاطمية ، وان كان يمثل وجهة نظر الدعوة الاسماعيلية كما أن مؤلفه أكبر مؤرخ للدعوة الاسماعيلية ، باعتباره الداعى المطلق لطائفة الاسماعيلية المستعلية فى اليمن ، واعتمد على ما تركه كبار الدعاة الذين تقدموه من نصوص وأقوال محفوظة فى بيت الدعوة الإسماعيلية،

وقد اعتمدت على السبع السادس تحقيق الدكتور مصطفى غالب ، بيروت ١٩٨٤ ، يتناول فيه المؤلف مسير القائد جوهر الصقلى إلى مصر ، ثم انتقال الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة ، ثم يستعرض عهود الخلفاء الذين تعاقبوا على الخلافة الفاطمية فى مصر بعد وفاة المعز لدين الله ، حتى عهد الخليفة المستنصر بالله.

أما كتب الجغرافيا والموسوعات والرحلات فكانت مرتكز بحثى عن السلع وطرق التجارة والمعاملات التجارية فى فصل العلاقات التجارية ، ويأتى كتاب « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » لمؤلفه أبى عبيد الله بن عبد العزيز البكرى (ت ٤٨٧هـ /١٠٩٤ م) ، الذى نشره دى سلان De Slane بالجزائر سنة ١٩١١ م بعنوان :

Description de l'Afrique Septentrionale

ويحوى هذا الكتاب معلومات جغرافية وتاريخية هامة عن بلاد المغرب وعن طرق التجارة ، وقد أفدت منه كثيراً ،وخاصة فيما يتعلق بالسلع التجارية والطرق وأهم مراكز التجارة .

ويأتى كتاب «وصف المغرب وأرض السودان مصر والأندلس » المأخوذ من كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » لمؤلفه أبي عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله ابن ادريس الإدريسي (ت ٥٤٨ هـ/١١٥٣م) ،ويعتبر هذا الكتاب من أعظم المصادر الجغرافية لدراسة الجوانب الحضاريةفى مصر والمغرب والأندلس فى القرن السادس الهجرى (١٢م) ، ومما لا شك فيه أن مشاهدات الإدريسى فى اسفاره تركت صداها فى وصفه للعمران المدنى ، ونظراً لأن الإدريسى صنف هذا الكتاب فى بلرم تحت رعاية روجار الثانى جعل بعض أحكامه على الهجرة الهلالية تؤخذ بتحفظ ، وعلى الرغم من ذلك فهو مصدر رئيسى وهام من مصادر البحث ، أفدت منه كثيراً فى العلاقات التجارية والصلات الإجتماعية ، واستجلاء ما غمض من أسماء المدن والقبائل .

ومن بين مصادر الرحالة أفدت من كتاب « رحلة ابن جبير » المعروفة باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» لأبى الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م)الذى زار مصر سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٣م فى أعقاب سقوط الدولة الفاطمية ، وهو فى طريقه إلى الحج ، وسجل مشاهداته فى رحلته التى تعتبر وثائق هامة عن الحركة الفكرية فى مصر ، وتشير فى مجال التجارة الى تقلص دور المسلمين فى تجارة البحر المتوسط.

ومن الكتب التى استفدت منها فى توثيق مادة البحث كتاب « سفر نامه » للرحالة ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨ م)، وكتاب « رحلة التجانى » لأبى محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجانى (ت ٧١٧هـ/ ١٣١٧م) وكتاب « رحلة ابن رشيد السبتى » لمؤلفه أبى عبدالله ويعرف بابن رشيد (ت ٧٣١هـ/ ١٣٢١ م) وكتاب «الروض المعطار فى خبر الأقطار » لمحمد بن عبد المنعم الحميرى (ت ٨٦٦هـ/١٤٦١ م) .

ويعد كتاب « وصف إفريقيا » للرحالة المغربى الحسن بن محمد الوزان الفاسى وهو نفسه ليون الافريقى Leon Africanus (١٤٨٨ ـ ١٥٣٢ م) من أهم مصادر الرحالة المغاربة فى الحياة الاقتصادية ، ومنهج الوزان يختلف عن منهج الجغرافيين والرحالة المغاربة الذين سبقوه ، فمعظم المادة العلمية التى ذخر بها كتابه هو ما شاهده بعينه أو سمعه بأذنه ، فكتب وصفاً لافريقية وأرخ لممالكها وشعوبها وقبائلها ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الايطالية سنة ١٥٢٦م ونشر Romusio النص الايطالى ، وترجمه من الايطالية إلى الفرنسية ترجمة حديثة A. EPAULARD وقام بتعريبه الدكتور عبد الرحمن حميده ، ونشر بالرياض سنة ١٩٧٩ منشورات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، وقد أمدنى هذا الكتاب بمعلومات وفيرة عن التوزيع الاقليمى لبنى هلال فى المغرب وعاداتهم وتقاليدهم وكذلك بالنسبة لقبائل البربر ، هذا فضلاً عن طرق التجارة والسلع والمعاملات التجارية.

كذلك امدتنى كتب الطبقات والتراجم بمعلومات قيمة ألقت الضوء على جوانب العلاقات الثقافية ومن أهم هذه الكتب « كتاب الصلة » لابن بشكوال ، وكتاب « انباه الرواه على أنباه النحاة » للقفطى ، وكتاب « الحلة السيراء » لابن الأبار ، وكتاب «معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان » للدباغ ، وكتاب « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه » للسيوطى ، وكتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة.

وإلى جانب هذه الكتب استفدت كثيراً من كتب الأدب وأهمها « كتاب العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده » لابن رشيق القيروانى ، وكتاب « خريدة القصر وجريدةالعصر » للعماد الأصفهانى ، وكتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى.

وأما الوثائق فقد أمدتنى بمعلومات ذات قيمة تاريخية نادرة وكانت مرتكزى فى كثير من جوانب البحث ، وأهمها الوثائق البردية التى جمع بعضها العالم ادولف جروهمان فى ستة أجزاء طبعت فى القاهرة (١٩٣٤ ـ ١٩٧٤)، وكذلك مجموعة السجلات المستنصرية وهى مكونة من ستة وستين سجلاً(١) ، وتلقى هذه السجلات بعض الأضواء الهامة على الفترة المتأخرة من حكم المستنصر بالله الطويل (٤٢٧ـ٤٨٧ هـ) ، وقد أفادتنى بمعلومات هامة عن القطيعة السياسية والمذهبية بين مصر وإفريقية فى عهد المعز بن باديس ، وكذلك أفدت من السجلات الخاصة بتقليد الوزراء الفاطمين الوزارة ، وحفظ ابن الصيرفى بعضاً منها فى كتابه « الاشارة إلى من نال الوزارة » .

ومن الوثائق الهامة تأتى « موسوعة جنيزة القاهرة » والتى ترجع إلى عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية أى الفترة من منتصف القرن الرابع الهجرى/

---

(١) أيمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ الفاطميين / ١٤٧ .

(٢) Goitein, S, D, A Mediterr anean Society, University of California, 1967, Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton., 1973.

العاشر الميلادى إلى منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وهى رسائل متبادلة بين التجار اليهود الذين نزحوا عن افريقية واستقروا فى مصر وبين أقربائهم ووكلائهم الذين بقوا فى مدن افريقية ، وهذه الرسائل تعد مصدراً وثائقياً رئيسياً للتجارة، وقد نشر العالم الانجليزى (س . د. جويتين Coitein, S. D) على مدى ثلاثين عاماً العديد من البحوث والدراسات فى الدوريات والمجلات العلمية عن مختلف جوانب محتويات وثائق الجنيزة ، وتوج دراسته بأن أصدر فى السنوات الأخيرة أربعة مجلدات ضخمة من الدراسات عن هذه الوثائق(٢) ، وكان جل اعتمادنا على المجلد الأول ، هذا فضلاً عن كتابه القيم والمعنون بـ « دراسات فى التاريخ الاسلامى والنظم الإسلامية » وقام الدكتور عطية القوصى بتعريب هذا الكتاب ، ونشر فى الكويت سنة ١٩٨٠ م ، والحق اننى استفدت كثيراً من وثائق الجنيـزة فى مجال العلاقات التجارية بين الفاطميين ودول المغرب وكانت من الشواهد الوثائقية فى الملاحة والسلع المتبادلة ونقلها ، وحركة القوافل والمعاملات التجارية هذا فضلاً عما أمدتنى به فى جوانب الحياة الاجتماعية .

وأما كتب النقود فقد أمدتنى بمعلومات قيمة بفضل ما قدمته لى من أدلة مادية تثبت حقائق الأوضاع الاقتصادية فى مصر ودول المغرب وتشير إلى التطورات السياسية المختلفة ، هذا وقد أفدت من المصادر المختلفة التى أشرت إليها خلال البحث.

و لم أهمل بطبيعة الحال الدراسات الحديثة سواء التى قام بها المؤرخون والباحثون العرب أوالتى قام بها المستشرقون .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أتوجه بخالص شكرى ، وعظيم امتنانى لأستاذى الجليل الدكتور محمد أمين صالح أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الأداب جامعة القاهرة، لعنايته واهتمامه بأمر هذا الكتاب ، بما قدمه لى من توجيه ونصح أفدت منهما الكثير

أثناء اعداده للطبع . كما أجد لزاماً علىّ أن أسجل الشكر والعرفان للأستاذين الجليلين الدكتور سعد زغلول عبد الحميد والدكتور عطية القوصى اللذين استفدت كثيرا من توجيهاتهما ، وأنا أعد الكتاب للطبع .

كما يطيب لى أن أتقدم بأسمى أيات الشكر والتقدير لأستاذى الجليل الدكتور حسن أحمد محمود لما اسداه لى من نصح وتوجيه ، فجزاه الله عنى خير الجزاء .

وبعد فانى أرجو أن أكون بعملى المتواضع هذا قد أسهمت فى اعطاء صورة واضحة للعلاقات بين مصر ودول المغرب فى تلك الفترة، وأن أكون قد سددت شيئا من النقص فى هذا الجانب من التاريخ .

والله ولى التوفيـــق ،

القاهرة يوليو ١٩٩٦

د . حســن خضيرى

الفصـل الأول

(العلاقات السياسية)

أولاً : العلاقات السياسية مع دولة بنى زيرى فى إفريقية

ثانياً : العلاقات السياسية مع دولة بنى حماد فى المغرب الأوسط .

ثالثاً : العلاقات السياسية مع دولة المرابطين بالمغرب الأقصى .

رابعاً : العلاقات السياسية مع دولة الموحدين بالمغرب

أولاً : العلاقات السياسية مع دولة بنى زيرى فى إفريقية :

تطلع الخلفاء الفاطميون منذ قيام دولتهم فى المغرب الى توجيه أنظارهم الى مصر لثرائها ، وأهمية موقعها الجغرافى سياسياً وحربياً ، خصوصاً وأن ولاة هذه البلاد كانت إليهم ولاية الشام والحجاز ، فكان امتلاك مصر امتلاكاً لهذين البلدين العظيمين[١] .

شرع الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ/٩٥٢ ـ ٩٧٥م) قبل اعداد جيوشه لفتح مصر ، فى نشر الدعوة الفاطمية فيها على نطاق واسع ، وخاصة بعد أن أحسن كافور استقبال الدعاة الفاطميين الذين وفدوا عليه من قبل المعز ، يدعونه الى طاعته ، ومال إلى المذهب الفاطمى الكثير من الكتاب والجنود الاخشيدية والكافورية[٢] ، على أن كافور راوغ فى الاجابة ، ولم يعط رسل المعز إجابة شافية رغم ترحيبه بهم ، يتجلى ذلك من قول صاحب النجوم الزاهرة [٣] : «كان يهادى المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء .....» ، وكان دعاة المعز بمصر يقولون «إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها ، وبيننا وبينكم الحجر الأسود (يعنون كافور الأخشيد) .[٤]

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية ، طبعة ثالثة. القاهرة ١٩٦٤ ، ص١١٣.

(٢) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥/١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة ١٩٩٠م ، ٢٧/٢ .

(٣) أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة طبعة دار الكتب المصرية ، ٦/٤ .

(٤) المقريزى : الخطط . ٣٥٢/١

صار فى مصر عدد غير قليل من أولى الرأى يرسلون بكتبهم إلى المعز ويدعونه لفتح مصر نستشف ذلك من قول المعز فى رؤساء كتامة «.. إنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى» (١)، ولم تلبث أن ساءت أحوال مصر بعد وفاة كافور سنة (٣٥٧ هـ / ٩٦٩ م) ، فقد انتشرت الفوضى، وتعددت الفتن، واضطربت الأسعار وتعذر وجود الأقوات وهلك الضعيف من الناس ، وأكلوا الميتة (٢) ، وكتبت جماعة من الاخشيدية، ووجوه البلد الى المعز لدين الله ، يطلبون اليه التقدم نحو مصر ليتسلمها، «وضمنوا له المساعدة على أن يملك البلد بغير حرب ولا قتال»(٣) .

وهكذا تهيأت الفرصة تماماً لنجاح الغزو الفاطمى على يد جوهر الصقلى (٤) ، قائد المعز لدين الله الفاطمى ، الذى توجه إلى مصر على رأس جيش قوامه نحو مائة الف فارس فى ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ / يوليو ٩٦٩ م ، والاستيلاء على مصر (٥) .

شرع جوهر الصقلى فى بناء مدينة القاهرة ، وتأسيس الجامع الأزهر ، وتشييد قصر الخلافة وبدأ فى ارساء قواعد الحكم الفاطمى فى مصر ، حيث أمر باحلال

---

(١) المقريزى : الخطط ٣٥٢/١

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكى (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م) : تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى،باريس ١٩٢٤ ، / ١٤، المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩٠ م ،/ ٤١،٤٠

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخ يحيى بن سعيد / ١١٤ ، أنظر : سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٠م ،/٣٦٥ .

(٤) أنظر ترجمة جوهر الصقلى عند كل من : الحسن بن زولاق (ت ٣٨٧ هـ) : كتاب أخبار سيبويه المصرى ، القاهرة ١٤١٠هـ ،/ ٦٤، ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، دار الثقافة (بيروت ١٩٧٢) ، ٣٧٥/١ المقريزى : الخطط ، ٣٧٧/١ ـ ٣٧٨، أنظر : على ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلى، القاهرة ١٩٣٣م.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٣٧٥/١ ـ ٣٧٦ ، المقريزى : الخطط ، ٣٧٧/١ .

الدعوة للخليفة المعز محل الدعوة للخلفاء العباسيين فى المساجد (١) ، كما ضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى ، ومنع الناس من لبس السواد شعار العباسيين (٢) ، وبعث بالبشارة الى الخليفة المعز لدين الله ، وصار يحثه على الرحيل الى مصر (٣) .

لما عزم المعز على الرحيل الى مصر ، أجال فكره فيمن يخلفه فى المغرب ممن يتوافر فيه صدق التشيع ، ورسوخ القدم فى الدراية بأمور هذا الاقليم (٤)، مع أنه كان يدرك أن نفوذ الفاطميين فى بلاد المغرب لن يدوم طويلاً لما كان يعرفه من شدة مراس البربر ، وطبيعتهم الثورية (٥) .

وقع اختيار المعز أولاً على جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأندلسى(٦)، وأسرَّ إليه أنه يريد استخلافه بالمغرب، بيد أن جعفر اشترط لقبول هذا المنصب شروطاً تجعله شبه مستقل عن مصر ، فيقول للمعز : «تترك معى أحد أولادك ، أو أحد اخواتك

---

(١) المقريزى : الخطط ٣٧٨/١ ـ ٣٨٤ ، ٢٧٣/٢ ، ادريس عماد الدين بن الحسن بن عبد الله القرشى (ت٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧م) عيون الاخبار ، وفنون الآثار ، تحقيق مصطـفى غالب، بيروت ١٩٨٤ السبع السادس/١٥٤ ـ ١٥٥ .

(٢) ستانلى لينبول : سيرة القاهرة ، ترجمة دكتور حسن ابراهيم حسن وآخرون مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ ، /١١٨ ، عبد الرحمن فهمى محمد : موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٦٥م ، / ١٩٩ .

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى /٦٤ ، ابن ظافر ، جمال الدين أبو الحسن على بن أبى منصور ظافر الازدى (ت ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م) : أخبار الدول المنقطعة ، دراسة القسم الخاص بالفاطميين ، المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية ، القاهرة ١٩٧٢ ،/٢٣ ، المقريزى : الخطط، ٣٧٧/١ .

(٤) ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م) : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر-دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١م ، المجلد السادس ، القسم الرابع ، / ٣١٧ .

(٥) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير (العصر الاسلامى) ، الاسكندرية ، ١٩٦٦م ،/٦٣٦ .

(٦) أبو على جعفر بن على بن حمدون الأندلسى صاحب المسيلة، وأمير الزاب من أعمال افريقية ، وكان أبوه قد بنى المسيلة ، وكانت بينه وبين زيرى بن مناد ، ضغائن ومنازعات وأفضت إلى معركة قتل فيها زيرى بن مناد الصنهاجى. (انظر : ابن الآبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى (ت٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م) : الحلة السيراء ، نشر وتحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ٣٠٥/١ انظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/ ٣٦٠).

جالساً فى القصر، وأنا أدبر وأعمل ، وكأنى أطالع من يأمرنى ليتم أمرى .. ولا تسألنى عن شيئ من الأموال إذ كان ما أجبيه بازاء ما أنفقه .. واذا أردت أمراً فعلته ، دون أن أنتظر ورود أمرك فيه ، لبعد ما بين مصر والمغرب، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره من قبل نفسى » ، فأجابه المعز غاضبا بقوله : «ياجعفر عزلتنى عن ملكى ، وأردت أن تجعل لى شريكا فى أمرى ، واستبددت بالأعمال والأموال دونى ، قم فقد أخطأت حظك ، وما أصبت رشدك(1). ويستدعى الخليفه المعز بعد ذلك بلكين ابن زيرى أحد رجالات الدولة من صنهاجه ، وقال له : «تأهب لخلافة المغرب »، فاستعظم بلكين ذلك وقال : « يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لى، وأنا صنهاجى بربرى ؟ قتلتنى يامولانا بغير سيف ولا رمح !! فلم يزل به المعز حتى أجاب »(٢) .

خلع المعز على بلكين خلعته التى كانت عليه ، ونزع سيفه فقلده إياه بيده(٣) ، وسماه اسماً عربياً هو «يوسف» وكناه كنية عسكرية «أبو الفتوح» ، ولقباً ملكياً هو سيف

---

(١) ابن سعيد ، على بن سعيد المغربى (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦م) : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، تحقيق حسين نصار ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ، ١٩٧٠م / ٤٤ .

Idris, H.R.:La Berbérie Orientale sous Les Zirides
X - XII Siecles, Paris, 1962 Tom I, PP. 42 - 43,

(٢) المقريزى : الخطط ٣٥٣/١ ، اتعاظ الحنفا ، تحقيق جمال الدين الشسيال القاهرة ١٩٤٨، ١٤٢/١ يذكر النويرى أن الخليفة المعز عندما بعث فى طلب جعفر بن على ليستخلفه على المغرب ، خرج جعفر من المسيلة ، وأشهر المسير الى المعز ثم مال بعسكره ، ومعه السلاح والأموال ، ومضى الى زناته ، وخلع طاعة المعز ، وذكر أن الذى حمله على ذلك عداوة زيرى ابن مناد ، (النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الله النويرى (ت٧٣٣ هـ / ١٣٣١م) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٨٣) ٢٤ ,١٦٥ ,١٦٦ ، ومن المرجح أن جعفر خرج على طاعة المعز بعد أن وقع اختياره على بلكين الذى كان قد تقدم فى الحظوة فى البلاط الفاطمى ، فضلاً عن العداء الذى استحكم بينه وبين زيرى بن مناد وابنه بلكين ، ويقول صاحب سيرة الأستاذ جوذر : «وكان بينه وبين يوسف بن زيرى اختلاف كثير » ، مما حمل الخليفة المعز للتوسط فى الصلح بينهما (الجوذرى، أبو على منصور العزيزى: سيرة الأستاذ جوذر/ ، القاهرة ١٩٥٤، ١٠٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٦٠/١.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ٢٤/ ١٦٨ .

الدولة[1] ، كما أهداه أجمل خيوله ، وألبسه زى قائد الجند[2] ، وقلده بسلاسل ذهبية دليلاً على التقدير السامى، وعلامة للتبعية[3] ، وكتب له سجلاً وأمر الناس بالسمع له والطاعة [4] ، وأصبح منذ ذلك الحين نائباً للفاطميين فى حكم بلاد المغرب وامتدادا لهم ضد زناتة والخلافة الأموية فى الأندلس [5] .

ومهما يكن من أمر فان بلكين بن زيرى ، كان رجل الساعة ، فأمر توليته متوقع منذ وقت بعيد ، فقد كان له ولوالده وقبيلته صنهاجة[6] السبق والفضل فى انقاذ الفاطميين أثناء محنتهم مع أبى يزيد مخلد بن كيداد الزناتى[7] ، الذى حاصر

---

(١) ابن الخطيب ، لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م) : أعمال الأعلام ، تحقيق أحمد مختار العبادى ، محمد ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ١٩٦٤، القسم الثالث/٦٥ ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى/٣١٧.

(٢) النويرى : نهاية الأرب ٢٤/١٦٨ .

(٣) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامى فى العصور الوسطى ، ترجمة محمد عبد الحميد هيكل ، الاسكندرية ١٩٩١م /١٨٢ .

(٤) ابن أبى دينار ، محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى (ت: ١١١٠هـ / ١٦٩٨م) : كتاب المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، تونس ١٢٨٦ هـ /٧٤ .

(٥) I dris, H.R.: La Berbérie, P.39

(٦) صنهاجة : هى أوفر القبائل البربرية عدداً ، ولا يكاد قطر من أقطار المغرب يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر ، وهم فرعان : صنهاجة الجنوب مؤسسة دولة المرابطين ، وصنهاجة الشمال مؤسسة دولة بنى زيرى (ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول/٣٠٩ - ٣١١ ، السلاوى الناصرى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/ ٦٠-٦٦ ، أنظر : حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين /٣٥-٣٧ .

(٧) ينتمى أبو يزيد إلى قبيلة يفرن أحد فروع قبيلة زناته ، وتنتمى أمه الى قبيلة هوارة ، ولذلك كان أبو يزيد يتمتع بتأييد قوى من هاتين القبيلتين ، ولد أبو يزيد فى واحة توزر ، وكان والده تاجراً، ومال الى الخوارج ، واعتنق مذهبهم ، وعاش فى تاهرت عاصمة الدولة الرستمية ، وظهر أمره فى سنة ٣١٦ هـ ، وقويت شوكته فى عهد القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٥ م) ، وقد لاقت ثورته تأييدا شعبياً واسعاً ، بعد أن انضم إليها فقهاء المالكية ، ووصل أبو يزيد إلى أسوار المهدية وحاصرها .

راجع : ابن حماد ، أبو عبد الله محمد بن على (ت ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١م) : أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، تحقيق التهامى نقرة ، وعبد الحليم عويس ، (=)

عاصمتهم المهدية ، وكاد أن يقضى على الدولة الفاطمية ، فضلاً عن مساندته لجوهر الصقلى فى إخماد ثورات قبيلة زناته الموالين للخلافة الأموية بالأندلس ، بما يعزز رغبة المعز فى استخلاف بلكين بن زيرى بالمغرب لقوته وكثرة أتباعه ، واعترافاً بفضل صنهاجة فى الدفاع عن الخلافه الفاطمية(١) .

على أن الخليفة المعز وان كان قد أعطى بلكين بن زيرى ولاية إفريقية والمغرب ، فانه كان يخشى أن يتغلب بلكين على البلاد ، ويستقل بها بعد رحيله إلى مصر (٢) ، يساعده على ذلك الصحراء الشاسعة بين مصر وبلاد المغرب ، لذلك رأى المعز أن خير وسيلة للإحتفاظ بتبعية المغرب للفاطميين هى أن يعمل على اضعافه ، واثارة الفرقة والتنافس بين قبائله ، حتى تظل فى حروب بعضها مع بعض ، فلا تفكر مطلقا فى الخروج عن طاعة الفاطميين بمصر (٣) ، لذلك رحب بالوحشة بين صنهاجة وبين زناتة (٤) ، كما حرّض كتامة على منع صدقاتها عندما أرسل فى طلبها ،

(=)القاهرة ١٤٠١ هـ ، /٥٣-٥٨ ، محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر / ٢٧ - ٢٨ ، ادريس صالح الحرير : الفاطميون فى تونس ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول ، السنة العاشرة ، طرابلس / ليبيا ١٩٨٨ م / ٨٨ - ٩٠ .

(١) ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٩ م ٨/٦٢٤.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٨/٦٢٤ .
ويبدو أن الخليفه المعز كان يدرك ما سيؤول إليه أمر صنهاجة بعد رحيله إلى مصر ، يتضح ذلك مما ذكره كل من ابن سعيد والمقريزى ، عندما استدعى الخليفه المعز جعفر بن على واشترط جعفر شروطاً ، ثم استدعى المعز بلكين بن زيرى ، وأجاب إجابة رجل يخاف من تحمل المسئولية ويتصنع الخوف من حكم المغرب ، فلما انصرف بلكين قال أبو طالب أحمد بن المهدى عبيد الله للمعز : « ونثق بهذا القول من يوسف بأنه يفى بما ذكره ؟ فقال المعز : «ياعمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر ؟ فاعلم يا عم - أن الأمر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف وإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ، ولكن هذا أولاً أحسن وأجود عند ذوى العقل وهى نهاية ما يفعله من ترك دياره ») (ابن سعيد المغربى : النجوم الزاهرة / ٤٥ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ١/١٤٣) .

(٣)أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطمين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ، العد الأول والثانى سنة ١٩٥٧ م / ٢٠٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٨/ ٦٢٤

وهالهم ذلك ، وقالوا لرسول المعز ، كيف تؤدى كتامة الجزية ويصير عليها فى الديوان ضريبة ، وقد أعزها الله قديما بالاسلام .. وسيوفها بطاعتكم فى المشرق والمغرب (١) ؟ فما كان من جواب المعز لو فد كتامة إلا أنه قال : « ... هكذا أريد أن تكونوا ، فانما أردت أن أجربكم ، فانظروا كيف أنتتم بعدى ، إذا سرنا عنكم الى مصر ، تقبلون هذا وتفعلونه ، وتدخلون تحته ممن يرومه منكم » (٢).

وثمة وسيلة أخرى هى تقسيم أملاك الفاطميين بين عدة قوى سياسية ، فوضعت امارة صقلية وراثية فى بنى أبى الحسين الكلبى(٣)، كما جعل على طرابلس عبد الله ابن يخلف الكتامى (٤) ، «ولم يجعل لبلكين عليه ولاية ولا على صاحب صقلية » (٥) وكذلك أوجد المعز رقابة على الاموال فى افريقية فجعل زيادة الله بن القديم على الجباية بمساعدة عبد الجبار الخراسانى ، وحسين بن خلف الموصدى فى ادارة الشئون المالية (٦) .

---

(١) ابن سعيد المغربى : النجوم الزاهرة / ٤٢، المقريزى : الخطط ١/ ٣٥٢
كتامة : اسم قبيلة كبرى بالمغرب تسكن الفحوص والسهول والجبال فيما بين قسنطينة وبجاية يوجد منها بعض البطون بجبال أوراس ، وهى من أشد القبائل بأساً وأطولها باعاً فى الملك ، لها أفخاد وبطون منتشرة بالمغرب الأوسط وقد لعبت هذه القبيلة دورا كبيرا فى حياة الدولة الفاطمية
عن هذه القبيلة: راجع : أبو على منصور الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذر / ١٥٤ ، حاشية رقم١٦، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس القسم الثانى / ٣٠١ ، عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، الجزائر ١٩٦٥، ١/ ٣٦٥ ، أنظر كذلك
Enc. of Is Iam : art Kutama
(٢) المقريزى : الخطط ١ / ٣٥٢
(٣) ابن الأثير : الكامل ٨ / ٦١٠ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى / ٣١٧، سعد زغلول عبد الحميد : فترة حاسمة من تاريخ المغرب / مجلة كلية الآداب والتربية، بنى غازى الجامعة الليبية ، ١٩٥٨ ، المجلد الأول / ٢٣٨ ، جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها / ٢٤٧
(٤) النويرى : نهاية الأرب ٢٤ / ١٦٩ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول / ١٠٣
(٥) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول / ١٠٣.
(٦) ابن الأثير : الكامل ٨ / ٦٢١ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس القسم الأول / ١٠٣ انظر : عفيفى محمود ابراهيم:بنو زيرى وعلاقاتهم السياسية ، القاهرة ١٩٨٩ / ١٤٣ .

وهكذا وضع الخليفة المعز بجانب بلكين بن زيرى رجالاً لهم نفوذ فى الدولة ، ليكونوا عيوناً عليه وأعواناً له فى نفس الوقت ، خشية أن يستبد بالأمر (١).

لما اطمأن الخليفة المعز على استقرار الأوضاع فى بلاد المغرب خرج فى ٢١ شوال سنة ٣٦١هـ / أغسطس ٩٧٢م فى موكبه الخلافى من المنصورية (٢) وبصحبته بلكين إلى قرية سردانية ـ القريبة من القيروان ـ حيث لحق به رجال حاشيته ، وعماله وأهل بيته ، وجميع ما كان فى قصره من أمتعة وأموال (٣) ، وقد حمل معه « أمو الأجليلة المقدار ، ورجالاً عظيمة الأخطار» (٤).

وقد أسهبت المصادر فى وصف الثروات التى نقلها الخليفة المعز معه الى مصر « فقد أتاه بلكين بن زيرى بألفى جمل من ابل زناتة ، وحمل ماله بالقصور من الذخائر ، وسبك الدنانير على شكل الطواحين ، وجعل على كل جمل قطعتين ، فاستعظم ذلك الجند والرعية » (٥) ، ثم خرج من سردانية بعد ان استكمل تجهيزاته فى ٢٠ من ذى الحجة ٣٦١ هـ / ٣١ اكتوبر ٩٧٢م متجها نحو مصر (٦) فى موكبه الفخم تتقدمه توابيت آبائه ليدفنوا فى مصر ، مما يدل على أنه قد ولّى ظهره للمغرب، ورغبته فى الاستقرار نهائيا فى مصر .

---

(١) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالى ، والبشير بن سلامه، تونس ١٩٧٨ / ٨٩
(٢) المنصورية : مدينة بالقرب من القيروان من نواحى افريقية ، بناها الخليفة الفاطمى الثالث المنصور بن القائم بن المهدى (سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨ م)اثر انتصاره على أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى (البكرى ، أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٩١١ / ٢٥ ، مؤلف مجهول : الاستبصار / ١١٥)
(٣) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول / ١٠٣
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ٢٢٦
(٥) النويرى : نهاية الأرب ٢٤ / ١٦٨ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ١/ ١٤٤ ، ادريس عماد الدين : عيون الأخبار٦ / ١٨٤
(٦)المقريزى : اتعاظ الحنفا ١ / ١٤٤ ، وقارن كلا من ابن الأثير : الكامل ٨ / ٦٢١ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول / ١٠٣ حيث النص عند كل منهما أن إقامة المعز فى سردانية استغرقت أربعة أشهر .

وكانت وصية الخليفة الفاطمى الاخيرة لنائبه فى سردانية تحوى المبادىء الاساسية التى يجب ان تقوم عليها السياسة الداخلية لحكومته فى المغرب والتى حصرها فى ثلاثة أشياء « ان نسيت ما أوصيناك به ، فلاتنس ثلاثة أشياء : إياك ان ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من اخوتك وبنى عمك ، فانهم يرون أنهم أحق بهذا الامر منك ، وافعل مع أهل الحاضرة خيراً[(١)] » ، كما عهد إليه أن يشرع فى غزو زناته بالمغرب الأقصى لحسم دائه، والقضاء على النفوذ الأموى فيه (٢) .

وهكذا كان الخليفة المعز يدرك أن ولاء سكان البادية لا يتم الا بخضوعهم للنظام ، ودفعهم المنتظم لما هو مقرر عليهم لبيت المال ، والضرب بشدة على أيدى الخارجين من البربر ، لما عرف عن البربر من الاضطرابات والقلاقل وعدم خضوعهم لسلطان الدولة (٣)، كما أولى أهل الحضر جلّ عنايته ، فهم عصب الدولة الحقيقى ، ومصدرثروتها (٤) ، وأما تحذير الخليفة للأمير الزيرى من اخوته وأقاربه ، وهو ما ستكشفه الأحداث فى الاسرة الزيرية فيما بعد ، وهذا يدل من غير شك على بعد نظر الخليفة الفاطمى وحسن سياسته .

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث / ٦٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ / ٢٨٦ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى / ٣١٨ ، ابن أبى دينار : المؤنس / ٧٤

(٢) ابن خلدون : العبر ، المجلد السسادس ، القسم الثانى / ٣١٨ ، وراجع :
Idris, H, R .: La Berberie, pp . 43 , 44

(٣) حفظت سيرة الأستاذ جوذر بعض الوثائق التى كتبها الخليفة المعز إلى مولاه جوذر، والتى يشير فيها إلى المتاعب التى يلاقيها الأئمة الفاطميون فى حكمهم للمغرب، ومن ذلك قوله فى البربر: « ولولا هذه الأحوال الفاسدة المتمكنة فى هؤلاء الهمج الرعاع » .. (أبو على منصور الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذر ، / ١٠٧ ، / ١٢٣ ، أنظر : أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين، / ٢٠٩ ، حاشية رقم (١) ويقول المعز : « وقد ابتلانا برعاة الحمير الجهال فإنا لم نزل نتلطف فى هدايتهم ومسايرة أحوالهم إلى أن يختم الله لنا بالحسنى والخروج من بين أظهرهم على أحمد حال») القاضى النعمان ، ابو حنيفة بن محمد المغربى (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٣ـ ٩٧٤م) : كتاب المجالس والمسايرات ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٨م / ٣٩٦، / ٣٩٧ .

(٤) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ٣ / ٢٨٣ .

وصل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله الاسكندرية فى أواخر شعبان سنة ٣٦٢هـ / أوائل يونية ٩٧٣ م [١] ، ومنها سار إلى القاهرة التى دخلها فى رمضان سنة ٣٦٢هـ / ١٠ يونية ٩٧٣م [٢]، وأصبحت مصر منذ ذلك الوقت دار خلافة ، بعد أن كانت دار إمارة تابعة للخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب [٣]، وبذلك انتقلت الخلافة إلى مصر والقاهرة بدلا من القيروان والمهدية واصبحت القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية .

ما كاد الأمير يوسف بلكين يباشر شئون إمارته الجديدة ، حتى اضطربت الأوضاع فى بلاد المغرب ، وثارت عليه قبيلة زناته، وهاجمت بلاد المغرب الأوسط ، وعاثت فيه فساداً واضطرابا ، فتجرد بلكين على رأس جيش من صنهاجة وكتامة ، فهزم زناته وفتح معاقلهم [٤]، ، وقتل وسبى ونهب وأحرق البلد، [٥] ، ثم توجه إلى تلمسان [٦] ، حيث حشدت زناتة جموعها هناك ، فحاصرها وفتحها ، وأخرج أهلها إلى مدينة أشير [٧] ، بيد أن بلكين ما لبث أن عاد أدراجه إلى القيروان ،

---

(١) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول ١٠٣ ، المقريزى : الخطط، ١ / ٣٥٣ ، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ، ٤/ ٣٦٢ ، انظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ١٤٩/

(٢) المقريزى : الخطط ، ١ / ٣٥٣ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، / ٦٢

(٣) ستانلى لينبول : سيرة القاهرة ، / ١١٩ ، محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر /٧٤

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، / ٦٧ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، / ٧٤.

(٥) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ١٧٠ .

(٦) تلمسان : مدينة مشهورة بالجزائر ، وهى قاعدة المغرب الأوسط ، وبينهما وبين وهران مرحلتان، وكانت تلمسان دار مملكة زناتـــه وحولها قبائل كثيرة من زناته وغيرهم من البربر ، وهى كثيرة الخصب والرخاء ، وكثيرة الخيرات والنعم .

أنظر : الادريسى : صفة المغرب / ٨١ مؤلف مجهول : الاستبصار ، / ١٧٦ ـ ١٧٧ ، الحميرى: الروض المعطار، / ١٣٥ .

(٧) أشير : مدينة أشير عاصمة بنى زيرى الصنهاجيين على مسيرة مائة كيلومتر جنوب غرب الجزائر فى جبال تطرى ، بناها زيرى بن مناد الصنهاجى سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٥م.

(الادريسى: صفة المغرب ، ٨٤، مؤلف مجهول : الاستبصار ،/١٧٠، جوليان : تاريخ افريقيا ، ٨٩

- Enc . of Islam, art Ashir .

حيث صدرت له الأوامر من الخليفة المعز ، بألا يتعدى هذه الحدود كما نهاه عن التوغل فى المغرب (١) .

ويبدو أن الأمير الزيرى كان يرى أن تنظيمات المعز الادارية والمالية تشكل عائقا يحول دون ممارسته لسلطاته ، فعمل بلكين على تعيين رجال موالين له (٢) ، على اعمال ولايته المختلفه، فجعل على إفريقية عبد الله بن محمد الكاتب ، الذى اتخذ صبره والقيروان مقرين له ، وكان عبد الله الكاتب هذا فصيحاً بلغة العرب ولسان البربر، سبق له الخدمة عند بلكين ووالده زيرى، ولم يشأ الكاتب أن يقبل هذا المنصب فى بادئ الأمر ، ولكن قبله مرغماً تحت تهديد بلكين ورجاله بالقتل (٣).

لما وصل عبد الله الكاتب إلى القيروان لتسلم مهام منصبه ، كان فى استقباله عامل الخراج زيادة الله بن القديم ، واتفق الرجلان وصارت كلمتهما واحدة ، بيد أن هذا الوفاق لم يستمر طويلاً فما لبثا أن تحاربا بسبب تضارب السلطة بينهما ، «وكانت فتنة عظيمة بالقيروان » فقد كان لكل من الرجلين طائفة من الأعوان ، وكان من الطبيعى أن ينحاز بلكين إلى جانب نائبه ضد عامل الخلافة ، مما جعل كفة عبد الله ترجح ، حيث ظفر بابن القديم ، وأرسله إلى بلكين الذى أودعه فى السجن حتى توفى فى ١١ من جمادى الأولى سنة ٣٦٦هـ / ٦ يناير ٩٧٧م ، واستبد الكاتب بجباية الأموال وحده(٤) .

على أن اعتقال ابن القديم أثار ثائرة خلف بن خير أحد مساعديه الذى اعتصم بقلعة منيعة والتف حوله عدد كبير من سائر قبائر البربر (٥) ، بيد أن بلكين استطاع أن يقمع هذه الثورة ، ويستولى على القلعة، يقول النويرى (٦) : « وقتل فى

(١) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى، / ٣١٨ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، / ٧٤.
(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، القاهرة ١٩٦٤ ، / ١٥٦ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب ، / ٢٤ / ١٧٢ ، جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقتها ، / ١٨٢
Idrid, H., R., : La Berberie, p . 49
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٨/ ٦٢٢.
(٥) نفس المصدر، /٦٢٣ ، وانظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغربى ٣ /٣٠٥-٣٠٦
(٦) النويرى: نهاية الأرب ، ٢٤ / ١٧٣

القلعة مالا يحصى ، وبعث منها سبعة الآف رأس طوفها عبد الله (الكاتب) فى القيروان ، كما نفى أكثر ممن قتل ..، وهكذا كانت نهاية خلف بن خير وقرابته ، التشهير والصلب وإرسال رؤوسهم إلى مصر (١).

توطد مركز بلكين بما أحرزه من نصر على مناوئيه ، وإذا كانت الخلافه لم تثر مسألة عزل عاملها ابن القديم ، فمن المرجح أن مرد ذلك يرجع إلى السياسة الحكيمة التى كان ينتهجها الخليفة المعز ، والتى كانت تضمن له مظاهر تبعية بنى زيرى دون التعارض مع ما كانوا يطمحون إليه من الاستقلال (٢) .

لما توفى الخليفة المعز لدين لله فى ١١ من ربيع الثانى سنة ٣٦٥هـ / ١٨ ديسمبر سنة ٩٧٥م (٣) وخلفه العزيز بالله ، بعث هذا الخليفه الى بلكين سجلاً بتجديد ولايته على المغرب ، ودراهم من السكة التى ضربت باسمه (٤) ، مما يضفى على بلكين الشرعية فى حكمه ، ويؤكد تبعية بلاد المغرب للخلافة الفاطمية بالقاهرة واستمرت العلاقة طيبة بين الطرفين.

فقد بعث الأمير بلكين فى جمادى الآخرة سنة ٣٦٥هـ / فبراير ٩٧٦م بهدية ثمينة إلي الخليفة العزيز ، كدليل على الطاعة والاخلاص ، وخرج من رقادة ليشيعها(٥) ، وفضلا عن ذلك أمر بلكين عبد الله الكاتب عامله على إفريقية

---

(١) النويرى : نهاية الارب ، ٢٤ / ١٧٣

(٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، / ١٤٥

(٣) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ، / ٦٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٥ / ٢٢٨ ، وقارن خطط المقريزى ١ / ٣٥٣ حيث يذكر وفاة المعز فى ١٤ من ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ .

(٤) ابن أبى دينار : المؤنس ، / ٧٤

أوورد لينبول مجموعة من الدنانير التى ضربت بأسماء الخلفاء الفاطميين فى المهدية والمنصورية، ومن هذه الدنانير دينارضرب فى عهد الخليفة المعز لدين الله يرجع الى سنة ٣٦٢هـ بالمنصورية ، وثمة دنانير أخرى ضربت بإفريقية فى عهد بنى زيرى ترجع إلى عهد الخليفة العزيز .

Stanley Lan - Poole : Catalogue of the collection of Arabic coins preserved in the Khedirvial Library in Cairo , Oxford, 1897, PP. 152 -157,

(٥) ابن عذارى ، أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشى (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) : البيان المغرب فى أخبار المغرب، طبعة بيروت سنة (١٩٤٧ - ١٩٥٠) ، ١ / ٣٢٨ ، انظر : جوليان : تاريخ افريقيا، / ٩٢

والقيروان بجمع ضرائب اجبارية ، لارسالها إلى حاضرة الخلافة الفاطمية ، واشتط الكاتب فى جمعها ، وقد بلغت هذة الجباية أكثر من أربعمائة الف دينار عيناً [١] ، بيد أن الخليفة العزيز لما بلغه اشتطاط بلكين فى جمعها أمره بايقاف جبايتها ، كما أعاد للناس جزءا من المبالغ التى وصلته[٢] ، ونرى من ذلك أن الخليفة العزيز كان يتدخل في الادارة المالية التى يديرها الامير الزيرى [٣] .

وفى اطار العلاقات الودية بين الخلافة الفاطمية والدولة الزيرية ، كتب الأمير الزيرى فى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧ م إلى الخليفة العزيز يسأله أن يضم إلى عمله طرابلس وملحقاتها من أعمال سرت واجدابية [٤] ، ومالبث أن استجاب الخليفة العزيز لمطلب الأمير الزيرى ، وعقد له عليها [٥] ، وبعث بلكين إليها عماله ، فولى عليها أبو الفتوح يحيى بن خلف المليانى [٦] ، بعد أن رحل عنها عامل الخلافة عبد الله بن يخلف الكتامى [٧] ، ولعل الخليفة العزيز قبل ذلك للتخلص من أعباء هذه الولاية ، وفى الوقت نفسه تقرباً لبنى زيرى ، إلا أنه يبدو أن هذا التصرف لم يكن حكيما من قبل الخلافة ، فقد كانت هذه المنطقة سابقا بمثابة الشوكة فى ظهر بنى زيرى ، وعمقا سياسياً يمكن للخلافة بث عيونها من خلالها والوقوف على الأوضاع الداخلية لبنى زيرى، فضلاً عن احكام السيطرة والحد من نفوذ بنى زيرى وطموحهم فى الاستقلال.

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١ / ٣٢٨.
(٢) نفس المصدر ، ١ / ٣٢٩.
(٣) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتهابالمشرق الاسلامى ، / ١٨٣ .
(٤) النويرى: نهاية الأرب ، ٢٤ / ١٧٤ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، / ٧٤ ، وقارن ابن الأثير ، ٦٦٤/٨ حيث يجعل الرواية ضمن أحداث سنة ٣٦٥هـ مع ولاية العزيز للخلافة ، واقرار بلكين على ولاية افريقية وكأنها منحة من الخلافة دون أن يطلبها بلكين.
أنظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ٣ / ٣٠٧ ، حاشية رقم ٥١ ، أنظركذلك Hassam Ibrahim Hassan : Relations. between the Fatimids , p.62
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ١ / ٣٢٨، ابن خلدون : العبر، المجلد السادس القسم الثانى، / ٣١٨
(٦) نفس المصدر ، ١ / ٣٢٩.
(٧) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ،القسم الثانى ، /٣١٨ .

عمل بلكين على توطيد سلطاته فى بلاد المغرب الأقصى ، لذلك خرج فى سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧ م على رأس جيش لردع زناته ، واحكام السيطرة على المغرب الأقصى ، فحاصر سبتة ، فاستعصت عليه لمناعتها [١] ، مما حمله على التوجه إلى فاس التى استولى عليها وعلى سجلماسة[٢] وطرد جميع عمال بنى أميه من الأندلسيين [٣] ، وأعاد مطاردة زناته إلى سبتة آخر معاقل الأمويين الحصينة فى المغرب الأقصى ، بيد أن حصانه سبتة ، وكثرة الرجال والامدادات القادمة من الأندلس حال دن فتحها [٤] ، وقال بلكين : « هذه أفعى فغرت إلينا فاهاً »... [٥] ، وهكذا ظلت سبتة معقلاً حصيناً لزناته ، وبقيت وحدها دون كل بلاد المغرب ، تحت سيطرة المنصور بن أبى عامر ، ومضى بلكين نحو البصرة فهدمها ، ثم توجه إلى مدينة أصيلا ، ومنها إلى برغواطة فحاربهم وقتل ملكهم عيسى بن أبى الأنصار[٦] ، وسبى من نسائهم وذراريهم مالا يحصى عدده [٧]، وأرسلهم إلى عامله فى افريقية ، فلقيهم مع أهل القيروان والمنصورية [٨] .

وحدث أن توجس بلكين خيفة من اثنين من إخوته هما (كباب ومغنين) وقبض

---

(١) ابن عذارى : البيان ١ / ٣٢٩.

(٢) نفس المصدر ، ١ / ٣٣٠.

* سجلماسة : بكسر أوله وثانيه وسكون اللام وبعد الألف سين مهملة ، مدينة فى جنوب المغرب فى طريق بلاد السودان ، أسسها مدرار بن عبد الله ، وبسجلماسة كان قيام الدعوة الفاطمية ، واخراج أبى عبيد الله الشيعى لعبيد الله المهدى من سجن اليسع بن مدرار . (ياقوت الحموى ، ياقوت بن عبد الله الرومى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩ م) : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٢/٣ . ، الحميرى : الروض المعطار، / ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٣) ابن عذارى : البيان ١ / ٣٢٩.

(٤) النويرى : نهاية الأرب، ٢٤ / ١٧٥ .

Idris, H.,R.,: La Berberie, P. 57.

(٥) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس، القسم الثانى ، / ٣١٩ ، السلاوى : الاستقصاء ، ١ / ٢٠٧

(٦) النويرى : نهاية الأرب، ٢٤ / ١٧٥ ، ابن خلدون: المجلد السادس ، القسم الثانى ، /٣٢٠.

(٧) نفس المصدر ، ٢٤ / ١٧٦

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١ / ٣٣٩. ، ابن أبى دينار: المؤنس /٧٥ .

Idris : Op. Cit., P. 57 .

عليهما وأودعهما السجن ، غير أنهما تمكنا من الهروب والفرار إلى مصر ، فأنزلهما الخليفة العزيز ، ووصلهما بعطايا سنية [١] ، ثم توسط الخليفة لدى بلكين ، وطلب منه أن يعفو عنهما ، فعفا وأطاع الأمر [٢].

وقد كانت المكاتبات الرسمية ، والسجلات ترد على بلكين من حاضرة الخلافة الفاطمية فتصله على البريد أثناء تواجده فى مواقع القتال [٣] ، كذلك طلب الخليفة العزيز من بلكين أن يرسل الف فارس ، ومعهم بقية إخوته أبناء زيرى إلى القاهرة[٤]، وكان من الطبيعى ألا يستجيب بلكين ، واعتذر بتغلب بنى أمية على المغرب الأقصى، وأن الدعاء لهم فيها على المنابر ، وأنه قد خرج لمحاربتهم بهؤلاء الرجال[٥]، واكتفى الخليفة بهذا الرد ، ولم يلح فى طلبه[٦] .

واصل بلكين فى حملته العسكرية فى المغرب الأقصى، حيث فرض سيطرته وهيمنته على البلاد، وقضى على نفوذ بنى أمية هناك[٧]، بيد أنه لم يكد يعود أدراجه إلى القيروان حتى تفجرت حركات التمرد والعصيان فى المغرب الأقصى، فقد استولى بنى خزرون على سجلماسة[٨]، كما استولى زيرى بن عطية الزناتى المغراوى على فاس[٩]، مما حمل بلكين أن يتجرد لهم مرة أخرى على رأس جيش كبير ، ولكن

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١ / ٣٣٩
(٢) نفس المصدر ، ١ / ٣٣٩.
(٣) نفسس المصدر ، ١ /٣٣٨ .
(٤) نفس المصدر ، ١ / ٣٤٠.
(٥) ابن عذارى : البيان ، ١ / ٣٤٠.
(٦) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامى ، / ١٨٤.
(٧) ابن خلدون : العبر ،المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٢٠ ، السلاوى : الاستقصا ، ١ / ٢٠٧ ـ ٢٠٨.
(٨) ابن الأثير : الكامل ، ٩ / ٣٤.
(٩) نفس المصدر ، ٩/٣٤، النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ /١٧٦.

المنية عاجلته حيث توفى فى موضع يقال له « واركلان » [1] يوم الأحد ٢٣ من ذى الحجة سنة ٣٧٣هـ / ٢٨ مايو ٩٨٤م قبل أن ينجح فى ردهم على أعقابهم [2].

وهكذا شهدت الدولة الزيرية أوج إتساعها خلال فترة حكم بلكين ، واتسمت العلاقات بين الخلافة الفاطمية والدولة الزيرية بالصفاء والهدوء ، وقد تمثل ذلك فى التبعية المطلقة للخلافة ، والتى تجلت فى سيادة المذهب الاسماعيلى ، ونقش اسم الخليفة على السكة ، والدعاء له على المنابر ، وارسال الجباية الى القاهرة.

تولى المنصور بن بلكين الحكم فى أوائل سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤م [3] ، بعد أن أخذ البيعة على الأجناد [4] ، وأرسل إليه الخليفة العزيز تقليداً بولاية إفريقية والمغرب على سنن أبيه [5] ،بيد أن الأمير الجديد كان له رأى آخر فى شكل هذه التولية وحقيقة ملكه، فقد خطب فى المعزين فى وفاة والده ، والمهنئين له بولايته ، فقال : « ... إن أبى وجدى أخذا الناس بالسيف قهراً ، وأنا لا أخذهم إلا بالاحسان ، وما أنا فى هذا الملك ممن يولى بكتاب ، ويعزل بكتاب لأنى ورثته عن آبائى وأجدادى ، وورثوه عن أبائهم وأجدادهم حمير[6] ، بمعنى أن إمارته ليست هينة فيولى عليها أو يعزل عنها بمجرد أمر كتابى يصدره الخليفة .

---

(١) واركلان : مدينة فى طرف الصحراء مما يلى افريقية ، وهى بلد خصب كثير النخل والبساتين، وأهل واركلان برير، وهم تجار أغنياء يتجولون فى بلاد السودان إلى بلاد غانة، وهم اباضية خوارج. (البكرى: المغرب فى ذكر افريقية ، /٨٩ ، الأدريسى : صفة المغرب،/١١٩، ١٢٠، الحميرى: الروض المعطار، / ٦٠٠.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩/ ٣٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ٥/ ١٢٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٣٤٢/١.

(٤) ابن أبى دينار : المؤنس ، / ٧٥.

(٥)ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول ، / ٣٢٠.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب ، ٣٤٣/١، وقار ن ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ٣٤/٩، النويرى: نهاية الأرب٢٤ / ١٧٨ حيث بعض الاختلافات فى الرواية.

وهكذا أعلن حقيقة إمارته فى إفريقية والمغرب بالنسبة للخلافة الفاطمية ، كما أنكر نسبه البربرى ، وانتسب إلى قبيلة حمير اليمنية ، أصحاب الحق فى حكم إفريقية أمام أعين الناس ، ومع ذلك فان تأييد الفاطميين المعنوى لبنى زيرى فى حكم المغرب كان أمراً لابد منه (١) ، ولهذا بعث المنصور هدية إلى مصر صحبة زوال بن نصر «قيل أن قيمة ما كان فيها من الأمتعة والدواب والطرف الف الف دينار عيناً » (٢).

ومع كل ذلك فقد أراد الخليفة العزيز بالله تطبيق السياسة التقليدية التى اتبعها الفاطميون باثارة قبائل البربر ضد بنى زيرى ، فأرسل فى سنة (٣٧٦هـ/ ٩٨٧م) داعياً إلى كتامة يدعى أبو الفهم حسن بن نصرويه الخراسانى ، بقصد تأليب الكتاميين أحلافهم القدامى ضد بنى زيرى(٣) ، وبذلك يستطيع قتال المنصور وأخذ إفريقية منـه(٤) ، وعند وصول هذا الداعى إلى المنصورية، كان عبد الله الكاتب متواجدا بأشير فى صحبة الأمير الزيرى فنزل الداعى على ابنه ونائبه بالمنصورية (يوسف ابن عبد الله الكاتب) ، الذى أحسن استقباله ، وأغدق عليه العطايا (٥) ، واعلمه أبو الفهم أنه يريد الذهاب إلى بلاد كتامة لدعوتهم ، فكتب إلى والده بذلك ، فما كان من عبد الله الكاتب إلا أن طلب من إبنه أن يعطى المبعوث الفاطمى ما يشاء ، وأن يتركه يذهب حيث يشاء ، «فحمله على أفراس بسروج محلاة ، وحمل بين يديه تخوت ثياب وبـدر دراهم(٦) ويعقب النويرى(٧) على ذلك بقوله: « وكان هذا من الأسباب التى

---

(١) Idrid, H.,R.,: La berberie, p. 39
(٢) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٤٤ ، النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ١٨٧ .
(٣) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٤٥ ، النويرى: نهاية ، ٢٤/ ٣٤٥.
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩/ ٥٢ ، جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، / ٩٠ .
(٥) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٨٢ .
(٦) نفس المصدر، ٢٤/ ١٨٢ .
(٧) نفس المصدر، ٢٤/ ١٨٢ .

حقدها المنصور على عبد الله وإبنه...».

ومهما يكن من أمر فقد نجح أبو الفهم فى جذب كتامة إليه ، فكثر أتباعه ، وعظم شأنه واستقرت أموره عندهم ، حتى صار يركب الخيل ، ويجمع العسكر، ويعمل البنود، ويضرب السكة ، فعظم أمره وشاع خبره [١].

وفى سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م أرسل الخليفة العزيز إلى المنصور يخبره بترقية عبد الله الكاتب إلى مرتبة الداعى[٢] ، ويبدو أن مرتبة الداعى كانت من الوظائف الخلافية المرموقة التى يدخل فى إختصاصها أخذ البيعة للخليفة من الأميروأفراد أسرته[٣].

كذلك تعاظم مركز عبد الله الكاتب ، وبلغ مالم يبلغه أحد من قرابة المنصور، ورجال دولته [٤] ، وانحصرت أمور المنصور كلها تحت قبضته [٥] ، الأمر الذى أثار عليه الأحقاد حتى من أقاربه، واتهموه بمكاتبة يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز[٦] ، وانه هوالسبب فى خروج الداعى أبى الفهم بكتامه ، وأنه كان يصغّر خبره حتى تفاقم أمره[٧] ، وعندما تيقن المنصور بن بلكين من خطورة الداعى عبد الله الكاتب بما يهدد دولته بشكل مباشر ، طلب منه أن يعتزل عمالة إفريقية، بيد أن الكاتب لم يقبل ذلك، وقال للمنصور « القتلة ولا العزلة »[٨]، وكأنه وضع نهايته بقوله، حيث مات قتيلاً بطعنات الرماح من قبل المنصور وأخـيه وهـو يغطـى وجهه

---

(١) ابن عذارى: البيان ، ١/٣٤٥.

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٧٩ .

(٣) نفس المصدر ، /١٧٩ ، انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى، ٣/٣١٢.

(٤)ابن عذارى: البيان ، ١/٣٤٦.

(٥) النويرى: نهاية الأرب ، ٢٤/١٨٠

(٦) النويرى: نهاية الأديب ، ٢٤/ ١٨٠ .

(٧) ابن عذارى البيان ، ١/٣٤٦.

(٨) ابن عذارى : البيان ، ١/٣٤٦، النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/١٨٠

بأكمامه ويقول : « على ملة الله وملة رسوله » ، كما لقى ابنه يوسف نفس المصير على يد المنصور وعمه ماكسن بن زيرى فى رجب سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م [١].

ثم التفت المنصور الى الداعى الفاطمى الثانى أبى الفهم الخراسانى الذى عظم أمره وعظم شأنه فى كتامة ، فكاتب الخليفة العزيز فى أمره ، فبعث إليه الخليفة مبعوثين برسالة ينهاه فيها عن التعرض لأبى الفهم وكتامة، وحذره من عصيان هذا الأمر ، وينذره بقيام كتامه بالقبض عليه وارساله للقاهرة مكبلا بالحبال ، مما أثار سخط المنصور [٢] .

لم يهتم المنصور بتهديدات الخليفة العزيز ، وقد عقد العزم على التخلص من هذا الداعى، فقام بحجز مبعوثى الخليفة ، وجمع قواته من صنهاجة وحرسه الأسود ، وزحف على بلاد كتامة فى سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م [٣] ، حيث إستولى على ميلة ، وخرب قصورها ومنازلها وقال لمبعوثى الخلافة : « هؤلاء الذين زعمتم أنهم يمضون بى بحبل فى عنقى إلى مولاكما »[٤] ، وسار المنصور حتى بلغ مدينة سطيف ، مركز التمرد ، حيث هزم كتامة وأجبرها على تسليم أبا الفهم ، الذى مثُل به بطريقة تثير الفزع فى قلوب الكتاميين ، وقام عبيد المنصور بتقطيع جثته، وأكلوا لحمها أمام مبعوثى الخليفة لكى يقولا له عند عودتهما للخليفة أنهما أتيا من عند شياطين يأكلون بنى آدم ، ليسوا من البشر فى شيىء[٥] .

لم تمض سنتان حتى ظهر داعياً ، يدعى أبو الفرج الخراسانى ، فزعم أن أباه من

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ١/٣٤٧

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/١٨٢ ، ١٨٣.

(٣) ابن عذارى : البيان ، ١/٣٤٨.

(٤) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/١٨٣

(٥)ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩/ ٥٢ـ ٥٣ ، النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٨٤.

ولـد الخليفة القائم جد المعز لـدين اللـه الفاطمـى ، فانضوت تحت لوائـه كتامة وكثرت جموعه [1] ، واتخذ البنود والطبول ، وضرب السكة ، وقد عمل أبو الفرج أكثر مما عمله أبو الفهم [2] ، مما حمل المنصور على أن يتجرد مرة ثانيـة على رأس جيش، وتمكن من هزيمة أبى الفرج وقتله [3] ، وقتل من كتامة عددا غير قليل [4] .

وقد أدت هزيمة كتامـة وإعمال القتل فيها مرتين إلى اضعافها بشكل مكن صنهاجة من بسط سيطرتها التامة على جميع النصف الشرقى من شمال افريقيا ، أما النصف الغربى فقد رأى المنصور أن يتركة لزناتة والأمويين فى الأندلس [5] ، وهكذا حدث نوع من توازن القوى بين القبيلتين المتنازعتين فى المغرب وهما صنهاجة وزناته [6] .

كذلك رأى الخليفة العزيز بعد فشل محاولات تحجيم سلطان بنى زيرى تحقيق السيادة الفاطمية بالشكل التقليدى بطريق آخر بأن أرسل عام (٣٨٢هـ/٩٩٣م) سجلاً للمنصور يعترف فيه بابنه باديس ولياً للعهد ، فسر المنصور بذلك ، وجاءته الهدايا من كل جهة ومكان ، [7]، وفى سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م أرسل الخليفة العزيز هدية جليلة إلى المنصور مع جعفر بن حبيب فيها فيل عظيم ، فركب المنصور بعسكره وتلقاها[8]، وتحسنت العلاقات بين الطرفين كما ظهر فى الأحداث التالية .

---

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ١٨٤/٢٤

(٣)ابن الأثير : الكامل ، ٦٧/٩ .

(٣) نفس المصدر ، ٦٧/٩ .

(٤)النويري : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٨٤ .

(٥) Hassan Ibrahim: Relations., p. 49.

(٦) جوليان: تاريخ افريقيا الشمالية ، /٩٠ ، أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين ، /٢١٤

(٧) ابن عذارى : البيان ، ٣٥٢/١.

(٨) ابن ابى دينار : المؤنس ، /٧٧.

فقد توفى المنصورين بلكين فى ٣ من ربيع الأول سنة ٣٨٦هـ / مارس ٩٩٦م[١]، وخلفه ابنه باديس ، الذى عمل على توطيد الروابط بين إفريقية والقاهرة ، فافتتح عهده بتجهيز هدية إلى الخليفة العزيز [٢] ، و بينما هو يعدها ، اذ وصله طلب الخلافة بارسال القاضى محمد بن عبد الله بن هاشم ـ الذى كان مريضاً ـ إلى القاهرة، فأجاب باديس هذا الطلب ، فأمر رجاله بحمل القاضى على بساطه نحو رقادة ، فى صحبة الهدية المسافرة إلى القاهرة [٣] .

توفى الخليفة العزيز فى ــ ٢٨ رجب سنة ٣٨٦هـ/ يوليو ٩٩٦م ، وخلفه ابنه الحاكم بأمر الله أبو على المنصور ، الذى بعث فى سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م الشريف الداعى على بن عبد الله العلوى المعروف بالقاضى الباهرى[٤] الى المنصورية بسجلين ، أحدهما بولاية أبى مناد وتلقيبه نصير الدولة ، والثانى بوفاة العزيز بالله ، وخلافة الحاكم بأمر الله ، والجواب عن وفاة المنصور ، و العزاء عن نزار وعن المنصور ، فضلاً عن سجل ثالث بأخذ البيعة على باديس وأهله من بنى مناد للخليفة الحاكم [٥] .

وأحسن باديس وفادة الشريف الباهرى ، ووصله بمال كثير ، وتخوت ثياب ، وبراذين بسروج محلاة وصرفه إلى مصر [٦] ، فضلاً عن هدية جليلة جهزها للخليفة الحاكم [٧] والذى بدوره بعث فى السنة التالية ، بهديه جليلة إلى نصير

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٨٤ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٣٥ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، /٧٨ .

(٣) نفس المصدر ٣٣٥-٣٥٦

(٤) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٥٦ ، وقارن النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٨٥ ، ١٨٦حيث يذكر اللقب التيهرتى بدلاً من الباهرى ، وقد أخذنا بما جاء عند ابن عذارى.

(٥) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٨٦ .

(٦) ابن عذارى : البيان ، ١/٣٥٧ ، النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٨٦ .

(٧) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ /١٨٦ .

الدولة باديس ، كانت تحوى الجواهر والأعلاق النفيسة ، وخرج الأمير الزيرى بنفسه لاستقبالها فى المنصورية في موكب كبير (١) .

وعلى الرغم من هذه العلاقات الودية فقد أراد الخليفة الفاطمى إزالة سلطان بنى زيرى على اقليم طرابلس ، منتهزا تحرك زناته هناك بزعامة فلفل بن سعيد الزناتى، ووات الحاكم بأمر الله الفرصة عندما أرسل اليه (تموصلت بن بكار) نائب باديس على طرابلس ، أن يسلم اليه طرابلس ويلتحق به فى القاهرة (٢) ، وعلى الفور أمر الحاكم بأمر الله واليه على برقة بالتقدم للاستيلاء على طرابلس ، وكان أن استولى يأنس الصقلى على طرابلس سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م (٣) ، وارسل باديس يسأله عن سبب وصوله طرابلس ، وهل لديه عهد من الخليفة بالولاية ، فكان رد يأنس بقوله: « انما أرسلنى معيناً ونجدة إن إحتيج إلىّ ، ومثلى لا يطلب منه عهد بولاية لمحلى من دولة الحاكم » (٤) .

لم يرض الأمير الزيرى عن خروج طرابلس من سلطانه ، كما لم يقنع الأمير الزيرى بهذا الرد الاستفزازى ، وعزم على استعادة طرابلس ، فأرسل جيشاً بقيادة جعفر بن حبيب ، اصطدم بالجيش الفاطمى خارج المدينة فى معركة حامية الوطيس، انتهت بمقتل الوالى الفاطمى ، ولاذ بقية الجيش بأسوار المدينة التى ضرب عليها الحصار(٥) ، وطلبت القوات الفاطمية النجدة من الخليفة الحاكم ، واستجاب لذلك حيث عقد ليحيى بن على بن حمدون الأندلسى - أحد أعداء الزيريين - على رأس جيش

---

(١)ابن عذارى : البيان ، ٣٥٧/١.
(٢) المقريزى :تعاظ الخفا ٣٤/٢.
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ١٥٤/٩.
(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ١٥٤/٩.
(٥) نفس المصدر ، ١٥٤/٩.

ومنحه مال برقة (١)، بيد أن يحيى وجد الخزانة خاوية ، مما أثار عليه سخط الجنود ، فاضطر إلى الاعتصام بأسوار طرابلس (٢) ، ومالبث أن انضم بقواته إلى جيش فلفل ابن سعيد للقيام بعمل مشترك ضد الأمير الزيرى ، ولكن هذا التحالف لم يقدر له النجاح (٣) ، لتنازع القيادة بين الزعيمين ، واعتداء جنود فلفل بن سعيد على معسكر يحيى ، هذا إلى جانب قلة المال (٤)، مما اضطر ابن حمدون إلى الرجوع إلى مصر، والتعرض لمساءلة الحاكم وسخطه وإن نجح فى اقناعه بقبول عذره(٥) ، فى الوقت الذى عاد فيه فلفل بن سعيد إلى طرابلس ، واستوطنها هو وقبيلة زناته حتى وفاته سنة (٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) (٦) .

ومن المرجح أن الخليفة الحاكم هو الذى لجأ إلى قبيلة زناته ، وأطمعها فى الاستقرار هناك ، لاستغلالها فى ميدان المنافسة ضد بنى زيرى ، وقد نتج عن هذا العمل أن سادت ولايتى برقة وطرابلس حروب واضطرابات شديدة ، وهلك فيها خلق كثير من الزناتيين (٧)

على أن أخطر الثورات التى واجهت الخليفة الحاكم هى الثورة السنية ، التى قامت فى برقة ، والتى قام بها أحد افراد البيت الأموى ويسمى الوليد بن هشام ولد المغيرة

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٦٨

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩/ ١٥٤.

(٣) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٦٨.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩/ ١٧٧.

(٥) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٦٩.

(٦) ابن عذارى : البيان ١/ ٣٧٢ ، النويرى : نهاية الأرب ٢٤/ ١٩١.

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٩/ ١٧٧ ، انظر : احمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين، /٢١٥.

ابن عبد الرحمن الداخل ، ويلقب بأبى ركوة (١) .

بدأ فى شعبان سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٥م ثورتة على الحاكم بأمر الله ، حيث تم الاستيلاء على برقة بمساعدة عرب بنى قرة ، و بربر لواته وزناته (٢) ، وعرف أهل برقة أن عنده روايات وعلماً ، وأنه هو الذى يملك مصر ويقتل الجبابرة (٣) وادعى أبو ركوة الخلافة، واتخذ لنفسه لقب الناصر لدين الله (٤) ، أو الثائر بأمر الله ، والمنتصر من اعداء الله (٥) .

واستطاع أبو ركوة أن ينفصل ببرقة، و أن يهزم جيشا عظيماً أرسله الخليفة الحاكم بأمر الله ، وتقدم فى الدلتا بعد هزيمته عدداً من جيوش الفاطميين ، وهدد القاهرة(٦)، إلى أن تمكن من هزيمته فى الفيوم القائد الفضل بن صالح ، ففر أبو ركوة قاصداً الاحتماء بملك النوبة الذى سلمه للقائد الفضل بن صالح (٧) ، وعرضه الحاكم فى شوارع القاهرة عرضاً مزرياً ، إذ جعل وراءه قردا يصفعه على رأسه ، ثم قتله وصلبه فى منتصف شوال سنة (٣٩٧هـ/١٠٠٧م) (٨) .

---

(١) ابن القلانسى ، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى (ت ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠م) : ذيل تاريخ دمشق /٦٥ ـ ٦٦، بيروت ١٩٠٨ ، ابن ظافر : أخبار الدولة المنقطعة / ٤٤ ، راجع : محمود على مكى : التشيع فى الأندلس ، /١٢٠
Idris, H.,R., La berberie, p102.

(٢) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ، /٤٤ ، ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٧٠.

(٣) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٧٠ ، المقريزى :اتعاظ الخفا ، ٢/ ٦٠ .

(٤) النقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢/ ٦١، ٦٢.

(٥) ابن ظافر : أخبار الدل المنقطعة ، ٤٤. ، ادريس عماد الدين : عيون الأخبار/ ٢٦٥ ، حاشية رقم (١)

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، /٦١، ٦٢.

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩/ ٢٠١ ، ادريس عماد الدين : عيون الأخبار /٢٧١

(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩/ ٢٠٣ ، ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٧١.

ورغم فشل ثورة أبى ركوة فى القضاء على الدولة الفاطمية، إلا أنها قد أشاعت الرعب والفزع ، وأدت إلى غلاء الأسعار ، وندرة الأقوات ، هذا فضلاً عن آثارها النفسية السيئة على قطاعات الشعب المصرى ، يتجلى ذلك من قول صاحب اتعاظ الحنفا: (١) « .. والناس جلوس فى الشوارع ، وعلى أبواب الدور ، ليلهم كله ... وعظم البكاء والضجيج على شاطئ النيل لكثرة القتلى فى العسكر » ، وفى موضع آخر يقول المقريزى(٢) « ، وتزايد سعر الدقيق والخبز ، وروايا الماء وازدحم الناس عليها .. » وأما آثارها الخارجية فانها تركت آثاراً سيئة معادية للفاطميين فى مناطق نفوذهم بالمغرب الأدنى ، مما سيترتب عليها أسوأ النتائج فى العلاقات الفاطمية الزيرية فيما بعد .

ويوجد فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة قطعة من نسيج الكتان باسم الخليفة الحاكم بأمر الله ، ومؤرخة بسنة ٣٩٧هـ ، وتحمل هذه القطعة سطر من الكتابة الكوفية بالحرير الأحمر نصه : « نصر من الله وفتح مبين لعبد الله ووليه أبى على المنصور الحاكم بأمرالله أمير المؤمنيين » (٣) ، وترجع أهمية هذه القطعة إلى أنها تعكس مظاهر ابتهاج الخلافة فى هذه السنة التى تم فيها النصر على أبى ركوة .

كان على الخليفة الحاكم أن يعيد موازينه فى السياسة المعادية لأهل السنة فى مصر ، فنجده بعد القضاء على هذه الثورة ، يأمر بمحو سب السلف ولعنهم ، الذى كان قد أمر بنقشه فى سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤ م على جدران المساجد (٤) و يقول

---

(١) المقريزى : اتعاظ الخفا، ٢/٦٣.
(٢) نفس المصدر ، /٦٢.
(٣) هذه القطعة محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة تحت رقم سجل ١١٢٤٥، يبلغ طولها ٤٦ سم وعرضها ١٣ سم.
(٤) المقريزى : اتعاظ الخفا ٢ /٥٤.

المقريزى [١] : « وطاف متولى الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه ، هذا فضلاً عن أوامره ألى أصحاب الشرطة بالقبض على من يسب السلف » [٢] ، ولعل ذلك يفسر لنا تقلبات الحاكم بأمر الله فى سياسته مع أهل السنة ، فهو لم يكن متنا قضاً ، أو مجنوناً كما تصوره كتب التاريخ ، وإنما كان سياسيا بارعاً يتخذ السياسة الملائمة حسب مما يقتضيه الحال مع خصومه وأعدائه [٣] .

ومما يجدر ذكره أن موقف أمراء بنى زيرى من هذه الثورة السنية كان يشوبه الغموض ، فلم يهبوا لنصرة الخلافة الفاطمية فى أحلك أوقاتها ، واكتفوا بالحياد، ربما سبب ذلك يعود إلى أن بنى زيرى كانوا يرجون ساعة الخلاص من تبعيه الفاطميين فى القاهرة ، ووجدوا فى هذه الثورة السنية ضالتهم المنشودة ، فى الاستقلال بامارتهم والسيطرة على مقدرات بلادهم ، يدعم هذا الرأى ما ذكره الداعى الفاطمى عماد الدين ادريس [٤] نقلاً عن صاحب السيرة الحميرية الكتامية ، أن الأمــير الزيـرى باديس وصل إلى القاهرة وهو فى طريقه للحج أثناء ثورة أبى ركوة فى سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٦ م ، فسأل الخليفة الحاكم بأمر الله الأمير الزيرى عن أبى ركوة، «فعظّم باديس حاله ، وذكر قوته وكثرة جموعه ، والحاكم صامت » ، فلما حج باديس ورجع إلى مصر ، واستأذن الحاكم فى المسير إلى إفريقية، أخرّه الحاكم ، الذى كان قد انتصر على أبى ركوه ليشهد احتفالات النصر .

ومن المرجح أنه قصد بتأخير باديس ارهابه ، أو على الأقل عتابه على تقاعسه فى نجدة الخلافة .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، /٦٩ ، أنظر :
Hassan Ibrahim Hassan : Relations., P.46 .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢/ ٦٧

(٣) احمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين

(٤) ادريس عماد الدين : عيون الأخبار ، السبع السادس / ٢٧٢ .

وعلى الرغم من محاولات الخلافة الغير مباشرة لحصر سلطان بنى زيرى ، أو ردع عزيمتهم للتحرر، إلا أننا نجد الخليفة الحاكم يرسل سنة (٤٠٣هـ/١٠١٢م) مركباً فيه هدية جليلة إلى نصير الدولة باديس أمير إفريقية وإلى ولى عهد ه عزيز الدولة منصور، فخرج لاستقبالها المنصور مع أهل القيروان على قصر الماء بالبنود والطبول ، ومما يجدر ذكره أن هذه السفارة كان تحمل سجلاً باضافة ولاية برقة وأعمالها إلى ولاية باديس (١) .

ولعل الخليفة الحاكم أراد باضافة ولاية برقة إلى أعمال بنى زيرى أن يحملهم عبء حكمها ، وخاصة بعد اندلاع ثورة أبى ركوة ، وانضمام أهلها إليه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أراد أن يتودد إلى بنى زيرى ، بعد أن أخفق فى محاولة ضم طرابلس للخلافة، وفى سنة ٤٠٤هـ / ١٠١٣م ، وصل سجل من الخليفة الحاكم بأمر الله إلى نصير الدولة باديس يذكر فيه أنه جعل ولاية العهد فى حياته لابن عمه أبى القاسم عبد الرحيم بن إلياس بن أبى على بن المهدى (٢) ، فقرىء فى جامع القيروان ، الأمر الذى تطلب اثبات اسمه فى البنود ونقشه على السكة إلى جانب اسم الحاكم (٣) ، غير أن باديس لم يرض على النهج الذى انتهجه الخليفة الحاكم فى تحويل ولاية العهد من ابنه إلى ابن عمه ، وقال : « لولا أن الامام لا يُعترَض عليه فى تدبير

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ١ / ٣٧٣،٣٧٤، وقارن النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ١٩١، ١٩٢ حيث يذكرها فى حوادث سنة (٤٠٥هـ) ، وقارن كذلك ابن أبى دينار : المؤنس ، / ١٧٨ حيث يذكر فى روايته أن سجل لاية العهد كان للمعز وليس لابنه الأكبر عزيز الدولة ، وهذا لا يتفق مع ما أجمعت عليه المصادر

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢ / ١٠١

(٣) وصلت إلينا عملة عليها اسم عبد الرحيم كولى عهد المسلمين ضربت فى السنوات ٤٠٤هـ ، ٤١٠هـ أنظر :

Lane - Poole,S., : Catalogue of Oriental Coins in the British Museum. IV cainage of Egypt, Landon, 1879, P. 22 n. 106 .

لكاتبته ، ألا يصرف هذا الأمر عن ولده إلى بنى عمه ، (١) .

ازدادت الصلات والعلاقات الودية بين الخلافة الفاطمية ، ودولة بنى زيرى، فنجد نصير الدولة باديس ، يبعث بهدية جليلة فى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م إلى الخليفة الحاكم ، كانت تحوى الأفراس الأصيلة ، والسروج المحلاة ، وأحمال الخزو السمور، والأقمشة السوسية المذهبة ، فضلاً عن عشرين وصيفة وعشرةمن الصقالبة (٢)، وكانت ترافق هذه الهدية هدية أخرى من السيدة أم ملال أخت باديس إلى السيدة (الست) أخت الخليفة الحاكم (٣) ، بيد أن هذه الهدايا راحت نهباً لعرب برقة (٤).

على أن الخليفة الحاكم ردّ على الهدية المنهوبة فى نفس السنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م بهدية احتوت على خلع سنية ، وسيف مكلل إلى جانب تشريف لولى العهد المنصور ابن باديس (٥) ، الذى توفى بعد وقت غير طويل من نفس السنة (٦).

وهكذا كانت العلاقات بين الخلافة الفاطمية وبنى زيرى ، تتأرجح ما بين الصعود والهبوط ، تبعا للظروف ، ومقتضى الأحوال خلال العقود الأربعة منذ انتقال الخليفة المعز لدين الله إلى مصر وحتى خلافة الحاكم .

وكذلك كان ولاء الزيريين للمذهب الاسماعيلى يتوقف إلى حد كبير على علاقتهم

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢/ ١٠١ ، قارن ابن عذارى : البيان ، ١ /٣٧٥.
(٢) ابن عذارى : البيان ، ١/٣٧٥، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢/ ١١٠ ، ١١١
(٣) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٧٥
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢ / ١١١ ،
(٥) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ١٩٤
(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢ /١١١

بالخلافة الفاطمية [1] ، فكلما سادت المودة أمعن الزيريون فى اخلاصهم وولائهم ، واذا ساءت العلاقة فتر ذلك الولاء بعدم التشدد على أهل السنة ، أو الاهتمام بنشر المذهب الاسماعيلى كما كانوا من قبل مما يترتب على ذلك أخطر النتائج فى إمارة المعز بن باديس فقد خلف المعز بن باديس أباه بعد وفاته فى أواخر ذى القعدة سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٦م [2]، وكان عمره حوالى ثمان سنوات [3] ، ومارست عمته السيدة أم ملال مها مها كوصية على الأمير الصغير [4] .

إفتتح المعز بن باديس عهده بمذبحة الشيعة فى سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م وتعددت أسبابها ، فيروى ابن الأثير [5] أن المعز بن باديس خرج إلى القيروان فى المحرم سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦ م والناس يسلمون عليه .. فمر بجماعة كانت هناك فسأل عنهم فقيل هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال المعز : رضى الله عن أبى بكر وعمر ، فانصرفت العامة من فورها إلى درب المعلى بالقيروان فقتلوا منهم ، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طمعاً فى النهب ، وكان ذلك باغراء وتحريض عامل القيروان الذى كان يحقد على الأمير الزيرى ،عندما بلغه أنه يريد عزله ، فأراد أن يوقع بينه وبين الفاطميين ويظهره بمظهر المتقاعس عن نصرة الدعوة وحماية أرواح المشارقه [6] .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، / ٣٣٤.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩/ ٢٥٦ ، ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٨٤ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٩٩ .

(٤) نفس المصدر ، / ٢٠٠ ، انظر عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ، ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩/ ٢٩٤ ، انظر : أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، / ٨٦ .

(٦) المشارقة : إسم يطلق على الشيعة بالمغرب ، نسبة الى أبى عبد الله الشيعى ، وكان من المشرق (المالكى : رياض النفوس ، / ٤١٩ حاشية رقم ٣،)

بينما يذكر ابن عذارى(١) أن المعز خرج فى بعض الأعياد إلى المصلى ، وهو غلام ، فكبا به فرسه ، فاستنجد بالشيخين أبى بكر وعمر ، فكادت الشيعة التى فى عسكره تقتله لولا عبيده ورجاله الذين كانوا يكتمون السنة ، ووضعوا السيف فى الشيعة ، فقتلوا منهم ما يزيد على ثلاثة الاف ، وجرى الدم غزيرا حتى غطى بقعة كبيرة من الأرض أطلق عليها فيما بعد اسم بركة الدم ، ونكلوا بالشيعة فى شتى مدن إفريقية ، ويضيف ابن عذارى أن المعز كان مدفوعا إلى ذلك بتأثير معلمه ومربيه أبى الحسن بن أبى الرجال الذى أدب المعز منذ صغره على مذهب مالك وعلى السنّة والجماعة ، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان .

ويذكر ابن بسام (٢) أن المعز كان وراء هذه المأساة التى لحقت بالشيعة ، يتجلى ذلك من قوله : « فأول ما افتتح به شأنه ، وثبت به فيما زعم سلطانه ، قتل الرافضة، ومراسلة أميرالمؤمنين ببغداد ، فبعث إليه بعهده ، وجاءت الخلعة واللقب من عنده » بينما يذكر ابن خلدون (٣) أن المعز كان منحرفاً عن مذاهب الرافضة منتحلاً للسنة ، وأعلن بذلك فى أول ولايته ، وهو الذى حمل أهل المغرب على التمسك بمذهب الامام مالك بن أنس (٤) .

والملاحظ أن هؤلاء المؤرخين من أهل السنة ، الذين يكرهون الشيعة كرها عظيما

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ١/٣٩٥ ، أنظر :
Marcais (G.):Les Arabes en Berbérie , P. 40

(٢)ابن بسام : أبو الحسن على بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٦م) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ،تحقيق د. احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ليبيا ١٩٧٩ ، القسم الرابع ، المجلد ٢/ ٦١٣ـ٦١٤ . التجانى ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن احمد (ت حوالى ٧١٧هـ / ١٣١٧ م) : رحلة التجانى ، ص١٩ ، تونس ١٩٥٨ .

(٣) ابـن خلـدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول ، / ٣٢٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ٥ / ١٢٤

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٥ / ٢٣٤ .

أدى إلى مبالغتهم فى التقدير، فان صنهاجة التى تمثل قطاعاً كبيراً من السكان ، كانت تدين بمذهب الدولة الرسمى ، وهو المذهب الإسماعيلى ، مما يشكك فيما ذهب إليه المؤرخون من القضاء على الشيعة قضاء تاما .

ثم ان استنجاد المعز بالشيخين أبى بكر وعمر عندما كبا به جواده ليس سببا قويا لهذه المذبحة ، فيذكر صاحب نهاية الأرب (١) أن المعز مر بجماعة فسأل عنهم فقيل رفضة والذين قبلهم سُنّةٌ ، وأى شيء الرفضة والسنة ، فكأنه لم يكن يعرف شيئا أصلا عن الشيعة ولا عن السُنّة ، فصغر سن المعز لم يهيىء له بعد التفقه فى المذاهب وانما هى ثورة تزعمها فقهاء أهل السنة ضد الشيعة كما ذكر الدباغ (٢) أن الفقيه على بن خلدون كان يثير العامة من السنة ضد الشيعة ، ولم يقتصر الأمر على القيروان معقل المالكية ، بل قام كل شيخ على من فى بلده .

من ذلك كله يتضح أن هذه المحنة الدامية لم تكن الدولة الزيرية مسئولة عنها ، ولم تغير من سياسة الدولة الزيرية تجاه الخلافة الفاطمية ، بيد أن عامل القيروان استطاع أن يستغل صغر سن الأمير الزيرى ، ويذكى لهيب هذه الثورة مما اتاح لأهل السنة فى القيروان أن ينقضوا على الشيعة ، الذين أصبح وضعهم غير محتمل فى القيروان ، هذا فضلا عن تسلل السنة إلى البلاط الزيرى نفسه ، وإن كان ذلك بدأ منذ عهد المنصور بن بلكين خيث ذكر أن عبداً من عبيده قذف بعض الصحابة ، فأمر بقتله وصلب جثته ، بينما قطعت رأسه ، وطيف بها فى القيروان تشهيرا مع المناداة عليها بسبب العقوبة (٣) ، ومما يجدر ذكره أن تربية المعز وتنشئته على يد فقيه سنى

---

(١) حسن أحمد محمود : محنة الشيعةبافريقية فى القرن الخامس الهجرى ، / ٩٥، ٩٦.

(٢) الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى (ت ٦٩٦ هـ / ١٢٦٩ - ١٢٩٧م) : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، ٣ / ١٥٤ ، تونس ١٩٧٨م .

(٣) ابن عذارى : البيان ، ١ / ٣٣٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩ / ٢٥٨ ، النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ٢٠٤.

مثل أبى الحسن بن أبى الرجال لدليل على اتجاه الدولة الزيرية لمذاهب أهل السنة ، مما سيترتب عليه أسوأ النتائج فى مستقبل العلاقات بين الخلافة الفاطمية ، وبنى زيرى عند تغلب مذهب مالك واتجاه المعز بن باديس إلى المذهب السنى.

ويبدو أن هذه المذبحة لم تحدث أثراً سيئاً فى العلاقات بين الخلافة الفاطمية وبنى زيرى، فقد استمر الخليفة الحاكم فى سياسة التودد والمصانعة ، فتذكر المصادر (١) أنه بعث فى آخر ذى الحجة سنة ٤٠٧هـ / مايو ١٠١٧ م إلى المعز بن باديس السفارات والهدايا النفيسة، ولقبه بشرف الدولة ، ولم يذكر شيئا عن الاضطهاد الدامى الذى راح ضحيته الكثير من الشيعة .

كذلك أرسل الخليفة الحاكم عام ٤١١هـ / ١٠١٩ م بصحبة أبى القاسم بن اليزيد هدية أخرى جليلة إلى شرف الدولة أبى تميم المعز ، تحوى سيفا مكللاً بنفيس الجوهر ، وخلعة رائعة من ثياب الخليفة لم ير مثلها (٢) ، وقرئ على المعز سجل من التشريف لم يصل لأحد قبله (٣) .

وفى سنة ٤١١هـ/١٠١٩ م أرسل الخليفة الحاكم بأمر الله إلى المعز بن باديس سجلاً آخر بصحبة محمد بن عبد العزيز بن أبى كدية، ومعه خمسة عشر علماً منسوجة بالخيوط الذهبية (٤).

وتستمـــر العلاقات الـــودية بين الدولتين بعـــد مقتل الحاكم بأمـر اللـــه

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩ / ٢٥٨ ، ابن عذارى : البيان ، ١ / ٣٨٨ ، النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ٢٠٤.

(٢) ابن عذارى : البيان ، ١ / ٣٨٩.

(٣) ابن أبى دينار : المؤنس ، / ٨١ ، انظر : جورج مارسيه : بلاد المغرب . / ١٩٢

(٤)المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢ / ١١٥ .

وخلافة إبنه الظاهر في ذى الحجة سنة ٤١١هـ / مايو ١٠٢٠م [١]، بتبادل الهدايا، فقد بعث الخليفة الظاهر في سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٧م رسولاً إلى إفريقية ، ومعه تشريف جليل لشرف الدولة أبى تميم المعز بن باديس ، وثلاثة أفراس مسرجة ، وخلعة ومنجوقان [٢] ، وعشرون بنداً مذهبة ، وسجل لقب فيه بشرف الدولة وعضدها ، فاستقبله المعز ، وقرىء السجل بجامع القيروان[٣] وبالتالى أرسل المعز بن باديس سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م إلى الخليفة الظاهر هدية جليلة من جملتها ، « عشرون جارية حسان ، وثلاثة من جياد الخيل الثميدة بسروج من الذهب واللؤلؤ والفضة ، فضلاً عن الف وخمسمائة ثوب من سائر ألوان الخز المغربى ومن الرماح الزان ، ... والثياب الصقلى ، والثياب السوسى ، [٤] .

ثم أن الخليفة الظاهر أرسل هدية ثانية إلى المعزبن باديس ، اشتملت على غرائب طرف بلاد الهند والصين ، وبلاد خراسان من سائر أنواع الطيب والجوهر ، وغير ذلك من الملابس والفرش والأعلام والبنود هذا فضلاً عن الجوارى الحسان المغنيات والراقصات ، والخيل العربية [٥] ،وقد تغنى الشعراء بهذه الهدية ، مثل أبو محمد الحسن بن رشيق فى قصيدته التى مدح بهاا المعز بن باديس [٦]

---

(١) يذكر المؤرخون أن الحاكم قتل بتدبير من أخته ست الملك ، التى حقدت عليه لاتهامها فى شرفها ، وطعنه فى أخلاقها (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢ / ١١٥، ١١٦، ابن تغرى بردى : النجوم ، ٤ / ١٨٧ ، وقارن ابن حماد حيث يذكر أن شباناً من أهل القيروان والأندلس ، كمنوا له فى الجبل ، فلما ظفروا به قتلوه ، وألقوه فى النيل ، وقيل انهم كانوا من المصامدة . (ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد ، / ٩٦) ، بينما الداعى ادريس عماد الدين يذكرأنه الله رفع الحاكم إليه(عيون الأخبار ٦/٣٠٣) .

(٢) المنجوق : نوع من الأعلام والبنود . (ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد . / ٩٦).

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢ / ١٣٢.

(٤)القاضى الرشيد ، رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن على بن ابراهيم بن الزبير الأسوانى (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م): الذخائر والتحف ، ، الكويت ١٩٥٩م ، / ٦٩ .

(٥) نفس المصدر ، / ٧٠ ـ ٧١ .

(٦) الحسن بن رشيق (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣ م) : العمدة، القاهرة ، ١٢٢٥هـ ، ٢/٢٢٨ـ٢٢٩.

وعلى الرغم من الصلات الودية بين القاهرة والقيروان ، إلا أن الصعوبات والقلاقل التى واجهت الخلافة الفاطمية فى عهد الخليفة الظاهر من عدم استقرار الأمور فى بلاد الشام ، والفتن والحروب المحلية ، فضلاً عن الغلاء وعدم الأقوات ،مالم ير مثله من زمن بعيد ..... ، [١]، وهكذا بالاضافة إلى انصراف الخليفة الظاهرعن شئون الدولة إلى نزهه وملاذه وسماع المغنى[٢] ، علاوة على أنه كان معتل الصحة ، ضعيف البنية ، وهذا كله كان سبباً فى عدم اهتمام الخلافة بشئون افريقية وبلاد المغرب فى الوقت الذى قويت فيه شوكة أهل السنة هناك بفضل انتشار تعاليم المدرسة المالكية سواءمن القيروان أو تونس اللتين أصبحتا مراكز لنشر الدعاية السنية [٣]، فكان من الطبيعى أن يضعف التيار الشيعى ويشتد أزر أهل السنة .

ثم أن المعز بن باديس كان يبطن العطف على أهل السنة ، بل يأخذ رأيهم فى بعض الأمور ، فقد أرسل إلى فقيه سنى بالقيروان يسأله الفتوى فى الطرز التى فيها أسماء الخلفاء الفاطميين وغيرها مما يلبس أو يصلى بها فأجابه الفقيه بقوله : ، يجب على من بسط الله يده أن يمنع من ذلك ، بيد أن المعز احتج بقوله : ، ما أبقيت السكة والبنود إلا مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين ، [٤].

كما ذكر أيضاً أن المعز بن باديس كان يسبّ بنى عبيدا سراً ، وانه كاتب الجرجرائى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤١٨ ـ ٤٣٦ هـ)[٥] يحاول الوقيعة

---

(١) المقريزى :اتعاظ الحنفا ، ٢ / ١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢ / ١٨٢

(٣) Hassan Ibrahim Hassa : Relations., p 65

(٤) الدباغ : معالم الايمان ٣ / ١٦٧.

(٥) عن الجرجرائى أنظر : ابن الصيرفى : الأشارة ، / ٦٨ ـ ٧٠ ، ١١٣ ـ ١١٧ ، انظر النص الكامل لسجل توليته الوزارة عند : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، / ٨٠ ـ ٨٣ ، ابن خلكان ٣ / ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

بينهما ، تمثل ذلك فى بيت من الشعر نصه :

وفيك صاحبت قوماً لاخلاق لهم   لولاك ما كنت أدرى أنهم خـلقوا

فهو يبجل الوزير ، ويحتقر الخليفة ويغريه به ، نجد أن الجرجرائى كان فطناً فقال لأصحابه يوماً : « ألاتعجبون مـن صبـى بربرى مغربى أن يخـدع شيخـاً عـراقياً ؟! (1) .

ومن جهة أخرى ذكر أن كثيرا من أهل القيروان ، قاطعوا صلاة الجمعة فكانوا يصلونها ظهراً ، بسبب الدعاء للخليفة الفاطمى « واستمر ذلك حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد »(2) .

وهكذا باتت مسألة الغاء هذه الدعوة الفاطمية ، وبعبارة أخرى باتت مسألة قطع العلاقات مع الخلافة الفاطمية من جانب بنى زيرى بصفة رسمية أمراً متوقعاً . فمتى حدث ذلك ؟

يختلف المؤرخون كثيراً فى تحديد هذا الموقف و يلزمنا تحقيق التاريخ لأهميته فى البحث ، يحدد ابن الأثير(3) هذه القطيعة فى سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ، فيذكر أنه «فى هذه السنة أظهر المعز ببلاد افريقية الدعاء للدولة العباسية ، وخطب للإمام القائم بأمر الله ... ، ووردت عليه الخلع والتقليد ببلاد افريقية وجميع ما يفتحه ... وأرسل إليه سيف وفرس وأعلام عن طريق القسطنطينية » .

بينما يحدد ابن خلدون (4) هذه الواقعة بسنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م حيث يذكر أن

---

(١) التجانى : رحلة التجانى ، / ١٩ ، ابن أبى دينار : المؤنس ، / ٨٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان ١ / ٤٠٠

(٣) ابن الأثير : الكامل ٥٢١/٩ ، ٥٢٢ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، حـ ٦ ، القسم الأول ، / ٢٩ .

المعز بن باديس عندما حنق على اليازورى [1] ، وانحرف عنه لينقضن طاعتهم ، وليحولن الدعوة إلى بنى العباس ، وأنه قطع أسماءهم من الطراز والرايات ، وبايع القائم ، ودعا له سنة ٤٣٧ هـ/١٠٤٥م .

وينقل لنا ابن عذارى[2] رواية ابن شرف حوادث سنة ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨م ، والتى يقول فيها : « قطعت الخطبة لصاحب مصر ... وأمر المعز بن باديس أن يدعى على منابر إفريقية للعباس بن عبد المطلب ، ويقطع دعوة الشيعة العبيديين » .

أما لسان الدين بن الخطيب [3] ، فيحدده بسنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م.

كذلك حدد المؤرخ الانجليزى لينبول [4] Lane Poole هذا التاريخ بعام ٤٣٨هـ/١٠٤٦ـ ١٠٤٧م معتمداً على آخر عملة تحمل اسم الخليفة الفاطمى فى مدينة المنصورية .

نخرج من هذا أنه لا يمكننا الأخذ بالتواريخ السابقة لعدة أسباب :

أولا : أن المراسلات ظلت تتبادل بين الوزير الفاطمى والأمير الزيرى كما هى العادة ، ودلت هذه المراسلات على محاولة المعز بن باديس الوقيعة بين الجرجرائى (٤١٨-٤٣٦هـ) وزير الخليفة الفاطمى المستنصر ، كما سبق ذكره .

ثانياً : أن تواجد آخر عملة فاطمية بالمنصورية عام ٤٣٨هـ/١٠٤٦ـ ١٠٤٧م هو دليل

---

(١) أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى ، كأن أبوه من أهل يازور ، قرية من عمل الرملة ، كان من ذوى اليسار ، تولى الوزارة فى السابع من المحرم سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠م. انظر : ابن الصيرفى : الاشارة / ٧٣ - ٧٦ ، ابن ميسر : أخبار مصر ، /١١ ، ابن حجر : رفع الاصر ١/١٩٤ ، عمر صالح البرغوثى : الوزير اليازورى ، / ٢٧ - ٥٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان ١/٣٩٩ .

(٣) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثالث ، /٧٣ .

(٤) Lane poole : AHistory of Egypt in the middle Age, London 1901.p. 138

على تدهور العلاقة أكثر منه دليلاً على قطع هذه العلاقة .

ثالثا : تواجد نائب عن الأمير الزيرى فى القاهرة ، استدعاه اليازورى ـ الوزير الفاطمى (٤٤٢ ـ ٤٥٠ هـ) بأن يبدأ كالعادة باسم الوزير الفاطمى فى عناوين الكتب ، بالاضافة إلى أنه «قصرّ به فى المكاتبة عما كان يكاتب به من تقدمه من الوزراء ، فكان يكاتب كلاً منهم بعبده ، فجعل يكاتبه بصنيعته » [١] ، رغم أن هذا النائب كتب إلى الأمير الزيرى فى ذلك إلا أنه لم يعبأ بذلك ، ولم يرجع عن عمله الاستفزازى[٢] .

رابعاً : عمد الوزير اليازورى إلى ارهاب الأمير الزيرى «بأن توصل إلى أخذ سكينة من دواته »، ثم استدعى نائبه ليقول له : «قد تلطفنا فى أخذ السكين ، ولو شئنا لتلطفنا فى ذبحه بها»، وسلمها اليه كى يرسلها بدوره بخطاب إلى الأمير الزيرى بهذا التقرير. فلم يرتدع المعز بن باديس ، بل أطلق لسانه فى الوزير ، فكان أن عاود الوزير الفاطمى سياسة اليد الطويلة بأن «دس إليه من أخذ نعله» واستدعى نائبه للمرة الثالثة ، وكلفه بأن يكتب «إلى هذا البربرى الأحمق وقل له : ان عقلت وأحسنت أدبك، وإلا جعلنا تأديبك بهذه » ، فلم يرتدع المعز بل جرى على عادته فى هجر القول [٣] .

ولا شك أن تواجد نائب للأمير الزيرى بمصر يعتبر دليلاً على تواجد العلاقة بين القاهرة والقيروان حتى عهد وزارة اليازورى (٤٤٢ ـ ٤٥٠هـ) ، وإن أخذت مظاهرها

---

(١) ابن الصيرفى : الاشارة ، / ٧٦، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢/٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) نفس المصددر ، /٧٧,٧٦ ، ابن ميسر : أخبار مصر ،/١٢ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة./٧٠,٦٩.

(٣) ابن الصير فى : الاشارة ،/٧٦ ، ٧٧ .

فى التدهور قبل ذلك بحرق أعلام الفاطميين الخضراء[١] ، ومنع تداول السكة الفاطمية ، وتحذير المخالفين بالعقوبة [٢] ، ولاشك أيضا أن تلك الاهانة الأخيرة التى وجهها اليازورى كانت السبب القوى والمباشر فى عزم الأمير الزيرى على تنفيذ الخطوة المرتقبة ممثلة فى قطع العلاقة نهائياً مع الخلافة الفاطمية ، فكان قطع الخطبة للخليفة الفاطمى والدعوة للخليفة العباسى فى خطبة الجمعة ، وكان ذلك عام ٤٤٣هـ/١٠٥١م كما يحددها المؤرخان المصريان المقريزى وأبو المحاسن [٣] بالقول : « ...... وفيها أظهر المعز بن باديس صاحب إفريقية الخلاف على المستنصر، وسيرّ رسولاً إلى بغداد ليقيم الدعوة العباسية ، واستدعى منهم الخلع ، فأجيب إلى ذلك ».

ويقرر ابن عذارى [٤] هذا التاريخ بما ذكره عن بعض الاجراءات التنفيذية بما أمر به المعز بن باديس بلبس السواد شعار العباسيين ، وتكليف صباغى القيروان بصباغة الأقمشة البيضاء باللون الأسود وأيضا تخريب دور الاسماعيلية ، ومدارسها بالقيروان ، والتنكيل بالمشارقة ، وتشريدهم فى البلاد ، هذا بالاضافة إلى لعن الفاطميين على منابر البلاد كما تظهره اقدم وثيقة مكتوبة بخط المعز بن باديس على غلاف مصحف أهداه المعز للمسجد الجامع فى القيروان [٥] .

وهكذا انتهت التبعية السياسية والمذهبية لدولة بنى زيرى بالخلافة الفاطمية الأمر

---

(١) ابن خلدون : العبر ،المجلد السادس ، القسم الثانى ، ٣٢٥ ، ابن أبى دينار: المؤنس،/٨٢.
(٢) ابن عذارى : البيان ٤٠٢/١ ـ ٤٠٣ .
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢١٤/٢ ، ابن تغرى : النجوم الزاهرة ٥١/٥ .
(٤) ابن عذارى : البيان ٤٠٢/١، ٤٠٣، ٤٠٥، ٤١٧ .
(٥) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامى ./١٩٥ .
وانظر ملاحق الكتاب .

الذى لم يكن بطبيعة الحال يرضى كلا من الخليفة المستنصر ووزيره اليازورى، فقد أرسل المستنصر إلى المعز بن باديس يدعوه إلى العودة إلى حظيرة المذهب الاسماعيلى ، يقول:«هلا اقتفيت آثار من سلف من آبائك فى الطاعة والولاء» ويتوعده بارسال الجيوش[1] بيد أن المعز كتب إليه يقول : « إن آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب ، قبل أن تملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ،ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم ».

امتدت الحركة الانفصالية إلى باقى أجزاء بلاد المغرب ، حيث أعلن جبارة بن مختار العربى والى برقة سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م أنه وأهل برقة ، قد أحرقوا المنابر التى كان يدعى عليها للفاطميين ، وأحرقوا راياتهم ، وتبرءوا منهم ولعنوهم على منابرهم ، ودعوا للقائم بأمر الله العباسى[2] .

لم تقف الخلافة الفاطمية مكتوفة الأيدى أمام هذا الإنفصال السياسى والمذهبى ، بيد أن الضعف الذى أصاب دولة الخلافة ، نتيجة لما انتاب مصر من فتن ومجاعات ، والتخوف من مغامرة عسكرية فى إفريقية غير محمودة العواقب ، جعلها عاجزة عن التدخل مباشرة فى شئون المغرب فلجأت إلى وسيلة أخرى .

رأى الوزير اليازورى أن يقنع الخليفة الفاطمى المستنصر بنقل عرب بنى هلال [3]

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ٢١٠/٢٤ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، ٤١٦/١ .

(٣)بنو هلال : ينحدر بنو هلال من عامر بن صعصعة ، وأبناء عمومتهم بنو سليم من قيس بن عيلان بن مضر، ومساكن بنى هلال بين وادى رانيه وتربة على مسافة تسعين ميلا جنوب شرقى الطائف فى وادى جلذان ، وأما ديار سُلَيْم فهى ما بين وادى القرى إلى خيبر شرقى المدينة ، وكذلك على أطراف الشام فى الرها ، وعمل بنو هلال فى صحراء الحجاز بقطع الطريق ، وبلغ من شدة عوزهم أنهم كانوا يهاجمون قوافل الحجيج ، وينهبونها حتى ساءت سمعتهم ، وهبط قدرهم ، وأصبحوا كما يقول ابن خلدون : «خولا وأتباعاً للدول ، وشراً وبلاءاً على الحضر» =

إلى افريقية ، وتحقيق هدفين فى نفس الوقت ، الأول تخليص البلاد منهم ، والثانى اطلاقهم على افريقية للقضاء على الدولة الزيرية ، وانشاء دولة تابعة بدلا منها[1] ، وهو كما يقول : « فان صدقت المخيلة فى ظفرهم بالمعز وصنهاجة ، كانوا أولياء للدعوة ، وعمالاً بتلك القاصية ، وارتفع عدوانهم عن ساحة الخلافة ، وان كانت الأخرى فلها ما بعدها ، وأمر العرب البادية أسهل من أمر صنهاجة الملوك »[2] .

بعث الوزير اليازورى رسوله - مكين الدولة أبو على الحسن بن على بن ملهم العقيلى - ، يدور بأمر الخليفة المستنصر على الهلالية ، فبدأ باصلاح ذات البين بين زغبة ورياح ، وحمل إلى مشايخهم الأموال ،

= وعندما قامت حركة القرامطة انضم إليها بنو سليم مع نفر من بنى ربيعة بن عامر بن صعصعة ، ودخلوا بجيوشهم فى عمان والبحرين ، واشتركوا فى الحرب ضد الفاطميين فى الشام ومصر والحجاز ، وعندما تغلب المعز لدين الله الفاطمى على القرامطة ، انفصل بنو هلال وسليم عنهم ، ومالوا إلى الفاطميين ، فنقلهم الخليفة العزيز بالله إلى صحراء مصر وأسكنهم الضفة الشرقية من النيل ، واشترط عليهم ألا يعبروا الضفة الغربية ، فأقام من انتقل من بنى هلال وبنى سليم فى الصعيد الأعلى ، وأضروا بالبلاد ، ومن أكبر قبائلهم «جشم والأثبج ، وزغبة ، ورياح ، وربيعة ، وعدى والزواودة ، وفى عهد الخليفة المستنصر ، وقعت الحروب بين هذه القبائل بعضها ببعض ، وأصبحوا مشكلة كبيرة للحكم الفاطمى فى مصر .
انظر : الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٢٤ هـ / ٩٤٥م) : صفة جزيرة العرب،بيروت ، ١٩٨٣، /٨٩ ، ١٦٥ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول ، /٣٠ وما بعدها ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢/٢١٥ ، ٢١٦ ، البيان والاعراب،دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، /٢٨ انظر : حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب ، /١٤٦ ، ١٤٧ ، عبد الله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ،القاهرة ١٩٦٧/١٠٩ - ١١١ .
- De Slane : Histoire dés Berbéres, ALGER, 1856.,T.1, P.33
- Marcais (G.) : Les Arabes en Berbérie, P.39.

(١) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها / ٢٢ .
(٢) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول / ٣٠ .

ووصلـهم بصلات سنية [١] ، وأنعم على سائرهم ببعير ودينار لكل واحد منهم [٢] ، ووعدهم بالمدد والعدد [٣] ، وأذن لهم بالمسير إلى افريقية ، « حيث أقطعهم افريقية والمغرب ، وملك المعز بن بلكين الصنهاجى العبد الآبق فلا تفتقرون» [٤] وأنفذ اليازورى كتابا إلى المعز بن باديس يقول فيه : « أما بعد ، فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً ، وحملنا عليها رجالاً كهولاً ليقضى الله امراً كان مفعولا » [٥] .

اجتاحت القبائل العربية بلاد برقة ، وطرابلس ، وافريقية ، وعاثت فيها فساداً وتخريباً ، على أن المعز بن باديس مالبث أن حشد ثلاثين الفاً من قواته ، وزحف بهم إلى موضع يسمى (حيدران) بالقرب من القيروان [٦] ، والتقى مع قوات العرب ، التى بلغ عـددهـا ثلاثة آلاف فـارس [٧] ، فلمـا رأت الـعرب عساكـر المعز وهـم

---

(١) انظر : السجلات المستنصرية ، سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، السجل الخامس / ٤٣ ـ ٤٤ ، ابن ميسر : أخبار مصر / ١٢ ، النويرى : نهاية الأرب ٢١٠/٢٤ ، ٢١١ .

Idris, H., R: La Berbérie. PP. 398 - 399.

وقارن المقريزى حيث ينص على أن رسول اليازورى كان يدور على أحياء الهلالية سنة ٤٤١هـ ـ ١٠٤٩م ، (اتعاظ الحنفا ٢١٥/٢ ـ ٢١٦) وهذا القول يتنافى مع السجل الخلافى بتولية اليازورى الوزارة ٤٤٢هـ/١٠٥٠ م (ابن الصيرفى : الاشارة /٧٦ ، النويرى : نهاية الأرب ٢١٠/٢٤ ـ ٢١١).

(٢) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول / ٣١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٥٦٦/٩ ، النويرى : نهاية الأرب ٢١٠/٢٤ ، ٢١١ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول / ٣١ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ٥٦٦/٩ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢١٦/٢ .

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢١٧/٢ ، التجانى : رحلة التجانى / ٢٠

* حيدران : اسم جبل معروف على مقربة من القيروان ، كانت المعركة به (التجانى : رحلة التجانى/٢٠) .

(٧) ابن الأثير : الكامل ٥٦٨/٩ ، النويرى : نهاية الأرب ٢١٤/٢٤ .

مدججين بالسلاح ، وقد لبسوا الكزاغندات [1] والمغافر ، هالهم ذلك ، بيد أن قائدهم مؤنس بن يحيى الريا حى هدأ من روعهم ، وأشار عليهم ان يطعنوا فى العيون، الأمر الذى أدى إلى إطلاق اسم العين على هذه المعركة [2]، وما كادت المعركه تبدأ حتى بدأ عرب الفتح بالتحيز جانبا فانضموا إلى بنى جلدتهم الهلالية [3] ، فضلا عن تخاذل الصنهاجيين ، وفرارهم من ميدان القتال ، ، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة ، وترك المعز مع العبيد حتى يرى فعلهم ، ويقتل أكثرهم ، [4]

وعلى الرغم من كثرة العدد والعتاد فى عسكر المعز بن باديس إلا أن الغلبة كانت للعرب ، الذين هزموا عساكر المعز ، وغنموا الخيل والخيام ، وما فيها من الذهب والفضة والأمتعة [5] ، وتعتبر موقعة حيدران بداية النهاية للدولة الزيرية .

لم يرض المعز على هزيمته أمام هؤلاء الهلالية ، فأعاد تنظيم قواته ، وخرج على رأس جيش كبير قوامه سبعة وعشرين الف فارس فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤٤٣هـ / ٣ أبريل ١٠٥٢ م ، ورأى أن يفاجىء العرب ويأخذهم على حين غرة وهم فى صلاة العيد [6] ، بيد أن العرب فطنوا إلى الخدعة ، وركبوا خيولهم ، وحملوا على صنهاجة حملة رجل واحد ، مما أسفر عن هزيمة المعز وقواته للمرة الثانية ، وقتل من معسكره عدداً غير قليل [7] ، واستولى الهلالية على مدينة القيروان مركز

---

(١) الكزاغندات : أردية محشوة من القطن أو الحرير يتدرع بها فى الحرب (النو يرى : نهاية الأرب ٢١٥/٢٤، حاشية (١))

(٢) ابن الأثير : الكامل ٥٦٨/٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول /٣٢.

(٤) ابن الأثير : الكامل ٥٦٨/٩ ، ابن عذارى : البيان ٤١٩/١ ، النويرى : نهاية الأرب ٢١٥/٢٤.

(٥) ابن عذارى : البيان ٤١٩/١ .

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥٦٨/٩ ، النويرى : نهاية الأرب ٢١٦/٢٤ .

(٧) ابن الأثير :الكامل فى التاريخ ٥٦٨/٩ .

الثقافة ، وكعبة الحضارة سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧م ، واعملوا فيها الخراب والدمار [١] .

استنفذت المعارك التى قام بها المعز بن باديس ضد الهلالية مالديه من مال وعتاد ، وفرغت خزانته ، وخسر معظم أجزاء دولته ، فقد اقتسم العرب البلاد ، حيث استقرت زغبة فى طرابلس ، ورياح فى برقة ، كما استقر بنو هلال وبنو سليم فى تونس ومايليها غربا [٢] ، وضاق بالمعز الحال ، وانتقل من القيروان إلى المهدية [٣] ، واتخذها عاصمة لدولته التى انحصر نفوذها فى المهدية وشريط من الأرض حولها واستولت العرب على حرمه وداره وغلمانه ، وقتلوا الرجال ، وسبوا النساء ، ونهبوا دوره وقصوره، وعاثوا فى القيروان فساداً وتخريباً [٤] ، بعث العرب إلى القاهرة الكثير من الغنائم التى ظفروا بها من قصور المعز ، والتى اشتملت على الأسلحة ، والعتاد ، والذخائر والخيام ، وآلات القتال والطرف [٥] ، « فكان يوم دخلوها إلى القاهرة أمر عظيم » [٦] .

حفظت لنا السجلات المستنصرية [٧] كتابا من الخليفة الفاطمى المستنصر بعث به إلى الداعى على بن محمد الصليحى فى اليمن ، يذكر فيه ماكان من شأن المعز ، وخروجه عن الدعوة الاسماعيلية وما لحق به على يد القبائل العربية من هزائم «وأنه

---

(١) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى /٣٢٦ .

(٢) إبن بسام : الذخيرة . القسم الرابع /٦١٤ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢/٢١٧ .

(٣) ابن الأثير :الكامل فى التاريخ ٩/٥٦٩ ، النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/٢١٧ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة /٦١٤ ، ابن عذارى : البيان ، ١ / ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، ٣٢٦ .

(٥) ابن الصيرفى : الاشارة ،/٧٧ ، المقريزى: اتعاظ الحنفا ، ٢/٢١٥ ، انظر : عمر صالح البرغوثى : الوزير اليازورى ، /٩٠ .

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢/٢١٥ .

(٧) السجلات المستنصرية ، السجل الخامس ، /٤٣ ـ ٤٥ ، انظر ملاحق الكتاب .

خلف ابن باديس اللعين محصوراً فى منفاه من الأرض ، على شفا جرف الأخذ و القبض ...، وأمير المؤمنين يسأل الله جلت عظمته معونته على شكر نعمه .. ويقول الحمد الله الذى أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ، .

وأعاد العرب الدعوة الاسماعيلية ، بعد أن قطعت من على منابر إفريقية ، فضلا عن عودة التعامل بالسكة المستنصرية (١) .

قضى المعز بن باديس السنوات الأخيرة من حكمه فى المهدية وشريط من الأرض حولها ، حتى توفى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٣م (٢) ، بعد أن كان ملكه أضخم ملك عرفه المغرب (٣) ، وبوفاة المعز بن باديس ينتهى العصر الذهبى للدولة الزيرية فى القيروان، لكى يبدأ عصر جديد ليس فى إفريقية وحدها فحسب ، بل فى بلاد المغرب ، وهو عصر دويلات الطوائف (٤) ، حيث استقل بصفاقس حمو بن مليل البرغواطى فى ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، أما سوسة فقد امتازت بكونها امارة استقلت تحت حكم شورى(٥) بينما قابس كان أمراؤها من بنى هلال ، حيث استقر الحكم فى أسرة بنى جامع (٦) ، وفى قفصه استقل حاكمها الزيرى ابن الرند الذى خرج على سيده ، واستعان بالعرب على مد ملكه فى مقابل ضريبة سنوية (٧) ، كما استقل ابن خراسان بتونس سنة

---

(١) السجلات المستنصرية ، السجل الخامس ، /٤٤

(٢) ابن عذارى : البيان ، ٤٢٧/١ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ،/٣٢٦ ، وقارن ابن الأثير ، ١٥/١٠ حيث يذكر أن وفاة المعز بن باديس سنة ٤٥٣ هـ ، وكذلك النويرى : ٢١٨/٢٤ .

(٣) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٢٤ .

(٤) أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية ،/٣٨ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٢٦ ، التجانى : رحلة التجانى ، /٢٥-٢٨ .

ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى / ٣٢٦

(٦) نفس المصدر ، /٣٢٦ ، انظر : جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها ، /٢٢٥ .

(٧) ابن خلدون : العبر المجلد السادس ، القسم الثانى ، /٣٣٨ - ٣٤٠ .

٤٥٨هـ/١٠٦٥م [١] وكان من الطبيعى والحال كذلك أن يطمع النورمان فى سواحل إفريقية ، وكانوا قد غزوا صقلية فى ذلك الوقت ، وما لبثوا أن تطلعوا إلى السيادة على إفريقية [٢] .

يتضح لنا مما سبق أن المعز بن باديس قد أخطأ فى تقديره ، عندما خلع طاعة الفاطميين ، الأمر الذى أدى إلى انحسار الدولة الزيرية ، وسقوط البلاد فريسة بين جحافل العرب والنورمان ، كما أن هذه الحملة البدوية ، وان أضرت فى اقتصاديات البلاد وخربت موارد الرزق ، وأبادت نفوسا كثيرة ، وعرضت المغرب لحروب صليبية من قبل الدول المسيحية ، فانها قدمت عملا جليلا لعروبة المغرب ، فقد عملت على تعريب المغرب ، ولولا الهلاليون لما صار المغرب عربيا عى الصورة التى نراها الآن.

تولى الأمير تميم بن المعز خلفا لوالده فى المهدية ، وكان من الطبيعى والحال كذلك أن تضطرب عليه الأمور ، « فقد كثرت فى أيام تميم الثوار من كل فج ، وغلب العرب على إفريقية » [٣] ، فلم يكن له إلا ما ضمه السور[٤] ، وثار عليه اقرباؤه وأبناء عمومته « بنو حماد » الذين أسسوا دولة بنى حماد منذ سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م [٥]، واستمر سلطان الأمير محدودا فى المنطقة الساحلية المحيطة بعاصمتهم المهدية ، فأصبحت دولتهم بحريّة بعد أن فقدت المناطق الداخلية التى غلب عليها العرب ، وقد دفعهم هذا الموقع إلى احتراف القرصنة ، ومهاجمة السفن المسيحية [٦].

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ١/٤٥٤ ـ ٤٥٥ .

(٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، / ١٥١ .

(٣) ابن أبى دينار : المؤنس ، / ٨٤

(٤) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٢٧.

(٥) انظر العلاقات مع دولة بنى حماد فى هذا الفصل .

(٦) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٧٨، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى / ٣٢٨.

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين الفاطميين والدولة الزيرية فى تلك الفترة فقد أعاد الأمير يحيى بن تميم طاعة الفاطميين ، ووصلته المخاطبات والهدايا ، ودعا للخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله فى الخطب (١) ، وجاءه رسول الخليفة الفاطمى الآمر الذى وصل إلى المهدية سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م بهدية إلى الأمير الزيرى فاستقبله استقبالا عظيما ، كما رد على الهدية بهدية اشتملت على الذخائر والألطاف مالا يحيط به الوصف (٢) .

ويبدو أن الامير يحيى كان يتطلع من استئناف العلاقات مع الخلافة الفاطمية أن تشد أزره غير أن ذلك لم يغير من الوضع التى أصبحت عليه دولته ، فضلا عن الضعف الذى أصبحت فيه الخلافة الفاطمية ، وماانتابها من فتن ومجاعات يحول دون مساعدتها له (٣).

ثم خلف الأمير على بن يحيى أباه بعد وفاته عام ٥٠٩هـ / ١١١٦م وظلت العلاقات الودية قائمة ، فقد وصلته هدية الخليفة الآمر عام ٥١١هـ / ١١١٨م (٤)، ولما توفى الأمير على بن يحيى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م خلفه إبنه الأمير حسن(٥)، وبدا بوضوح أن النورمان سيتمكنون من الاستيلاء على المهدية ، وبالفعل نقض (روجار) ملك صقلية الهدنة مع الأمير الزيرى التى سبق أن عقدها معه، ومالبث أن استولى (روجار) على المهدية سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م (٦) ، وكذلك

---

(١) ابن خلدون : العبر، المجلد السادس ، القسم الثانى ، /٣٢٩.

(٢) ابن عذارى : البيان ، ١ / ٤٣٩ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ١ / ٣٥٧ ، جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، / ٩٤ ـ ٩٥، ١٢٠ ـ ١٢٢، ١٥٢ ـ ١٥٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان ، ١ / ٤٤٢ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٢٩.

(٥) نفس المصدر ١/ ٤٤٣ .

(٦) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٣١ ـ ٣٣٢.

سقطت كل مدن ساحل إفريقية وطرابلس فى يد النورمان(١) ، وظلت المهدية خاضعة للنورمان فترة قصيرة إلى أن جاء الموحدون ، فاستولوا عليها ، وأجلوا عنها النصارى سنة٥٥٥هـ /١١٥٩م(٢) وعاد إليها الأمير الزيرى الحسن بن يحيى ، للمرة الثانية الى ان انتهت الدولة الزيرية بوفاته عام ٥٦٣ / ١١٦٧م(٣) .

والخلاصة أن الدعوة الاسماعيلية قد قضى عليها فى بلاد المغـرب فى سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م ، وعلى الرغم من أن العرب قوضوا ملك بنى زيرى ، إلا أنهم لم يفلحوا فى رد المغرب إلى طاعة الفاطميين ، وأصبحت التبعية الوحيدة تظهر فى صورة وفد يرسله كل أمير جديد إلى القاهرة ، يبلغ الخليفة الفاطمى النبأ ، ويحمل بعض الهدايا التى يرد عليها الخليفة الفاطمى بهدية مماثلة ، ولم تكن قوة الخلفاء الفاطميين فى القاهرة لتسمح لهم بأكثر من ذلك ، بعد أن عجزوا عن القبض على أمور الدولة ، وخرجت الشام والحجاز على سلطانهم ، وبعدت الشقة بينهم وبين بلاد المغرب ، فى الوقت الذى غلبهم فيهم الوزراء على الأمر ، واصبحوا مركز الثقل فى مصر .

---

(١) ابن خلدون :العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٣٢.

(٢) ابن عذارى : البيان ، ١ / ٤٥٦ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، / ٨٣.

(٣) ابن خلدون :العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٣٤.

ثانيا : العلاقات السياسية مع دولة بني حماد في المغرب الأوسط:

عجز بنو زيرى عن بسط سلطانهم وهيمنتهم على كل أنحاء المغرب الأدنى والأوسط [1] بسبب الثورات المتعددة من زناته وكتامة ، ومن ثم رأى المنصور ابن بلكين توزيع السلطات بتولية أخيه حماد على أشير والمسيلة ، فكان حماد يتداول ولايتها مع أخيه يطوفت ، وعمه أبى البهار [2] .

ويصف المؤرخون حمادا بأنه « نسيج وحده ، وفريد دهره ، وفحل قومه ، ملكا كبيرا ... وداهية حصيفاً [3] وأيضا كان ذا دهاءوفطنة ، وتجربة فى الحروب ، وكانت له فراسة وذكاء [4] ، وهو بهذا التقييم يمثل شخصية قوية يستطيع قتال زناته واخضاعها من جهة ، ثم ينطلق سريعا نحو تأسيس دولة خاصة به فى تلك البلاد فى ظروف ضعف الأمراء الزيريين من جهة أخرى .

فقد أمد حماد يد المساعدة إلى ابن أخيه باديس ضد زناته التى استضعفته لصغر

---

(١) المغرب الأدنى ، ويطلق عليه « إفريقية » ، وذهب المراكشى أن حده الشرقى مدينة « انطابلس » التى تسمى برقة وحده الغربى مدينة قسنطينة (المراكشى : المعجب ، / ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣)، ومدينة « انطابلس » هى تحريف اللفظ اليونانى « بنتابوليس » penta - polis ، أى المدائن الخمس ، ويقول الادريسى أن برقة هى أول منبر ينزله القادم من بلاد مصر إلى القيروان (صفة المغرب ، / ١٣٠) ويذكر السلاوى أن مملكة افريقية ، هى المغرب الأدنى ، قاعدتها فى صدر الاسلام مدينة القيروان ، ويقول أنه سمى بالمغرب الأدنى لأنه أقرب إلى بلاد العرب ، ودار الخلافة بالحجاز (السلاوى : الاستقصا ، ١/ ٧١) ، ويرى الدكتور حسين مؤنس أن برقة فى العصور الاسلامية كانت إما تابعة لمصر أو غير واضحة التبعية السياسية ، أما طرابلس فكانت تدخل فى نطاق ما كان يعرف باسم بلاد إفريقية (معالم تاريخ المغرب ./ ٢٢)

(٢) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٤٩.

(٣) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٦٨.

(٤) مؤلف مجهول : الاستبصار ، / ١٦٨.

سنه وخالفوا عليه (١) فكان أن أفرد باديس ولاية أشير والمغرب لعمه حماد سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م ، ليواجه ثورات زناته ، وتمردها المستمر ، كما أعطاه من الخيل والسلاح شيئا كثيرا (٢) ، وظفر بهم ، كما قاتل المعارضين من أهل بيته فقضى على عمه ، فقتل ماكسن وولداه محسن وباديس سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠ م بعد حروب كثيرة (٣) .

ثم انتهز حماد تكليف الأمير باديس له بالقضاء على زناته ، فاشترط على ابن أخيه أن يوليه المغرب الأوسط ، وكل بلد يفتحه ، فضلا عن اتاحة الحرية له فى اختيار مكان إقامته بالبلاد (٤)، واضطر باديس إلى قبول هذه الشروط أمام الخطر الذى يتهدد دولته ويتمثل فى ثورات وتمرد زناته ، وتجرد حماد فى سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤م للقضاء على تلك الحركات المعادية واخماد فتنتها ، وتمكن من ايقاع الهزيمة بزناته(٥)، وشرع حماد فى سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧م فى بناء مدينة جديدة عرفت بالقلعة (قلعة بنى حماد) لاتخاذها عاصمة لدولته ، واستقر بها (٦) ، ويصفها الادريسى:(٧) « بأنها من أكبر البلاد قطراً ، وأكثرها خلقاً ، وأغزرها خيرا ، وأوسعها أموالاً ، وأحسنها قصورا... » .

---

(١) ابن أبى الضياف : اتحاف أهل الزمان ، ١ / ١٣٤.

(٢)النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ١٨٥، ابن أبى دينار : المؤنس : / ٧٧ ، انظر : ابراهيم أحمد العدوى : بلاد الجزائر ، / ٢٧١.

(٣) ابن عذارى : البيان ، ١ / ٣٦١.

(٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٦٩ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى / ٣٤٩.

(٥) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٤٩، انظر : عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر ، ١ / ٣٣٤

(٦) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى / ٣٥٠.

* قلعة بنى حماد : أختطها حماد بجبل كتامة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م ، وبينها وبين المسيلة اثنى عشر ميلاً ، وقد استدار سورها بجميع الجبل . عن قلعة حماد انظر : البكرى : المغرب ، / ٤٩، الادريسى صفة المغرب ، / ٨٦، الحميرى : الروض المعطار ، / ٤٦٩.

(٧) الادريسى : صفة المغرب ، / ٨٦.

اشتهر حماد وذاع صيته ، وبات الأمر متوقفا على سبب مباشر للاستقلال ، وأخذت بطانة باديس فى السعاية والوشاية ، وذكروا له أشياء أنكرها باديس على عمه حماد ، وجعلته يحس بما يتأهب له عمه حماد [1] وبات الطرفان يترقبان ، وحدثت بداية انشقاق حماد عن الدولة أو الاستقلال عنها ، عندما بعث الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٥ م تقليدا بولاية المنصور بن باديس ولياً للعهد ولقبه بعزيز الدولة [2]، وانتهز باديس الفرصة ليحد من سلطان عمه حماد فطلب منه التنازل عن قسنطينة ، وتيجس [3] وقصر الأفريقى لولى عهده المنصور[4] .

وكان من الطبيعى أن لا يرضى حماد عن انتزاع هذه المنطقة من سلطانه ، بل امتنع ورفض الاعتراف بولى العهد ، وأكثر من ذلك فانه قطع الدعوة الاسماعيلية ، « وقتل الرافضة ، وأظهر السنة ، ورضى عن الشيخين ، ونبذ طاعة العبيديين جملة ، وراجع دعوة آل العباس وذلك سنة خمس وأربعمائة[5] .

وبعبارة أخرى يمكن القول أن حماداً كان أول من أعلن انفصاله السياسى والروحى عن الخلافة الفاطمية فى مصر ، وأنه سبق المعزبن باديس بنحو أربعين عاما حين شق عصا الطاعة على الخليفة المستنصر [6] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ٩ / ٢٥٣ . ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٥٠.

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٢ / ١١١.

توفى المنصور بن باديس فى صفر سنة ٤٠٥هـ ، إثر اصابته بالجدرى . (النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ١٩٤)

(٣) مدينة تيجس : تقع بين القيروان وقسنطينة ، يقول البكرى : « ومدينة تيجس عليها سور صخر ، ولها ربض و وبها أسواق وجامع وحمام ، وبها من قبائل البربر ميلة ونفزة ، وقبائل من كتامة (البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، / ٦٣).

Idris, H, R.,: La Berbérie. pp. 108, 109.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩ / ٢٥٣ ، ابن عذارى : البيان ، ١ / ٣٧٦.

(٥) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٥٠، ٣٥١.

(٦) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق ، / ١٩٠

وهكذا شهدت منطقة من بلاد المغرب أول خروج عن الخلافة الفاطمية بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، وانحسر بذلك المد الشيعي ، ويبدو أن الخروج على الفاطميين كان الشعار الذى يرفعه كل ثائر فى المغربين الأوسط والأدنى يريد لنفسه استقطاب الجماهير ، والحصول على ولائها ، وهو ما يرضى المغاربة ويتمشى مع ميولهم(١) .

لما اتضح لباديس موقف عمه حماد العدائى تجاه دولته والخلافة الفاطمية، أعد جيشا بقيادة هاشم بن جعفر ، فلقيه حماد على رأس جيش عدته ثلاثين الف مقاتل ،مما أسفر عن هزيمة هاشم بقلعة شقبنارية (٢) ، وسرعان ما أعاد باديس تنظيم قواته ، وتمكن من هزيمة حماد فى وادى شلف ، ثم حصاره فى القلعة ، بيد أن باديس توفى فجأه أثناء هذا الحصار سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م(٣) .

استغل حماد وفاة ابن أخيه ، فاستعاد المسيلة وأشير وحاصر بجاية ، لكنه منى بالهزيمة على يد كرامة بن المنصور (٤) . وما لبثت المساعى حتى عقد صلح بين حماد والمعز بن باديس فى سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م ، ونص على استقلال حماد بعمل المسيلة ، وطبنة والزاب (٥)، واشير ، وأعطى البنود

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية ، تونس ١٩٦٤، ١ / ٤٤٤
أنظر : عبد الحليم عبد الفتاح عويس : دولة بنى حماد، رسالة ماجستير كلية دار العلوم ، ١٩٧٣، / ٢٢٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ٩ / ٢٥٣، ٢٥٤ ، النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤/ ١٩٤ ـ ١٩٥
Idris, H,R.,: La Berbérie, p. 111.

(٣) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٤) النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ٢٠٥ـ ٢٠٦.

(٥) الزاب : القسم الجنوبى من ولاية قسنطينة ، ويشغل المساحة الكبيرة الواقعة فى جنوب جبال أوراس ، ومن أهم قواعد الزاب مدينة طبنة ومدينة بسكرة ثم مدينة المسيلة وتهوده ، وهو مدن كثيرة وأنظار واسعة وعمائر متصلة (الحميرى : الروض المعطار ، / ٢٨١) .

والطبول (١) وهكذا افترق ملك بنى زيرى إلى دولتين الدولة الزيرية فى القيروان ، ودولة بنى حماد فى القلعة ، واقتطعت الدولة الحمادية جزءا غير قليل من ممتلكات الدولة الزيرية ، وبذلك فقد المعز بن باديس السيطرة على الجزء الأكبر من دولته (٢) ، فى الوقت الذى صار حماد حاملا للواء السنة فى المغرب الأوسط (٣).

. لما توفى حماد سنة ٤١٩هـ / ١٠٢٨ م ، خلفه ابنه القائد الذى سار على نهج أبيه ، وخلع طاعة المعز بن باديس ، والدولة الفاطمية ، مما حمل المعز بن باديس أن يتجرد له على رأس جيش ، ويحاصره فى القلعة لمدة عامين(٤) ، حتى تم الصلح بينهما(٥) ، ولم تشر المصادر إلى شروط هذا الصلح .

استفاد الحماديون من الأوضاع المواتية ، فعندما انفصل المعز بن باديس عن الخلافة الفاطمية ، واجتاحت القبائل الهلالية ملكه فى افريقية ، اضطر القائد بن حماد الى الاعتراف بسيادة الفاطميين ، فلقبوه شرف الدولة (٦).

واذا كان ابن خلدون تفرد بهذه الرواية فنحن أمام وثيقة فاطمية(٧) معاصرة للأحداث وتؤيدها وتضيف أن التعامل فى الدولة الحمادية أصبح بالسكة المستنصرية .

ويبدو أن هذه الطاعة للفاطميين التى أعلنها القائد ، لم تكن بنية خالصة ، وانما

---

(١)النويرى : نهاية الأرب ، ٢٤ / ٢٠٦

(٢)جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق ، / ٢٢٧.

(٣) ابراهيم احمد العدوى : بلاد الجزائر ، / ٢٢٧،

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، ٩ / ٤٩٢ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٨٦

(٥) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٥٢.

(٦) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٥٢.

(٧) السجلات المستنصرية ، السجل الخامس ، / ٤٤.

هى مداراة سياسية ، فرضتها الظروف للمحافظة على دولته ومقدراتها ، مما يبرهن على مدى حنكة وسياسة بنى حماد ، فكانت هذه الطاعة للفاطميين تمثل حلقة فى لعبة التوازن وتغيير المعسكرات ، طبقا لتغيير الخصوم ، والاستفادة من وضع خسره أبناء عمومته ، فضلاعن تجنب عقاب محتمل وقوعه على يد بنى هلال(١).

ومهما يكن من أمر ، فقد استفاد الحماديون من هذا كله ليقيموا علاقات طيبة مع الفاطميين ، مما أتاح لمدينتى القلعة وبجاية احتلال مكانة القيروان التجارية والفكرية فى المغرب (٢) ، وخاصة بعد أن هاجر الناس إلى بلاد بنى حماد بسب الغزوة الهلالية ، وتفرقوا فى كل وجه (٣).

توفى القائد بن حماد سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م ، وخلفه إبنه محسن ، بيد أنه لم ينعم بالحكم أكثر من تسعة أشهر ، فقد قتل بيد عمه بلكين بن محمد بن حماد (٤)، الذى اعتلى الامارة سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥ م (٥) ، وكان بلكين سفاكا للدماء ، غير أنه شرب من نفس الكأس بأن قتل على يد ابن عمه الناصر بن علناس ، انتقاما لقتله أخته (٦)، وبذلك وصل الناصر بن علناس إلى الحكم سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٧م (٧)، وقد اتسعت الدولة فى عهده ، إلى أن بايعه أهل القيروان سنــة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م(٨).

---

(١)جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق ، / ٢٢٧.

(٢) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، / ٩٦ ، انظر : عبد القادر جغلول : مقدمات فى تاريخ المغرب العربى القديم والوسيط . بيروت ١٩٨٢م ، / ٥٨.

(٣) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، / ٤٤١.

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ٨٧ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٥٢

(٥) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٥٣.

(٦) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس القسم الثانى ، / ٣٥٣.

(٧) نفس المصدر ، / ٣٥٣.

(٨) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٩٦.

أدى التدخل المتزايد من جانب عرب بنى هلال فى حياة دولة بنى حماد ، فضلاً عن عيثهم فى البلاد إلى أن جعل من المتعذر الاقامة فى القلعة ، مما حمل الناصر بن علناس على اختيار موقع آخر ، حيث اختط مدينة بجاية ، وانتقل إليها سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م [١] ، والتى عرفت على عهده بالناصرية ، إلا أنه لم يقدر لهذه التسمية أن تستمر، إذ غلب على المدينة اسمها القديم المنتسب إلى أشهر قبيلة سكنتها ، وهى قبيلة بجاية [٢].

توفى الناصر بن علناس سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨ م ، وخلفه ابنه المنصور الذى بلغت الدولة الحمادية فى عصره أوجها [٣] ، وكان اخر أمراء دولة بنى حماد يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس (٥١٤ ـ ٥٤٧هـ / ١١٢٠ ـ ١١٥٢م) ، ،وطالت أيامه ، مستضعفاً ، مغلباً للنساء ،مولعاً بالصيد [٤] ، ، وفى عهده هاجم العرب الهلالية المغرب الأوسط وقضوا على عمرانه ، ولم يستطع هذا الأمير اعادة الدولة إلى ما كانت عليه [٥].

على أن العلاقات الودية ظلت قائمة بين الفاطميين فى مصر وأمراء بنى حماد ،

---

(١) مؤلف مجهول : الاستبصار ، / ١٢٨ ، ١٢٩ ،. انظر : الحسن بن الوزان : وصف افريقيا ، / ٤٢١ ، حاشية رقم (١) ، منشورات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

(٢) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٥٧ ، انظر : عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد / ١٣٩.

، عمرت مدينة بجاية بخراب القلعة ، الادريسى : صفة المغرب، / ٩٠

(٣)ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٩٧ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٥٨.

(٤) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٦٢.

(٥) نفس المصدر ، / ٣٦٢ ، انظر : حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب ، / ١٥٣

فيذكر ابن عذارى (1) فى حوادث سنة ٥٣٦هـ عن مركب فاطمى رحل من الاسكندرية ببضائع عظيمة ، وهدية من الخليفة الفاطمى الحافظ إلى الأمير يحيى صاحب بجاية .

ومع كل فان طاعة وولاء بنى حماد للفاطميين كانت إسمية لا تعدو نقش اسم الخليفة على السكة ، وتبادل الهدايا ، حتى أواخر عهد الأمير الحمادى يحيى بن العزيز ابن المنصوربن الناصر بن علناس، كما اعاد ولاءه للخليفة العباسى بأن نقش اسمه على السكة سنة٥٤٣هـ/١١٤٨م (2) .

كما نقش على ديناره اسم الخليفة العباسى « الامام أبو عبد الله المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين العباسى » (3).. وكان من الطبيعى أن يحدث ذلك والخلافة الفاطمية تعانى من المشاكل التى أحاطت بها فضلاً عن سيطرة الوزراء وهيمنتهم على الحكم.

وصفوة القول أن الخلافة الفاطمية بدأت تدخل دور الضعف منذ أواخر القرن الخامس الهجرى، كما أدى التراجع الاسلامى فى الأندلس، والوضع الخطير فى الشرق إلى اختلال ميزان القوى فى وضع المغـرب السياسى وعلاقته بالخلافة الفاطمية ، فى الوقت الذى ظهر فيه ثقل جديد فى الجنوب الغربى من الصحراء، يبشر بميلاد دولة المرابطين، ثم خضوع الحماديين لسلطان الموحدين سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م ، بما يؤثر مباشراً على العلاقة بين بلاد المغرب والخلافة الفاطمية .

---

(1) ابن عذارى : البيان ، ١ / ٤٥٠.

(2) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس، القسم الثانى، ٣٦٣.

(3) نفس المصدر ، /٣٦٣.

« وكان نقش دينار الأمير يحيى ثلاثة سطور ، ودائرة فى كل وجه فدائرة الوجه الواحد : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » والسطور : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور . ودائرة الوجه الآخر : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة،وفى سطوره : الامام أبو عبد الله المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين العباسى ».

انظر : ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس، القسم الثانى ، / ٣٦٣.

ثالثاً: العلاقات السياسية مع دولة المرابطين بالمغرب الأقصى

بينما كان الضعف والانقسام يدب فى قوى صنهاجة من بنى زيرى فى إفريقية والمغرب الأوسط، وكذلك قوى زناتة المغراويين فى المغرب الأقصى، ويتفرق ملكهم بين أمراء الطوائف من عرب وبربر، كان الصنهاجيون من الملثمين فى صحراء المغرب الأقصى يأخذون على عاتقهم عملية الانقاذ لبلاد المغرب.

وتضم صنهاجة الصحراء نحو سبعين قبيلة من أشهرها قبائل لمتونة، وجدالة ، ومسوفة، ولمطه، وغيرها، تقطن المنطقة الصحراوية الممتدة بين جنوب بلاد المغرب، وبلاد السودان، وهم رحالة لا يعرفون حرثاً ولا ثمراً، إنما أموالهم الأنعام ، وأقواتهم لحومها وألبانها (١) ، وتميزوا بارتداء اللثام دون سائر قبائل البربر عامة حتى عرفوا بالملثمين (٢).

انتشرالمذهب المالكى على يد عبد الله بن ياسين الجزولى بين قبائل صنهاجة الصحراء (٣)، بدعوة من يحيى بن ابراهيم الجدالى زعيم قبيلة جدالة، حيث عرج

---

(١) البكرى:المغرب فى بلاد افريقية والمغرب، /٦٤، ابن الخطيب : أعمال الاعلام، القسم الثالث، /٢٢٥.

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ، الرباط ١٣٥٥هـ /١٩٣٦م ، ٦/٢. مؤلف مجهول :الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء ١٩٧٩ ، /١٩، انظر : حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين، /٤٩، ٥٢.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ،٢٤ /٢٥٤، ابن خلدون : العبر ،المجلد السادس، القسم الثانى، /٣٧٤.

على القيروان فى سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م (١) ، وكانت القيروان فى ذلك الوقت حاضرة المغرب الثقافية ، ومعقل المالكية، بعد أن علت فيها كلمة أهل السنة، وانتصر فقهاء المالكية على أصحاب الدعوة الاسماعيلية ،عقب مذبحة الشيعة فى عهد المعز بن باديس (٢) .

استطاع عبد الله بن ياسين أن ينشر تعاليم الدين بين قبائل الملثمين ، ويبصرهم بأحكام الاسلام ، غير أنه وجد تعنتاً فى بادىء الأمر من بعض القبائل التى لم تشأ أن تنصاع إلى دعوته ، وأخذوا يجافونه ، وينفرون منه (٣) ، مما حمل ابن ياسين على أن يعتزلهم ، وخرج قاصداً بلاد السودان بصحبة يحيى بن عمر زعيم لمتونة ، وأخوه أبو بكر بن عمر(٤) ، أقام عبد الله رباطاً فى جزيرة نائية ليتوافد عليه المريدون ، وسرعان ما كثر أتباعه من الصنهاجيين الملثمين الراغبين فى العبادة والزهد ، حتى بلغوا نحواً من الف رجل ، أطلق عليهم ابن ياسين اسم المرابطين (٥) ، ثم اتجه ابن ياسين بجموع المرابطين صوب القبائل المتمردة ، وقاتلهم ، وانتصر عليهم ،

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس، ٨/٢ ، السلاوى: الاستقصا ، ٥/٢ ، حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ،/ ١٠٨، ١٠٩ ، وقارن القلقشندى ، صاحب الحلل الموشية حيث يحددان هذا التاريخ بسنة ٤٤٠هـ (صبح الأعشى، ١٨٩/٥ ،الحلل الموشية، / ١٩).

(٢) أنظر / ٥٥-٥٨ من هذا الفصل .

(٣) البكرى : المغرب ، / ١٦٤ ، مؤلف مجهول: الحلل الموشية، /٢١، جورج مارسيه: بلاد المغرب ./٢٧٢.

(٤) ابن الأبار ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ) : الحلة السيراء ، القاهرة ١٩٦٣ ، ١١٢/٢ ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٧٤.

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس ، / ١٠ ، ١١ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ، / ٢٢٧.

* اختلف فى تحديد هذا المكان فقيل انه على ساحل المحيط ، وقيل بل هو فى حدود السنغال على مصب نهرها.

انظر : عبد الواحد شعيب : دور المرابطين فى الجهاد بالأندلس ، مالطة ١٩٩٠، / ١٥) .

وأجبرهم على الدخول فى طاعته (١) .

كان للانتصارات التى أحرزها المرابطون وفقيههم ابن ياسين أصداء واسعة النطاق خارج الصحراء ، وما لبث ابن ياسين أن اتجه بجموع المرابطين إلى الشمال ، ولم تصمد زناته أمام هذه الجيوش الكثيفة العدد ، فقد تمت الغلبة للمرابطين ، وتذكر الروايات التاريخية (٢) أن يوسف بن تاشفين أثناء غزوه لبلاد جزولة اشتبك مع قوم من الشيعة ، يقال لهم البجلية (٣) ، وقضى عليهم حتى آل إليه كل بلاد السوس.

زحف يوسف بن تاشفين (٤) بجيوشه إلى المغرب الأقصى ، فغلب على أكثر بلاده، وعظم أمره ، واستفحل ملكه ، فقد خطب له فى بلاد المغرب على نحو الفى منبر ، ثم بنى مدينة مراكشى (٥).

---

(١) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، / ٣٧٥ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس ، ٢ / ٢١ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٢٢٩ ، السلاوى : الاستقصا ، ٢ / ١٤

(٣) البجلية : نسبة إلى على بن عبد الله البجلى الشيعى بتارودانت قاعدة بلاد السوس ، والذى يرجع إليه الفضل فى نشر دعوة الاسماعيلية فى بلاد السوس أيام الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى بافريقية ، وظلوا يتوا رثونه جيلاً بعد جيل ...، انظر ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٢٢٩ حاشية رقم (٣) ، عبد الواحد شعيب : دور المرابطين ، / ١٨

(٤) يوسف بن تاشفين بن ابراهيم الصنهاجى الحميرى ، كنيته أبو يعقوب ، وكانت خلافته من أول ولايته بالمغرب باستخلاف ابن عمه الأمير أبى بكر بن عمر اياه ، وانصرافه إلى الصحراء فى عام ٤٤٢هـ/ ١٠٦١م . (انظر : الحلل الموشية ، / ٢٤ ، وقارن ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٢٣٣ ، ٢٣٤ حيث بعض الاختلافات فى الترجمة .

(٥) مَرّاكُش: بالفتح ثم التشديد وضم الكاف ، مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى تقع فى سفح جبل الأطلس الكبير ، ويمر فى شمالها نهر تانسيفت ، وتمتاز هذه المدينة بخصوبة تربتها الحمراء ، وجودة مناخها ، ويذكر المراكشى أنها سميت بعبد أسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه مراكش ، وعن بنائها يذكر الحميرى أن يوسف بن تاشفين بنى مراكش فى صدر سنة ٤٧٠ هـ وقيل سنة ٤٥٩هـ . =

وهكذا بدأت قبائل المرابطين تطرق أبواب المغرب الأقصى ، حاملة المذهب المالكى ، فى وقت اشتدت فيه حاجة العالم الاسلامى فى المغرب إلى دماء جديدة ، وقوى فتية تلم الشعث وتوحد الجهود المبعثرة ، وتعود بالمجتمع الاسلامى إلى عهد السلف الصالح .

كان أمر المسلمين فى الأندلس ، قد وصل إلى درجة من الاضمحلال ، جعلت مصير الاسلام فى شبه الجزيرة فى الميزان ، وانتهز ملوك أسبانيا المسيحيون هذه الفرصة للتوسع على حساب أولئك الأمراء الضعاف ، وأمام هذا الخطر الداهم التمس ملوك الطوائف الغوث من المرابطين اخوانهم فى الدين ، فاستجابوا لصريخهم وعبروا البحر إلى الاندلس ، واستطاعت قواتهم أن تنتصر على المسيحيين فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م (١).

ولم يكن طبيعياً أن يعترف المرابطون بامامة الفاطميين ، وهم المالكيون المتعصبون الذين يكفرون الخلفاء الفاطميين ويرمونهم بالزندقة والالحاد (٢) ، لذلك كان المرابطون علي اتصال بالخلافة العباسية ، وهي العدو التقليدي للخلافة الفاطمية في القاهرة ، وقد حفظت لنا السكة أن هذا الاتصال قد بدأ منذ عهد الأمير أبي بكر بن عمر منذ عام ٤٥٠هـ /١٠٨٧م(٣)، وظل اسم الخليفة

- انظر : عبد الواحد المراكشى : المعجب ، / ١٥٦ ، الحميرى : الروض المعطار ، / ٥٤٠ ، وقارن : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، الحلل الموشية . / ٢٥ ، حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ، / ٢٠١ .

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، القسم الثالث ، / ٢٤٢ ، الحميرى : الروض المعطار ، /٢٢٨ ، ٢٩١ ، وقارن عبد الواحد المراكشى حيث يحددها بسنة ٤٨٠ هـ (المعجب ، /١٩٥) .

(٢) ابن الدباغ : معالم الايمان ، ٢٩/٣ .

(٣) Lavoix :Catalogue de monnaismusulmanes de la bibliotheque nationales de Paris. DCCC XI. P.198 .

العباسى يذكر مقروناً باسم أبى بكر بن عمر إلى أن توفى فى عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ، وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه علي السكة مع اسم الخليفة العباسي(١) .

علي أن يوسف بن تاشفين لم يعلن نفسه خليفة على المسلمين ، وإنما أعلن انضوائه تحت لواء الخلافة العباسية ، ولم يقف الأمر عند ذلك ، بل لقب نفسه بأمير المسلمين تأدبا مع الخليفة.

ذلك أنه ، لما ضخمت مملكة يوسف بن تاشفين ، واتسعت عمالته ، اجتمعت له أشياخ قبيلتة ، وأعيان دولته ، وقالت له : أنت خليفة الله فى هذا المغرب ، وحقك أكبر من ان تدعى بالأمير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين ، فقال لهم : حاش الله أن نتسمى بهذا الاسم ، انما يتسمى به خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين : مكه والمدينة ، وأنا رجلهم ، والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : لابد من اسم تمتاز به . وبعد ما أجاب إلى أمير المسلمين ، وناصر الدين ، خطب له بذلك على المنابر .... ، (٢) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن المرابطين اتخذوا السواد شعاراً لهم فى ملابسهم ، وأعلامهم ، وهذا اللون الأسود كما هو معروف شعار العباسيين ، الذين أصبحت لهم السيادة الروحية على تلك البلاد بعد انقطاع طويل(٣) .

مما سبق يتضح لنا أن المرابطين دانوا بالطاعة للعباسيين سواء قبل الزلاقة أو بعدها ، مما يفسر لنا أن علاقات المرابطين بالفاطميين لم تكن ودية ، لذلك كان من الطبيعى أن يناصب الفاطميون العداء للمرابطين السنيين الذين اعترفوا بالعباسيين ،

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس ، /٣٨ ، ٣٩ .

(٢) مؤلف مجهول : الحلل الموشية / ٢٩

(٣) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ، / ١٠٠ .

«وكانوا يعتقدون فى العلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح ، وبالتالى كان الوزير الفاطمى بدر الجمالى يضيق على المغاربة ، حتى أنه من أراد الحج من المغاربة كان يعدل عن طريق مصر ، وعلى الرغم من أن الوزير الفاطمى حاول استصلاح المغاربة ، فلم يميلوا إليه ولاقاربوه ، فأمر بقتل من ظفر به منهم ، ولما ولى ابنه الأفضل ، حاول التودد إليهم ، بيد أن سياسته لم تستمر طويلاً (١) .

وصفوة القول أن علاقات الفاطميين بالمرابطين لم تكن علاقات ودية ، فضلاً عن زوال النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، ولم تستطع الحملات الهلالية ، رد المغرب إلى طاعة الفاطميين ، وظلت الخطبة تقام للعباسيين حتى قيام دولة الموحدين .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ١٠ / ٤١٤ .

رابعاً : العلاقات السياسية مع دولة الموحدين بالمغرب :

نشأت دولة الموحدين شأنها فى ذلك شأن دولة المرابطين فى أن كلا منهما قام على أساس دينى ، وان اختلفا فى المذاهب التى ينتمى إليه كل منهما ، كما أن كلا منهما قام بفضل جهود رجل واحد ، واذا كانت دولة المرابطين قامت بجهود الفقيه المالكى عبد الله بن ياسين ، فان دولة الموحدين قامت بجهود محمد بن تومرت .

ومؤسس هذه الدولة هو الفقيه محمد بن عبد الله بن تومرت الهرغى المصمودى السوسى(١) ، يتضح من اسمه أنه من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة الساكنة فى بلاد السوس بجبال أطلس ، وكان قومه يعرفون بالشرفاء .

رحل ابن تومرت إلى المشرق ، وطاف بعواصم الحجاز والشام والعراق ومصر طلباً للعلم ، عرج ابن تومرت على مدينة الاسكندرية عند عوته من المشرق ، فأقام بها يختلف إلى مجلس الفقيه أبى بكر الطرطوشى فى عهد الخليفة الفاطمى الآمر، «وجرت له بها وقائع فى معنى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، أفضت إلى أن نفاه متولى الاسكندرية عن البلاد» (٢) .

على أن ابن تومرت تأثر بأراء المعتزله الذين كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، ونادى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتوحيد الخالص ، ومن هذا المنطلق أطلق على أصحابه الموحدين ، «كان المهدى (ابن تومرت) أوحد عصره فى علم الكلام ، وعلوم الاعتقاد ، حافظاً للحديث والفقه ، له لسان وفصاحة ..»(٣) .

أخذ ابن تومرت يشيع عند الناس أنه الامام المنتظر المخبر به القائم فى آخر الزمان

---

(١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، / ٢٤٥ .

* يزعم بعض المؤرخين أن ابن تومرت من سلالة العلوين ، فيذكر عبد الواحد المراكشى أن له نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وجدت بخطه ، ويبدو أن ذلك النسب غير صحيح ، لأن المراكشى كان من أشد أنصار الموحدين . (المراكشى : المعجب ، / ٢٤٥ ، انظر : حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس . /١٧٧).

(٢) المراكشى : المعجب ، /٢٤٦ ، انظر كذلك الحاشية رقم (٢) من نفس الصفحة .

(٣) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، /١٠٧ .

الذى يملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا (١) ، «وكان يبطن شيئاً من التشيع ، .. ويدعى العصمة لنفسه ، وأنه كان على مذهب أبى الحسن الأشعرى فى أكثر المسائل ، إلا فى اثبات الصفات(٢) .

والمعروف أن بعض فرق الشيعة تعتمد فى أصولها على آراء المعتزلة ، كما تذهب إلى أن صفات الله من ذاته ، هذا فضلاً عن ادعاء ابن تومرت بالمهدى المنتظر ، وعصمة الامام ، ورفع نسبه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يجعل دعوته تقترب من آراء الشيعة (٣) .

ومهما يكن من أمر فان المهدى بن تومرت ، اراد أن يضمن لدعوته النجاح فجعلها مزيجاً من هذه التيارات والأفكار الثقافية والفقهية التى كانت معروفة فى المغرب (٤) ، وعلى هذا الأساس رأى الموحدون أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أكثرهم إيماناً ومعرفة ولقبوا أنفسهم بأمراء المؤمنين فعندما « أقر المهدى على الجيش عبد المؤمن ابن على ، وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم ، فاستحق عبد المؤمن من يومئذ امرة المؤمنين » (٥) .

توفى ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠م (٦) ، ثم قام بالأمر من بعده عبد المؤمن ابن على الكومى الزناتى ، الذى رفع بعض المؤرخين نسبه إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان (٧) ، حتى تستند خلافتهم على الأسس الشرعية ،

---

(١) نفس المصدر ، /١٠٨ .

(٢) المراكشى : المعجب ، /٢٥٥ .

(٣) انظر : حسن خضيرى أحمد : قيام الدولة الزيدية فى اليمن ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ١٩٨٩ م .

(٤) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، /١١٠ .

(٥) المراكشى : المعجب ، /٢٦٠ .

(٦) المراكشى : المعجب ، /٢٦٢ .

(٧) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك (ت٥٩٤ هـ / ١١٩٨م) : تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ، بيروت ١٩٦٤ السفر الثانى ،/٤١١ ، ٤١٣ ، ابن أبى زرع : الأنيس ، /١٢٦ .

وحمل عبد المؤمن لقب أمير المؤمنين ، وهى المرة الأولى التى يحمل فيها حاكم مغربى لقب الخليفة الذى كان قاصراً على القرشيين (١) ، ويعتبر عبد المؤمن بن على المؤسس الحقيقى لدولة الموحدين ، فلقد أخذ على عاتقه اعادة تنظيم الموحدين ، وقضى على دولة المرابطين ، وشمل سلطانه المغرب الأقصى كله من البحر المتوسط إلى وادى درعة ، حتى طنجه وسبته فى الشمال سارعت إلى الدخول فى طاعة الدولة الجديدة (٢) .

عمل الموحدون على نشر الدعاية اللازمة للخلافة الموحدية فى العالم الاسلامى ، فأرسلوا الدعاة إلى مصر ، الذين بلغ عددهم واحداً وخمسين رجلاً ، حفظ لنا البيذق(٣) وهو معاصر لنشأة الدولة ، وشاهد عيان على أحداثها ، أسماء هؤلاء الرجال وذكر أنهم كانوا للمهدى بمثابة أعضائه وجسده ، سامعين لقوله ، مجيبين لأوامره ، مؤمنين بدعوته ، وهذا يدل من غير شك على طموحات المهدى فى نشر الدعوة الموحدية فى بلاد المشرق وخاصة مصر ، فضلاً عن أن الحالة التى وصلت إليها مصر الفاطمية من الضعف فى ظل الخلفاء الفاطميين لم تكن بخافية على المهدى وعيونه فى مصر.

ويعقد ابن القطان (٤) مقارنه فى كتابه نظم الجمان بين الخلافتين الفاطمية

---

(١) عبد القادر جغلول : مقدمات فى تاريخ المغرب العربى ، / ٦٣ .
(٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب ، / ١٨٨ .
(٣) ابو بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق (القرن السادس الهجرى /١٢ م) : أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، باريس ١٩٢٨، ٣٠ ، ٣٢ ، انظر : احمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، /١١٣ .
(٤) ابن القطان ، على بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامى (ت٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) : جزء من كتاب نظم الجمان ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية / الرباط ، /١٨٩ ، انظر : أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ، / ١١٣ .

بمساوئها ، والموحدية بمحاسنها ، يخرج منها بنتيجة واحدة وهى أن الخلافة الموحدية هى أجدر الخلافات بحكم العالم الاسلامى .

أما الرحالة ابن جبير(١) الذى عاصر قيام دولة الموحدين ، وطاف بأنحاء المشرق الاسلامى فى تلك الفترة ، فقد ذكر لنا أن المصريين كانوا يترقبون مجىء الموحدين ، هذا فضلاً عن أنهم يؤولون بعض الظواهر الطبيعية على أنها تعبر عن قرب مجيئهم ، لدرجة أن بعض الفقهاء قد أعدوا خطباً ، لالقائها بين يدى الخليفة الموحدى عند قدومه .

ويذكر المراكشى(٢) عزم الخليفة الموحدى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٧٨ ـ ٥٩٥ هـ)على قصده مصر وتطهيرها من المناكر والبدع ، رغم سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر قبل ذلك .

والخلاصة أن علاقات الموحدين بالفاطميين لم تكن بأحسن حالاً من علاقات المرابطين بالفاطميين، فقد كانت علاقات الموحدين متأزمة مع الفاطميين .

---

(١) ابن جبير ، محمد بن أحمد الأندلسى (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) : رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبنانى ،/٥٢ ، ٧٠ .

(٢) المراكشى : المعجب ، ٣٦٠ .

الفصل الثانى

(العلاقات التجارية)

أولاً : طرق التجارة ومسالكها .

* الطرق البرية .
* الطرق البحرية.

ثانيا : النشاط التجارى .

* الصادرات المصرية إلى بلاد المغرب
* الصادرات المغربية إلى مصر
* عوامل تدهور النشاط التجارى بين البلدين

ثالثا : المعاملات التجارية

* المعاملات المالية .
* الموازين والمكاييل والمقاييس

أولاً : طرق التجارة ومسالكها :

توثقت العلاقات التجارية بين مصر ودول المغرب العربى بفضل شبكة الطرق البرية والبحرية، التى أسهمت بدور كبير ومباشر فى عمليات التبادل التجارى بينهما، هذا فضلاعن دورهما فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب، وأهم هذه الطرق:

الطرق البرية :

وقد عالج هذه الطرق أكثر من جغرافى ورحالة ، وكان فيهم من أعطى المسافات مقدرة بالأميال كابن خرداذبة ، ومن أعطاها مقدرة بالمراحل أو بأيام السير من نقطة إلى أخرى كالبكرى ، ويأتى قدامه بن جعفر بتفصيلات أو فى عن مختلف المراحل التى تقطعها القوافل من مصر حتى القيروان (١) ، وان كان البكرى يمثل لنا فترة ماقبل الغزو الهلالى ، فان الادريسى وصاحب الاستبصار يمثلان الفترة التى تبلورت فيها نتائج الهجرة الهلالية ، وما لحق بطرق التجارة من أضرار بالغة التى نحن بصددها ، ويمثل الطريق الساحلى الممتد من الإسكندرية مارا بذات الحمام إلى مدينة الرمادة ومنها إلى مدينة برقة ومنها إلى اجدابية ويستمر حتى سرت فطرابلس (٢) ، ثم صفاقس ، ويتجه هذا الطريق إلى الداخل فى اتجاهه نحو القيروان ، حيث يتفرع إلى ثلاث طرق تلتقى عند المسيلة ، حيث يتجه منها طريقان عبر هضاب تل أطلس ، والثالث عبر الجريد والزاب ، ومن المسيلة يتابع الطريق سيره إلى تنس عبر وادى شلف ثم إلى تلمسان وفاس (٣) ، وهذا الطريق الذى يسميه البكرى بالجاده (٤) ويتميز هذا الطريق بأنه أكثر أمنا وراحة لقوافل التجار والمسافرين نتيجة لعمارته التى أشاد

---

(١) قدامه بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابه ، ليدن ١٨٨٩ / ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢) البكرى : المغرب / ٢ ، ١٠

(٣) عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى / ٣٠٦

(٤) البكرى : المغرب / ١٤

بها المؤرخون ، وكانت العمارة متصلة من مدينة الاسكندرية إلى مدينة القيروان ، تمشى فيها القوافل ليلا ونهاراً (١).

وأما الطريق الثانى فهو إلى الجنوب من الطريق الأول ، ويبدأ من الفسطاط إلى ذات السلاسل ثم ترنوط ، ويتابع الطريق سيره إلى ذات الحمام ثم حنية الروم فالندامة حتى يصل إلى برقة (٢) ، ويتجه إلى اجدابية ليلتقى بالطريق الأول عندها ، وهى تعد مركزا من مراكز التجارة حيث يوجد بها «حمامات وفنادق كثيرة ، وأسواق حافلة مقصودة»(٣) ، ثم يتابع هذا الطريق سيره إلى القيروان ماراً بطرابلس وقابس ومن قابس إلى بئر الزيتونة حتى يصل إلى مدينة القيروان (٤) ، وكان يعرف هذا الطريق بطريق السكة (٥) ، حيث كان يتخذه البريد فى أول الأمر ، ثم عدل بعد ذلك إلى طرابلس ومنها كان يقصد القيروان رأساً ، وبعدها يسير بحذاء الساحل (٦) .

كما لعبت الطرق الصحراوية دورا كبيرا فى عمليات التبادل التجارى ، وفى تغطية الأسواق المصرية والمغربية والعالمية بما تحتاج اليه من المنتجات ، ولا سيما الذهب والرقيق الذى كان تجارة دولية معروفة فى ذلك الوقت ، ومن الطرق الصحراوية يذكر لنا البكرى (٧) الطريق من الواحات إلى سنتريه (واحة سيوه) ، ومنها إلى أوجله، هذا فضلا عن طريق آخر يمر بالواحات الداخلة والكفرة ، ويتجه إلى السودان الغربى

---

(١) المراكشى : المعجب /٤٣٢ .

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك /٨٤ ، ٧٥ ، قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج ، / ٢٢٢،٢٢١ ، مجهول : الاستبصار /١٤٤ ، الحسن بن الوزان : وصف افريقيا /٤٨٣ .

(٣) مجهول : الاستبصار /١٤٤ .

(٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك / ٨٦ ، ٨٧ .

(٥) قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج / ٢٢٣ .

(٦) آدم متز : الحضارة الاسلامية ٢ / ٣٥٥ .

(٧) البكرى : المغرب / ١٤

متجها إلى غانه وأودغشت ، ويعتبر هذا الطريق أقصر الطرق البرية، وأقربها مسافة بين مصر والمغرب ، لولا قلة الماء فى هذه الصحراء [١] ، على أن هذا الطريق قد عدل فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إلى طريق سجلماسة نتيجة لتواتر الرياح ، وترادف عدوان اللصوص على القوافل [٢] ، ومن الجدير بالذكر أن هذا الطريق ساعد عى ترويج منتجات برقة ومصر لاسيما تجارة المنسوجات التى كانت تجد قبولا بتادمكه وبلاد كانم (تشاد) [٣] .

ويذكر لنا الادريسى [٤] طريقا آخرا من مصر إلى المغرب عن طريق البهنسا، ومنها إلى جب مناد ثم يتابع الطريق سيره إلى سجلماسة ، وقد ارتاد المرابطون هذا الطريق فى سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م ، رغم صعوبته « قليل ما يسلكه أحد انما سلكه الملثمون بدليل » .

كان من الطبيعى أن تتأثر الطرق التجارية بالعلاقات السياسية بين مصر والمغرب نتيجة للقطيعة بين الدولة الزيرية ومصر ، وما ترتب عليها من هجرة بنى هلال ، واتجاه الدولة الزيرية إلى الساحل ، الأمر الذى جعل الطريق الساحلى غير آمن ، وقلّ استعماله عن ذى قبل ، لتعرضه لأعمال السلب من قبل بنى هلال وانعكس ذلك على تكاليف نقل التجارة بين البلدين ، فأصبحت باهظة [٥] ، ويصف لنا الحسن بن الوزان[٦] صعوبة الرحلة فى هذا الطريق بقوله : «لم تجرؤ أى قافلة على المرور فى الطريق الساحلى .. وعندما يكون على أى قافلة أن تجتاز البلاد فعليها أن تمر من

---

(١) مجهول : الاستبصار / ١٤٧ .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية ٢/٣٥٥ .

(٣) البكرى : المغرب / ١٨١ ، مجهول : الاستبصار /٢٢٣ .

(٤) الادريسى : صفة المغرب / ١٦٢ . ١٦٣ .

(٥) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى / ٢١٩ .

(٦) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا / ٧٥ .

الداخل على مسافة ٥٠٠ ميل ، أى تسلك الطريق الممتد إلى مصر عن طريق واحات أوجلة وسيوه ، إذا أضفنا إلى كل ذلك الخراب الذى حل بالمراكز التجارية والأسواق الواقعة على هذا الشريان الحيوى من جراء غارات النورمان ، واحتلالهم لمدن الساحل(١) .

على أن العلاقات الطيبة بين الفاطميين ودولة بنى حماد ، ساعدت على تحول التجارة إلى الدولة الحمادية ، وازدهرت مراكز تجارية كقلعة بنى حماد وبجاية من بعدها التى «لم يكن للعرب إليها سبيل»(٢) ، وأصبح الطريق الساحلى فى بلاد بنى حماد يربط الدولة الزيرية ، الا أن عيث العرب حال دون أن يكون هذا الطريق آمنا فى كل مراحله ، فعن قابس يقول الادريسى (٣) «وفى باديتها عتو وفساد وقطع سبيل» ، وأما بالنسبة للمناطق الغربية فقد ظلت بمنأى عن عيث بنى هلال وغارات النورمان ، وكانت الطرق جبلية وتركزت فى ثلاث محاور رئيسية هى فاس واغمات وتلمسان ، ومنها تتجه الطرق إلى سجلماسة (٤) ، ومع ظهور دولة الموحدين واستيلاء الخليفة الموحدى عبد المؤمن على افريقية والمهدية ، وتحريرهما من نير الرومان ، عادت الحياة إلى الطريق الساحلى الذى يمتد من نول عبر سبته ووهران وتنس إلى طرابلس(٥) ، بيد أن الطريق إلى الشرق من طرابلس لم يكن آمنا من عيث وسلب بنى هلال لقوافل التجار مما قلل من أهمية هذا الطريق فى نقل التجارة بين مصر والمغرب (٦) .

---

(١) عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى / ٣٠٨ .

(٢) مجهول : الاستبصار / ١٣٠ .

(٣) الادريسى : صفة المغرب /١٠٧ .

(٤) المراكشى : المعجب /٤٤٣ ، انظر : عز الدين احمد موسى : النشاط الاقتصادى / ٣١١ .

(٥) المراكشى : المعجب /٤٤١ ، ٤٤٧ ، مؤلف مجهول : الحلل الموشية / ١٥٠ ـ ١٥٤ .

(٦) الادريسى : صفة المغرب / ١٨١ ، ١٨٣ ، ابن سعيد : كتاب الجغرافيا / ١٢٨ .

وأما عن رحلات القوافل عبر هذه الطرق البرية ، فكانت فى فصل الشتاء حيث تعمل ثلاثة قوافل برية تمر من سجلماسة ، وتصل هذه القوافل إلى القيروان وطرابلس وبرقة حتى مصر هذا فضلاً عن قافلتين فى فصل الصيف (١) ، وبالنسبة للطريق الصحراوى فكان يتعذر على التجار المسيرفيه فى غير فصل الشتاء نتيجة لهبوب رياح السير وكو التى تثير الكثير من الرمل وتغطى الآبار (٢) .

الطريق البحرى :

يبدأ هذا الطريق من الاسكندرية ، وتعتبر الاسكندرية أهم مراكز التجارة الخارجية فى العصر الفاطمى ، فكان يصدر منها معظم المنتجات المحلية ، والواردات الاسيوية، بيد أن أهميتها ترجع إلى تصدير غلات الشرق أكثر من غلات مصر (٣) كما كانت من أهم مراكز تصدير الكتان إلى بلاد المغرب (٤) ، ثم يمر هذا الطريق بسلسلة من الموانئ من أهمها السلوم وطبرق وبرقة وطرابلس وقابس ومنها إلى صفاقس ثم إلى المهدية التى تعتبر بحكم موقعها «قاعدة البلاد الافريقية وقطب مملكتها» (٥) ، وهى مرفأ لسفن الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس (٦) ، وفوق ذلك من أهم المراكز التجارية بفضل أسواقها الكثيرة (٧) ، ومن المهدية إلى سوسة ، ثم إلى تونس ومنها إلى بونة (٨) ، ثم إلى بجاية ، وهى مرسى عظيم تحط فيه سفن المسلمين من

---

(١) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى / ٢١٩ .

(٢) الحسن بن الوزان : وصف فريقيا / ٨٦ .

(٣) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة ١٩٤٨ م /٢٩٥ .

(٤) Goitein, S.D.,: A Mediterranean, Society, University of California Press, 1967, Vol., 1, P.203 .

(٥) الحميرى : الروض المعطار / ٥٦٢ .

(٦) البكرى : المغرب / ٤، ٥، ٧، ١٧، ١٩، ٣٠، انظر : هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ، ٦٥ ، ٦٦ .

(٧) مجهول : الاستبصار / ١١٧ .

(٨) هى مدينة (HIPPOS REGHIS) القديمة على حدود المغرب الأوسط وتسمى الآن عنابة . (المراكشى : المعجب /٤٣٦ ، حاشية رقم ٤) ، أرشيبالد لويس : القوى البحرية /٢١٢ .

الاسكندرية ، [1] ويتابع الطريق البحرى سيره مارا بجزائر بنى مزغناى ومنها إلى تنس ثم مدينة وهران ومنها إلى سبته وطنجه فى المغرب الأقصى [2] .

وكانت هذه السلسلة من المراسى البحرية تمتد عبر المغرب الأوسط والأقصى مؤلفة طريقا بحريا للحج ، حيث كان الحج إلى بيت الله الحرام هو الباعث على هذا النشاط التجارى ، والمحرك لتجوال السفن بين مختلف السواحل المغربية ، والضمان لدوامه واستمراره [3] .

وتوثقت الصلات التجارية بين الاسكندرية وهذه الموانىء المغربية ، فيذكر المراكشى[4] أنه كان فيما بين الاسكندرية وطرابلس حصون متقاربة جدا ، فاذا ظهر فى البحر عدو نُور كل حصن للحصن الذى يليه ، حتى ينتهى خبر العدو من طرابلس إلى الاسكندرية فى ثلاث أو أربع ساعات من الليل ، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم ، ولم يبطل هذا إلا حينما ثار المغرب على الفاطميين ، ولم يعد فى امكانهم حماية الحصون من البدو [5] .

ومع ما تحمله الرواية من بعض المبالغة ، إلا أنها تبين سرعة وسهولة الاتصال بين الاسكندرية وموانىء إفريقية قبل هجرة بنى هلال وتخريب هذه الحصون على يديهم .

ازدهرت أهمية هذا الطريق البحرى ، وخاصة بعد تحول طرق التجارة الدولية

---

(١) مجهول : الاستبصار / ١٣٠ .

(٢) المراكشى : المعجب /٤٣٢ .

(٣) سليمان مصطفى زبيس : تاريخ القاهرة الاقتصادى ، تاريخ العرب والعالم العدد ٩٥ ، ٩٨ ، ١٩٨٦ ، / ٣٥ .

(٤) المراكشى : المعجب /٤٣٢ .

(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية ٣٥٧/٢ .

الواصلة إلى الهند والصين من العراق والخليج الفارسى إلى مصر والبحر الأحمر ، والتى بذل الفاطميون قصارى جهدهم فى سبيل الاحتفاظ بها [١] واستفادت المغرب من وساطتها فى التجارة الدولية ، وأصبحت موانيها محطات عبور للملاحة بين مصر وأسبانيا [٢] ، على أن الناس كانوا يفضلون الطريق البحرى عن الطريق البرى ، وحفظت لنا وثائق الجنيزة [٣] الكثير من المعلومات عن الأسفار ونقل البضائع عبر هذا الطريق ، والتى يتضح منها أنه لم تكن ثمة قيود على السفر بين مصر الفاطمية ودولة بنى زيرى ، على الرغم من القطيعة التى نشأت بين الدولتين [٤] .

---

(١) Mas Latrie, Relations et commerce de L'Afrique Septentrionale, Paris 1886, P.21 .

(٢) Ibid., P, 24.

(٣) اكتشفت وثائق الجنيزة منذ قرن تقريباً ، وكلمة جنيزة كلمة عبرية مشتقة من الكلمة الفارسية (جنك) بمعنى خزانة وفى العصور الوسطى أطلقت كلمة جنيزة على تلك الحجرة التى كان اليهود يخزنون فيها أوراقهم الخاصة من خطابات وعقود وايصالات وخلافة ، ويذهب الباحثون إلى القول بأن الاحتفاظ بها كان لاعتقاد اليهود بأن الكتابات بحروف عبرية - والتى قد تشتمل على ذكر اسم الله عز وجل - يجب ألا تحرق أو تمزق ، بل يجب الاحتفاظ بها ثم دفنها ، وأطلق الباحثون مصطلح وثائق جنيزة القاهرة على مجموعة الوثائق التى عثر عليها فى حجرة مظلمة فى سيناجوج (معبد اليهود) بالفسطاط ، وكذلك على مجموعة وثائق عثر عليها فى مقبرة البساتين القريبة من القاهرة ، وتنافست دور الكتب فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية ، وبخاصة مكتبة جامعة كمبردج فى انجلترا فى الحصول على هذه الوثائق ، وبالفعل نقلت إلى مختلف أنحاء العالم .

عن جنيزة القاهرة انظر : حسنين محمد ربيع : وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانى اليمن والحجاز فى العصور الوسطى ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ١٩٧٩، ٢/١٣٢ ، عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، / ٨٤ - ٨٥ .

Goitein, S. D.,: A Mediterranean Society, Vol. I, PP, 1 - 28

(٤) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى / ٢١٣ .

أدى انتظام حركة القوافل والمراكب إلى انقسام العام إلى مواسم نشاط تجارى وأخرى ركود تجارى ، وهذا الوضع تعكسه رسائل الجنيزة ، كما أن الأعياد الاسلامية كانت مناسبة كبرى لبيع البضائع وبخاصة الملبوسات ، وقد وردت العبارة التالية فى احدى الرسائل «قد تحركت المعيشة وهو موسم (١) » ، ويذكر البكرى (٢) أن المنستير مركزاً لأكبر سوق سنوى فى يوم عاشوراء . ومن هنا يبدو أن الأعياد والمناسبات الدينية سواء فى مصر أو المغرب كانت سوقا رائجة لتصريف السلع التجارية .

ومما يجدر الاشارة إليه أن رحلات القوافل البرية والبحرية كانت تعمل متقاربة وفى وقت واحد ، ففى الشتاء عندما تتوقف الملاحة عى صفحة البحر المتوسط كانت تتوجه من القيروان إلى مصر ثلاث قوافل فضلا عن قافلة سجلماسة إلى مصر عن طريق القيروان ، وكان يشار إلى تحركها «بيوم مشى الموسم» ، وكانت السفن فى العادة تقلع وتشرع فى رحلة العودة فى سبتمبر ، وقوافل أخرى كانت تبحر فى يونيو ، وفى حدود آخر مايو تقلع القوافل الصيفية ، وكانت تحتاج إلى ثلاثة شهور تقطع خلالها المسافة بين مصر وتونس ، حيث التوقف فى المحطات المتوسطة عبر هذا الطريق التى لابد منها للسفن التجارية العادية مما كان يؤخر الوصول إلى الوجهة المقصودة ، وفى خطاب يشير إلى القيروان ذكر أن متوسط الموعد المحدد لوصول القافلة يصل إلى عشرين يوماً (٣) .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، زاد الاعتماد على السفر بالطريق البحرى ، نتيجة للأخطار التى لحقت بالطريق البرى بعد الغزوة الهلالية واختلال الأمن فى إفريقية (٤) ، وأصبح هذا الطريق هو السبيل

(١) Goitein : A Mediterranean, I, P. 449.

(٢) البكرى : المغرب / ٣٦ .

(٣) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى / ٢١٩ .

(٤) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى / ٢١٨ .

الوحيد للتبادل التجارى والحج (١) ، وبعد فحص عدد كبير من وثائق الجنيزة تمكن أحد الباحثين أن يصل إلى أن نسبة السفر براً وبحراً فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى كانت ١ : ٢٠(٢) ، وإنْ كان يبدو أن هذه النسبة تقريبية حيث معظم خطابات الجنيزة تحدثت عن الطريق البحرى ، الذى كان يفضله التجار اليهود دائما على الطرق البرية ، والتى تعوزنا المعلومات عن تحديد الرحلات فيها ، إلا أننا نستشف فى نفس الوقت إلى أى حد تحولت التجارة إلى الطريق البحرى بنسبة كبيرة.

وعلى الرغم من تفضيل الطريق البحرى على الطرق البرية إلا أنه لم يكن بمأمن عن القرصان الذين هددوا هذا الطريق ، وتشير احدى رسائل الجنيزة إلى الاعتداءات المتكررة من الهجمات التى كان يشنها النورمان على السفن الاسلامية ، ونهب وسبى معظم ركابها (٣) ، وتصف لنا وثيقة جنيزة فى الخمسينات من القرن الحادى عشر تعرض سفينة كانت مبحرة من المهدية طريق المزارة فى صقلية إلى الاسكندرية إلى هجوم من النورمان ، استولوا فيه على كل الملبوسات ، وتركوا مائة قربة زيت ، لأنها كانت ثقيلة عليهم (٤) .

كل ذلك حدا ببنى زيرى وبنى حماد إلى ممارسة الغزو البحرى ضد مراكب النورمان ، للدفاع عن موانيهم ومدنهم الساحلية التى أصبحت عرضة للهجوم ، ويصف أحد الباحثين (٥) عاصمة بنى حماد بقوله «من أهم عواصم القرصنة مدينة بجاية» ، وباحتلال النورمان لمدن الساحل الافريقى والاجهاز على دولة بنى زيرى ،

---

(١) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق / ٢٥٢ .
(٢) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى / ٢١٨ .
(٣) Goitein : A Mediterranean, 1, PP. 308, 330.
(٤) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى / ٢٣٧ حاشية رقم (٢) .
(٥) جورج مارسيه : بلاد المغرب / ٢٦١ .

عاد الحوضان الأوسط والغربى للبحر الأبيض إلى منطقة النفوذ الأوربية (١) ، بعد أن كان هذا البحر فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى بحرا عربيا ، ولم يكن لأوربا سلطان عليه (٢) ، وأصبحت سفن جنوه تقوم بدور الوسيط فى النقل البحرى هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان يفضل المغاربة الحجاج منهم والتجار طريق عكا على طريق مصر نتيجة لما كانوا يلاقونه من ضيق وعنت من السلطات الفاطمية فى الموانىء المصرية (٣) ، وليس أدل على ذلك من المعاناة وقسوة المعاملة التى لاقاها الرحالة ابن جبير فى مصر أثناء رحلته إلى المشرق ، مما حمله على الاقتناع بالعودة عن طريق عكا (٤) .

وصفوة القول أن الطرق التجارية بين مصر والمغرب تأثرت تأثرا كبيراً بالتغييرات التى طرأت على الخريطة السياسية لدول المغرب ابتداءً من النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، من هجرة بنى هلال وقيام دولة المرابطين ، واحتلال النورمان لسواحل الدولة الزيرية ، وضعف الدولة الفاطمية ، ثم قيام الحروب الصليبية ، كل هذه العوامل مجتمعة انعكست على طرق التجارة التى تتطلب الأمن فى المقام الأول ، مما قلل من حجم حركة السلع ، وتحول مركز الثقل فى تجارة البحر المتوسط إلى المدن الايطالية ، وكثر استعمال الطريق البحرى الذى يمر بالمدن الايطالية وصقلية حيث يتفرع منها إما إلى الاسكندرية أو إلى عكا (٥) ، وبذلك لم تعد الطرق التجارية تسجل لنا الحجم الهائل للسلع المنقولة بين الدولتين مثل

---

(١) حسين مؤنس : تاريخ المسلمين / ٩٤ .

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية ٢/٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٠/٤١٤ .

(٤) ابن جبير : رحلة ابن جبير / ٤٥ ، ٦٥ .

(٥) ابن جبير : رحلة ابن جبير /٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٣٨ ، بنيامين التطيلى : رحلة بنيامين / ٦٩ ، انظر المقرى : نفح الطيب ٢/٣٨٥ ، ٤٨٨ .

ثانياً : النشاط التجارى :

ازدهرت التجارة فى مصر إبان العصر الفاطمى ، وتمتعت مصر بثراء عظيم ، ويرجع سبب هذا الثراء إلى تجارة الهند والصين التى تحولت عن طريق الخليج الفارسى منذ أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وبذل الفاطميون جهدهم فى المحافظة على هذه التجارة التى أصبح المغرب فيها بحكم مركزه الوسيط همزة الوصل بين أسبانيا وبلاد أوربا وبين مصر ، ونشطت العلاقات التجارية بين مصر وبلاد المغرب نتيجة لخضوعهما إلى سلطة سياسية واحدة ، وازدادت التسهيلات الممنوحة لتجارهما(١) ، بل إن الحجاج المغاربة ظلوا طيلة العهد الفاطمى يسافرون إلى الحجاز عن طريق مصر (٢) ، وأدى ذلك كله الى نشاط الحركة التجارية وازدهارها بين القطرين .

الصادرات المغربية إلى مصر :

تأتى تجارة المنسوجات على رأس السلع المغربية التى كانت ترد إلى مصر من بلاد المغرب ، وقد طلبت لنا وثائق الجنيزة (٣) ، الكثير من المعلومات عن هذه التجارة التى نقلتها إلينا المصادر العربية .

فكانت المنسوجات الكتانية من مختلف الأشكال ، وبصفة خاصة منسوجات سوسة(٤) ، التى بلغت شهرة واسعة ، ومنها الأقمشة السوسية الموشاة بالذهب التى

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، /٦١٣ ، راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين . / ٢٣٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ٢٠٢/١ ، انظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، / ٦١٣ .

(٣) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، /١٧٢ .

(٤) Mas Latrie,: Relations et commerce, P.22.

* سوسة : مدينة بتونس على ساحل البحر ، وهى مخصوصة بالثياب الرقيقة السوسية من طراز وكمد ، لا يصدع ببلد مثل صنعته ، يحمله التجار إلى جميع البلاد شرقا وغربا . (أنظر : مؤلف مجهول : الاستبصار ، /١١٩ ـ ١٢٠ الحميرى : الروض المعطار ، /٣٣١) .

اشتملت عليها هدايا أمراء بنى زيرى للخلفاء الفاطميين فى القاهرة (١) ، وعن سوسة يقول البكرى (٢) : « فكان يغزل بها غزل يباع زنة المثقال منه بمثقالين من ذهب .. كما كانت تقصر فى هذه المدينة ثياب القيروان الرفيعة » .

وعلى الرغم من تقدم صناعة المنسوجات فى مصر ، إلا أن الأقمشة السوسية كانت من بين الواردات المصرية ، وكان عليها طلب كبير ، وأصبح لها سوق فى القاهرة عرف بسوق السوسيات (٣) .

أما الحرير فيمثل بكل أنواعه وأشكاله أهمية بارزة فى السلع المجلوبة من المغرب وانفردت قابس بانتاجه (٤) ، وحريرها أطيب الحرير وأرقه (٥) ، ويبدو أنه كان يدخل فى تجارة الحرير حرير الأندلس ، الذى كان يعاد تصديره إلى مصر من موانىء المغرب ، يتجلى ذلك مما ورد فى أحد خطابات الجنيزة المؤرخ بتاريخ ٢٩ شوال سنة ٥٢٣هـ/ ١٠ أكتوبر ١١٣٨ م من تاجر مقيم بالمرية إلى أحد أقاربه بتلمسان ، وفى الخطاب يتحدث عن أصناف الحرير فى سوق المرية بالأندلس (٦) « كنت أبلغتكم بأننى تسلمت المائة مثقال المرسلة منكم من فارس ، وقد طلب منى أشترى بالمبلغ حريرا ، والواقع أن سعر الحرير كان معقولا ، لذلك اشتريت حرير بخمسين مثقالا» (٧) .

---

(١) القاضى الرشيد : الذخائر والتحف ، / ٦٩ ، ابن عذارى : البيان ، ١/٣٧٥ ، انظر : جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى والنظم الاسلامية ، / ١٧٢ .

(٢) البكرى : المغرب فى ذكرى بلاد إفريقية ، / ٣٢٦ .

(٣) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، /١٧٢

(٤) البكرى : المغرب . /١٧

(٥) مؤلف مجهول : الاستبصار ، /١٧٣ .

(٦) Coitein, S.D.,: Letters of Medieval Jewish Traders, PP. 261 - 263.
انظر : أمين الطيبى : جوانب من النشاط الاقتصادى فى المغرب ، منشورات جامعة الفاتح / ليبيا ١٩٨٤م ، / ٤٦٨ .

(٧) المثقال : لغة كل ما يوزن به قليلاً أو كثيراً ، وشرعاً قدر مخصوص يزن $22\frac{6}{7}$ قيراطاً ، فالمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم ، ووزنه ٤٤ر٤ جرام . (محمد محمود خطاب السبكى : الدين الخالص ، القاهرة ١٩٥٠ ، ٨/١٣٩ .

كما كان يرد من قفصة إلى مصر نوع خاص من النسيج يسمى الكساء الطراقى [١] ، وهو أساس قطع الصوف الكبيرة التى تنسج الآن فى هذه المنطقة [٢] ، كذلك الجوخ التى اشتهرت به صفاقس ، وعمل أهلها فى القصارة والكمادة (صبغ الثياب) كعمل أهل الاسكندرية وأكثر وأجود، [٣] ، ويصف الحسن بن الوزان أهل صفاقس بقوله[٤] : « وغالبية سكانها من الحاكة ... يذهب بعضهم لمزاولة التجارة فى مصر » ، ويبدو أن هذه الصناعة نقلت أساسا من الاسكندرية [٥].

كما اشتملت واردات مصر من بلاد المغرب ، على القماش الأشقر ، والفوط الحمراء وجباب الخز التى انتشرت صناعتها فى طرابلس واجدابيا [٦]، نستشف ذلك مما أوردته إحدى رسائل الجنيزة التى تعود لأواخر القرن الحادس عشر الميلادى[٧] ، نورد منها بعض الفقرات : « .. القماش الأشقر- درجة أولى- يساوى ٤٤ دينار على الأكثر، والأصناف الأخرى أقل من ٤ ، الفوط غير المقصرة ٧ دينار للعشرة ، وأما الفوط الحمراء فليس عليها طلب .. كلمت أبا سعد عن الأقمشة التى أحضرتها من المغرب ، فقال إنه أوصى باحضارها إلى هنا (الفسطاط) .... جباب الخز لا تساوى شيئا فالجبة تباع بأقل من أربعة دنانير ، الرجا اعلام أبى الحسن بذلك » ، ولا شك أن تلك الأنواع من الأقمشة المذكور فى هذه الرسالة مصدرها المهدية أو سوسة [٨]، ويدخل

---

(١) البكرى : المغرب . /٤٧

(٢) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها . /٢٠٧.

(٣) البكرى : المغرب / ٢٠.

(٤) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا ، / ٤٦٠.

(٥) Mas Latrie: Relations et commerce . P22.

(٦) Mas Latrie : Op. Cit., . P22.

(٧) Goitein : Letters of Medival Jewish , P.241

(٨) أمين الطيبى : جوانب من النشاط الاقتصادى فى المغرب ، / ٤٦٤.

السجاد فى مجال التجارة ، وخاصة النوع الذى عرف باسم (القيلة) أو العرش ، وهو يتكون من قطعتين من لون أخضر ، والتى اشتهرت بانتاجه قابس[١] .

أما تجارة السلع الغذائية ، فيأتى الزيت على رأس قائمة الواردات من هذه السلع ، وكان الزيت يرد إلى مصر من صفاقس التى توصف بأنها غابة كبيرة من الزيتون، وزيتها أطيب من كل زيت إلا الشرقى ومن الناس من يفضله عليه [٢] 'من زيتها يمتار أهل مصر'[٣] .

ويرد إلى مصر من برقة العسل والشمع والتمور الواصلة إليها من واحة أوجلة [٤]، واللوز من تونس [٥] ، والفستق من قفصة وهى ' أكثر البلاد فستقا ، حتى اننى أظن أنه ليس بافريقية فستق إلا فيها ، ومنها يجلب إلى إفريقية وبلاد المغرب ، وبلاد الأندلس وبلاد مصر'[٦] ، ومما يجدر ذكره أن الفاطميين أدخلوا تقليدا جديدا فى البلاد وهو توزيع الفطرة من اللوز والجوز والفستق وغيرها [٧]، كما اشتملت واردات مصر على الحبوب خاصة القمح والشعير[٨] ، وربما كان ذلك يحدث فى أوقات القحط عندما يكون النيل منخفضاً ، وتشح المحاصيل[٩] ، كما كان يرد إلى مصر من بلاد المغرب القنب والقطن ، الذى يحمل إلى تونس من القيروان ثم يصدر إلى مصر[١٠] .

---

(١) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، / ٢٣٩ .

(٢) مؤلف مجهول : الاستبصار ، / ١١٦ ، الحميرى : الروض المعطار ، / ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٣) البكرى : المغرب . / ٢٠

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض . / ٦٩، الادريسى : صفة المغرب ، / ١٣١

(٥) البكرى : المغرب ، / ٤١ ، مؤلف مجهول : الاستبصار . / ١٢١

(٦) مؤلف مجهول : الاستبصار ، / ١٥٣ ، ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، / ١٢٦ .

(٧) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، / ٢٦١ .

(٨) ابن حوقل : صورة الأرض ، / ٧٤ – ٧٦ .

(٩) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، / ٢٤٠ .

(١٠) ابن حوقل : صورة الأرض / ٧٤ .

أما الحيوانات الحية وجلودها ، فكانت واحدة من الواردات الأساسية التى كانت تجلب الى مصر من بلاد المغرب ، فعن برقة يقول البكرى [1] ، وأكثر ذبايح أهل مصر منها ويحمل منها إلى مصر الصوف والعسل والقطران ، ، وكانت جلود الكتب وأغلفتها تجلب إلى مصر جاهزة ، وذكر عنها فى رسائل الجنيزة أنها كانت مربعة ، وتشير رسالة من منتصف القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى إلى إرسال تسعة جلود حمراء ، وستة جلود سوداء ، وخمسة جلود بيضاء [2] ، فقد انتشرت مدابغ الجلود فى برقة ، وبها ديار لدباغ الجلود البقرية ، والنمور الواصلة إليها من أوجله[3] هذا فضلا عن تونس التى كانت مركزا هاما لصناعة الجلود ، وتصدير المنتجات الجلدية ، فكان يجلب منها الأحذية الجلدية الفاخرة ، وأغلفة الكتب إلى الاسكندرية [4] .

وأما ما يخرجه البحر ، فكان المرجان المنظوم فى عقود ، وغير المنظوم ، وكان يرد من سبته، ولا يعد له صنف من أصناف المرجان المستخرج [5] ، وكان يرد إلى مصر أيضا من مرسى الخرز ، ويصف لنا ابن سعيد [6] طريقة استخراجه ،وهو شجر فى البحر مستحجر ، يخرج أبيض اللون لينا ويعرض للهواء حتى يشتد صلابة ويحمر لونه ، ثم ينقل إلى سوق لتفصيله ، وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه [7] .

---

(١) البكرى : المغرب ، / ٥ ، الحميرى : الروض المعطار ، / ٩١ .

(٢) Goitein , A Mediterranean Society, Vol. I. p. 112.

(٣) الحميرى : الروض المعطار ، / ٩١ .

(٤) Ibid., P.112 .

(٥) الادريسى : صفة المغرب ، / ١٦٨ ، الحميرى : الروض المعطار ، / ٣٠٣ .

(٦) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، / ١٤٣ ، أنظر : ابن حوقل : صورة الأرض . / ٧٦ .

(٧) الادريسى : صفة المغرب . / ١٦٨ .

وتشـــير احـدى رسائل الجنــيزة (١) التـى تعـود لأوائل الـقـرن الســادس الهـجرى / الثانى عشر الميلادى من تاجر بالاسكندرية إلى صديق له بالفسطاط ، نقتبس منها بعض الفقرات : « مرجان تراب (غير منظوم) يـباع اليـوم فـى الصنعه (٢) بمبلغ $\frac{1}{2}$ ١١ دينار ، وبيع بعضه حتى بثمانية دنانير ، بينما ماعندى من مرجان يساوى ٢٠ دينار ، والى الان لم يصل شيء من المرجان لا من بلاد الروم ، ولا من المغرب » .

ويبدو أن أسعار السلع فى الأسواق المصرية كما يتضح من وثائق الجنيزة كانت تتأثر من جراء قلة المعروض منها ، وكثرة الطلب عليها ، فالسعر ما هو إلا نتيجة تفاعل قوى العرض والطلب .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الأسماك كانت ترد إلى مصر من بلاد المغرب بكميات كبيرة (٣) ، وكان السمك أكثر ما يصاد فى المغرب فى السواحل عند تونس وبنزرت وبونه وسبته (٤) .

واستوردت مصر البلور من بلاد المغرب ، وشاهد الرحالة ناصر خسرو(٥) الذى زار مصر سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م فى أسواق الفسطاط قطعا مـن البـلور الواردة من بـلاد المغـرب ، ومن أدوات الزينة ، فكان يـرد إلى مصر الكحـل المغربـى من

---

(١) Goitein: Letters of Medival Jewish, P. 248.

(٢) دار الصنعة ترد فى بعض المصادر المغربية بدلا من دار الصناعة (دار المكوس) بنفس المعنى. انظر : الحلل الموشية ، / ٥٤ ، أمين الطيبى : جوانب من النشاط الاقتصادى ، / ٤٦٧ ، حاشية رقم (٧٨) .

(٣) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى . ٢٤٠.

(٤) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، / ١٠٧ ، ١٢٠ .

(٥) ناصر خسرو : سفر نامه ، القاهرة ١٩٤٥م ، / ٥٩ ، ٦٠ .

المغرب الأقـــصى (١) ، كما كان يرد أيضاً من جبل نفوسه (٢) .

ويمثل الذهب أهم سلعة فى واردات مصر من بلاد المغرب ، وفى ذلك حرص الفاطميون أثناء وجودهم ببلاد المغرب وبعد رحيلهم عنها إلى إرسال الحملات العسكرية المختلفة للقضاء على حركات العصيان فى المغرب الأقصى ، التى لم تكن فى جوهرها تهدف الى السيطرة على مناطق جغرافية جديدة بقدر ما كانت تهدف الى السيطرة على مراكز حساسة تقع على مسالك تجارة الذهب والرقيق مثل سجلماسة - فاس - تاهرت - بلاد الزاب ، أو السيطرة على مدن المرافىء المرتبطة بالتجارة الصحراوية (٣) ، وليس أدل على ذلك من الثروة الذهبية الضخمة التى تجمعت فى خزائن الدولة الفاطمية ، ولا سيما فى العصر الفاطمى الأول ، وليس من المبالغة فى شىء اذا ذهبنا إلى أن الازدهار الاقصادى الذى عرفته مصر أثناء الحكم الفاطمى هو ازدهار وثيق الارتباط بذهب بلاد المغرب الذى ظل طيلة تبعية المغرب لمصر سيلاً دافقا للبلاد المصرية(٤) كما تدفقت العملات الذهبية والفضية وخاصة من تونس ثمنا للبضائع الواردة من بلاد المشرق (٥) ، هذا فضلا عن كميات الفضة التى وردت إلى مصر فى سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١م (٦) .

---

(١) أمين الطيبى : جوانب من النشاط الاقتصادى ، / ٤٧٢ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض . / ٧١

(٣) الحبيب الجنحانى : دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمغرب الاسلامى . /١٦٨ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا . ١ / ١٤٤ ، انظر : سليمان زبيس : تاريخ القاهرة الاقتصادى ، / ٣١ .

(٥) Goitein: The Exchange of gold and silver money in fatimids and Ayyubid times (Journal of Economic and Social History of the Orient)1965, V, 111, PP. 45 - 46 .

(٦) Goitein, A Mediterranean Society, V,I , P. 235

أما الرقيق فقد ظلت مصر سوقاً عظيمة الرواج لتجارته فى العصور الوسطى وكان الاقبال على اقتنائهم شديدا سواء من قبل الأهالى أو حكام البلاد (١) ، وكانت طرابلس الواقعة على رأس إحدى الطرق المؤدية إلى السودان مركزا لتجارة الرقيق من الزنوج والبيض معاً ، ومنها كانوا يرسلون إلى أسواق الشرق الاسلامى (٢) ، كما تعد زويلة مركزا هاما لهذه التجارة ، وكانت تزود السوق الأفريقية بها « ... ويجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية افريقية» (٣) أما سجلماسة ، فقد كانت مركزا من المراكز الهامة لهذه التجارة ، وهى بلاد نخل وعبيد ، ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وإفريقية ، والسفر منها فى الصحراء إلى بلاد السودان كثير (٤) .

وفى الواقع ساعد عامل البذخ والترف ، وانتشار الثراء بين الناس فى العصر الفاطمى على الاستكثار من هذه السلعة الآدمية ، وأكثرت أم المستنصر بالله من استجلاب السود حتى بلغ عددهم خمسين ألفا (٥) ، والسبب فى ذلك أن أم المستنصر كانت جارية سوداء ، فأحبت الاستكثار من بنى جنسها واشترتهم من كل مكان (٦) ، بالاضافة إلى ذلك فإن بعض الأسر المصرية كانت من بين ممتلكاتها بعض العبيد(٧) وكان سوق الرقيق من الأسواق الدائبة الحركة والنشاط فى العصر الفاطمى ،

---

(١) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، /٢٥٨

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ./ ٧٢ ، : انظر : أرشيبالد لويس : القوى البحرية ، / ٣٣٠.
Mas Latrie, Relations, p. 23

(٣) البكرى : المغرب ، / ١١ .

(٤) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، / ١٢٦ .

(٥) المقريزى : الخطط ، ٩٤/١.

(٦) المقريزى : الخطط ، / ٣٣٥ ، اتعاظ الحنفا ٢٦٦/٢. ، ٢٦٧ .

(٧) جروهمان : أوراق البردى العربية ، ٦٧/١ .

« راجع وثيقة عتق جارية مؤرخة فى رمضان سنة ٣٩٣هـ » .

وكان يحوى أجناساً متعددة من العبيد ، ولكن العدد الأكبر منهم كان من العبيد السود الذين يجلبون من بلاد النوبة [١] .

ويبدو أن الناس كانوا يزدحمون فى سوق الرقيق للفرجة ، مما حمل الخليفة الحاكم إلى اصدار قرار بتخصيص يوم لبيع الجوارى ، ويوم لبيع الغلمان ، كما اشترط على من يذهب إلى سوق الرقيق إما أن يكون بائعاً أو مشترياً [٢] .

ولم يقتصر التبادل التجارى على هذه السلع بل تعداها إلى سلع أخرى ، فقد كان يرد إلى مصر من بلاد المغرب الحديد والزعفران الذى كان يحمل من بونة والاربس (بالقرب من كتامة) إلى مصر[٣] .

وكان من بين هذه الواردات التحف الفنية ، والأوانى الخزفية ، وتوجد ربعة صغيرة فى متحف مدريد تحمل كتابة مرصعة بالعاج ، تفيد أنها صنعت فى صبرة (المنصورية) ، وأنها صنعت برسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، يفيدنا وجود هذه التحفة الفريدة أن مثلها قد كان يصنع فى القيروان بالعشرات ، وأن البعض منه قد نقل إلى مصر فى حقائب جوهر ، وحقائب المعز ، ومع بعض التجار [٤] ، وكانت قصور الخلفاء الفاطميين تحتوى على الكثير من التحف النادرة من الذهب والجوهر والنفائس من كل صنف التى أسهب المؤرخون فى وصفها [٥] .

وكانت صناعة الخزف مزدهرة فى صبرة وتونس وقد كشفت الآثار عن شقف

---

(١) بنيامن التطيلى : رحلة بنيامين التطيلى ، بغداد ١٩٤٥م ، /١٧٠ .

(٢) ابن سعيد : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة ، ٦١ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ،/ ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ . الادريسى : صفة المغرب ، /١٧٧ .

(٤) سليمان مصطفى زبيس : تاريخ القاهرة الاقتصادى . /٣٣ .

(٥) القاضى الرشيد : الذخائر والتحف ، /٦٧ .

يعود إلى القرن العاشر والحادى عشر من الميلاد (١) ، مما يؤكد قول البكرى (٢)... ويصنع بتونس آنية للماء من الخزف تعرف بالريحية شديدة البياض فى نهاية الرقة تكاد تشف » .

ويبدو أن مراكز صناعة الخزف كانت منتشرة فى كثير من بلاد المغرب ، فيصف الحسن بن الوزان (٣) أهل سوسة بقوله : « معظمهم بحارة ... و يتألف بقية السكان من حاكة وخزافين ويصنع هؤلاء أباريق ودوارق وقماقم ، وكل أنواع الخزف غير المطلية » .

وأخيرا يأتى دور الكتب ، وكان هذا أمراً مميزا للواردات المصرية من بلاد المغرب، ولقد كان تجار الكتب شغوفين بأن يضموا لمكتباتهم أشهر كتب العلماء ، وكان من الطبيعى ان تكون الكتب من مقتنيات قصور الخلفاء والوزراء الفاطميين ، فقد ولع الخلفاء والوزراء باقتناء الكتب الخطية النادرة فى مختلف العلوم ، وفاقت مكتبة القصر فى القاهرة غيرها من مكتبات العالم الاسلامى (٤) ، وورد فى كتاب الذخائر والتحف من ضمن ماوجد فى ثروة الأستاذ أبى الفتوح برجوان العزيزى حين قتله الحاكم فى سنة ٣٩٠هـ/٩٩٩م الكثير من الكتب المصورة ، وكتب الأغانى ، وفى رسالة من رسائل الجنيزة يذكر تاجر من المهدية بأن الحياة فى تونس أصبحت لا تطاق ، وأن الشيء الوحيد الذى جعله يظل باقيا هناك هو أمله فى احراز بعض الكتب النادرة من مكتبات كبار العلماء الذين كانوا يعيشون فى ذلك القطر(٥) .

---

(١) جورج مارسيه : علاقات المغرب ./٢٠٨ .

(٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ،/ ٢٥ .

(٣) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا ،/ ٤٥٦ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ،/٤٣٢ .

(٥) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ،/٢٤١ .

ويبدو مما سبق ذكره ، أن استيراد مصر لهذه السلع كان يعكس مطالب المغاربة الذين يقطنون مصر فى ذلك الوقت ، وهم يمثلون بلا شك شريحة كبيرة من المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى، كما أن بعض الأسواق المصرية فى داخل الفسطاط كان يسمى بأسماء العناصر التى استقرت بالمدينة للتجارة مثل سوق المغاربة ، وسوق البربر [١]، كما نقف من خلال هذه السلع على حالة الرخاء والازدهار التى كانت عليه دول المغرب ، والنشاط التجارى الذى ترتب عليه قيام مراكز تجارية هامة على الساحل مثل طرابلس وتونس وصفاقس وسوسة وقابس ، فضلا عن المراكز التجارية الهامة التى كانت تقع على الواجهة الصحراوية ، وتمد حركة التبادل التجارى بسلعتين ثمينتين من سلع العصر وهما الذهب والرقيق [٢] .

---

(١) ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد المصرى (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، بولاق ١٣٠٩ هـ ، ٣٢/٤ ، ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) الحبيب الجنحانى : دراسات فى التاريخ الاقتصادى ، ١١٢/ .

الصادرات المصرية إلى المغرب :

أما عن صادرات مصر إلى بلاد المغرب ، فكان قماش البوقلمون - الذى ينسج فى تنيس[1] وهو قماش لا ينسج فى مكان آخر من جميع العالم ، وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار[2] ، وقد انفردت تنيس بصناعة الثياب المعروفة باسم الشروب[3]، التى لا يصنع مثلها فى أى مكان آخر داخل مصر وخارجها، وكان يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنه، لا يدخل فيه من الغزل - سداء ولحمة - غير أوقيتين ، وينسج ما فيه بالذهب بطريقة لا يحتاج بعد ذلك إلى تفصيل أو خياطة ، وكان قيمة الثوب من هذا النوع ألف دينار [4] ويشير الكندى [5] بما وصلت إليه تنيس فى مجال صناعة النسيج بقوله : « وليس فى الدنيا منزل إلا وفيه ثوب من تنيس » وكانت تشتمل هدايا الخلفاء الفاطميين لأمراء بنى زيرى على الحلل الفاخرة ، والفرش من أعمال تنيس ودمياط وتونة [6] ، كما كانت مصر تصدر أيضاً الأقمشة المذهبة

---

(١) جزيرة ومدينة مصرية بعيدة عن الساحل ، وهى مزدحمة بالأسواق ، وذكر ناصر خسرو أن عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان ، ومنها مائة دكان عطار ، وذكر ابن بسام التنيسى انه كان بها حتى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ٢٥٠٠ حانوت ، ١٠٠ معصرة ، ١٥٠ دكان تبيع البز والثياب وبها ٥٠٠٠ منسج ، يبلغ عدد عمالها عشرة آلاف عامل ، ويذكر المقريزى أن أهلها مياسير تجار وأكثرهم حاكة (أنظر : ناصر خسرو : سفر نامة ، / ٣٨ ، ابن بسام التنيسى : الأنيس الجليس فى أخبار تنيس ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٨٥٢أدب ، ٤١٤٥ معارف عمومية ، ورقة ٧١ ب ، ٧٢ أ ، المقريزى : الخطط ١ /١٧٧) .

(٢) ناصر خسرو: سفر نامة ، /٣٨.

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ٨٦/٤.

(٤) المقريزى : الخطط ، ١٧٧/١.

(٥) ابن الكندى ، عمر بن محمد بن يوسف (ت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) : فضائل مصر القاهرة ١٩٧١م ، / ٦٧ .

(٦) القاضى الرشيد : الذخائر والتحف ، / ٧٠

المنقوشة والملونه التى اشتهرت بها تنيس ودمياط [١] .

على أن هناك احدى الصادرات التى فاقت فى كميتها وفى قيمتها غيرها من السلع المصدرة ألا وهى الكتان المصرى ، الذى تظهر فيه أكثر من سبعة عشر نوعا فى اوراق الجنيزة وكان الكتان الخام هو السلعة المعتاد شحنها الى تونس ، حتى أننا نجد فى احدى رسائل الجنيزة [٢] ما نصه « إنى أرسل لك عدولاً (بالات) كثيرة ، دون أن أحدد لك ما هو موجود بها ..... » ، ومن الطبيعى أن ما بها هو كتان ، فقد كانت تعتمد عليه صناعة السوسيات ، وهو بذلك يعاد تصديره إلى مصر ، بعد تصنيعه فى مراكز صناعة الكتان بسوسة ، ولذلك جاء من تونس كثير من التجار ، ولم يستقروا فقط فى الفسطاط والاسكندرية ، أو فى مراكز صناعة الكتان الشهيرة فى مدينتى بوصير وتنيس ، ولكن فى أماكن زراعة الكتان وانتاجه [٣] وتتضمن وثائق الجنيزة معلومات وفيرة وخصبة عن تجارة الكتان وفى رسالة أرسلت حوالى سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م إلى تاجر تونسى مقيم فى الفسطاط ، فإن كاتب الرسالة ذكر له أنه كان يبيع أربع بالات من الكتان المصرى كل يوم [٤] ، ويتضح لنا من هذه الرسالة شدة الطلب على هذه السلعة .

ويندرج تحت قائمة الصادرات المصرية الى بلاد المغرب التوابل والبخور ، والعطور التى كانت ترد إلى مصر من بلدان الشرق الأقصى ، عن طريق ميناء عيذاب ، ثم تنقل إلى مدينة الفسطاط ومنها إلى الاسكندرية ، حيث ينقلها التجار المغاربة إلى بلادهم [٥] ، فقد عمرت أسواق القاهرة بحاصلات تجارة الشرق ، ومن

---

(١) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، / ٥٠ .

(٢) جواتين دراسات فى التاريخ الاسلامى ، / ٢٤٢ ، { العدل الواحد = ٥٠٠ رطل } .

(٣) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، / ٢٢٩ .

(٤) Goitein : A Mediterranean, V.1. p, 203.

(٥) المقريزى : الخطط ، ٢٠٢/١ .

هذه الحاصلات كان يستهلك جزء فى مصر محليا ، والباقى يباع للتجار الأجانب الذين كانوا يتسابقون إلى شراء هذه الحاصلات (١) .

والواقع أن مصر كانت مستودعاً للتجارة بين أوربا والهند وجزيرة العرب ، وأن جميع سلع الشرق كانت تمر عن طريق الاسكندرية إلى المغرب (٢) ، وتحتل التوابل مركزا رئيسياً فى المواد المستوردة من الشرق ، لدخولها فى طعام مختلف الطبقات(٣)، وكان الفلفل أكثر هذه التوابل طلبا ، وارتفع ثمنه ارتفاعاً هائلاً ، وأشهر مناطق انتاجه مجموعة جزر جنوب شرق آسيا ، والهند (٤)، والفلفل نوعان الأسود وهو الحريف ، يدخل فى الأغذية ، والأبيض ويدخل فى صناعة الأدوية (٥)، وكانت مصر تجنى أرباحا طائلة من وراء هذه التجارة ، وكان الفلفل والقرفة يردان بكميات كبيرة ، إلي ثغرعيذاب (٦) وبلغ من كثرتها أنها كانت «لا يعترض لها أحد إلي أن

(١) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ، /٢٥٥ .

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب . / ٢٤٢ .

(٣) محمد أمين صالح : التنظيمات الحكومية لتجارة مصر ، / ٥٧ .

(٤) شوقى عبد القوى عثمان : تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الاسلامية ، / ٢١٥ .

(٥) الدمشقى أبو الفضل جعفر بن على (ت ٧٢٧هـ) : الاشارة إلى محاسن التجارة ، القاهرة ١٣١٨هـ ، / ٤١ .

(٦) عيذاب مدينة على ساحل البحر الأحمر ، وبينها وبين أسوان مائتا فرسخ ، ولعل أول استخدام لمرفأ عيذاب يعود إلى عصر البطالمة ، ولكن الخمول لازمها لقرون عديدة ،إلى أن تحولت طرق التجارة الشرقية من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر بفضل جهود الخلفاء الفاطميين ، واستشرقت عيذاب عصراً زاهراً ارتقى بها إلى مصاف المرافىء العالمية ولعل فيما خلفه عنها الرحالة ناصر خسرو خير دليل وأصدق شهادة ، فقد زارها فى ربيع الأول سنة ٤٤٢هـ/ أغسطس١٠٥٠م ، وذكر أن بها مسجد جمعة ، وسكانها خمسمائة وهى تابعة لسلطان مصر ، وفيها تحصل المكوس على السفن الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن -

انظر : ناصر خسرو: سفر نامه ، / ٧٢ ، ٧٣، مؤلف مجهول : الاستبصار ./٨٧ ، وعن تاريخ عيذاب : انظر : احمد السيد دراج : عيذاب ، مجلة نهضة افريقيا ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٥٨ ، بشير ابراهيم بشير : عيذاب حياتها الدينية والأدبية ، مجلة الدراسات السودانية العدد الثالث / يوليو /١٩٧٩م ، ٥٤ـ ٨٤ .

يأخذها صاحبها»(١).

وكان للفلفل أسواق رائجة في بلاد المغرب ، ويذكر لنا ابن حوقل (٢) ، الذى زار برقة في القرن الرابع الهجرى أن أسواقها مليئة ببضائع الشرق ، يذكر من بينها الفلفل، ورأى هناك حركة كبيرة للتجار المشتغلين بهذه التجارة (٣) .

كما كان الطلب في بلاد المغرب شديداً علي الدارصينى (القرفة) ، التي تنبت ببلاد الصين والملايو والحبشة (٤) ، ثم القرنفل الذى كان يأتى من ملقا وسومطرة ، ويصل ثمنه إلى ثلاثة أضعاف ثمن الفلفل لا ستخدامه في الغذاء والدواء ، هذا فضلاً عن جوزة الطيب ، والزنجبيل الذى يحتل مكانا بين الكماليات بعد الفلفل (٥) .

كان أمراء بنى زيرى يقدرون المنتجات الإسيوية حق قدرها، وأتاح الرخاء الذى شاع بصفة عامة فى هذه البلاد لعدد كبير من الأفراد أن يستمتعوا بهذه المنتجات ، وأسهمت الصادرات المصرية إلى ثغور إفريقية فى سد مطالب هؤلاء (٦)،كما كان من ضمن هذه الصادرات أخشاب الهند الثمينة التى كانت تدخل فى بلاد البربر ، وكان لهذه الأخشاب طلب كبير فى قصور بنى زيرى ، فيذكر ابن عذارى (٧) ، أن أم المعز ابن باديس وضعت بعد وفاتها فى تابوت من عود هندى رصع بالجواهر ، ومسامير الذهب .

---

(١) المقريزى : الخطط ،١/٢٠٢ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، /٦١٥

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، /٦٩.

(٣) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، /٦٥، ٦٦

(٤) شوقى عبد القوى• : تجارة المحيط الهندى ، /٢١٧.

(٥)محمد أمين صالح : التنظيمات الحكومية ، /٥٧.

(٦) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، /٦٦.

(٧) ابن عذارى : البيان ، ١/ ٣٩٠، انظر : ابن خلدون ، العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى ، /٣٢٤ .

كمـا كـانت الصـادرات تشـتـمل على العطور والأبزاز ، وخـشب السـاج والجـوهر والياقوت والعقيق (١) فضـلا عن المعادن النفيسـة خـاصـة معدن الزمـرد الذى كـان يستـخرج من صحـراء قوص (٢) ، والذى ليس له نظيـر فى سـائر أقطار الأرض (٣) ، وكـان من بين أنواع الزمـرد ، نوع يعرف بالمغـربى ، ويعلل صـاحب الاستبـصـار(٤) تسميته بالمغربى بقوله « لأن ملوك المغرب والافرنج والأندلس يتنافسون فيه » .

وتصـدر مصـر إلى المغرب بعض خامـات تصنيع الجـواهر مـثل اللؤلؤ والأحـجار الكريمة ، والفـيروز ، وبعض أصناف الأصـداف الصـغـيرة (٥) ، وهـذا بالاضـافـة إلى المروالمسك والكافور التى اشتد عليها الطلب فى بلاد المغرب (٦).

كذلك تضم هذه الصـادرات بعض المواد الأولية المسـتـخدمة فى الصـناعات مثل مواد الصباغة والدباغة كالبقم واللك (٧) ، والنيلة ، ونظرا لشهرة بلاد المغرب بصناعة المنسوجات فقد ازداد الطلب على هذه المواد ، يتجلى ذلك مما أوردته احدى رسائل الجنيزة عن التاجر اليهودى عروس بن يوسف الذى تخصص فى صباغة الملابس الأرجوانية ، وكان يعيش فى الفسطاط ، حيث أرسل شحنة من الأرجوان - وهى مادة للصبـاغة - فى سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م من الفسطاط إلى صفـاقس ، كما كـانت تصدر

---

(١) سليمان مصطفى زبيس : تاريخ القاهرة الاقتصادى ، /٣٥.

(٢) المقريزى : الخطط ، ١/١٩٤.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ٣/٢٨٦ ، وقارن الدمشقى : الاشارة إلى محاسن التجارة ، /١٥.

(٤) مؤلف مجهول : الاستبصار ، /٨٦.

(٥) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، ٤٢١، ٤٢٢

(٦) نفس المصدر . /٢٤١

(٧) اللك : مادة للصباغة توجد من عدة أشجار فى جزر الهند الشرقية والهند ، وقد جاء فى إحدى رسائل الجنيزة { اشتريت بهاراً شكارة تزن ٣٠٠ رطل من اللك وكمية معبأة من الأرجوان }
Goitein : Letters, p. 237.

مصر إلى المغرب بعض المواد الكيماوية وأهمها ملح الأمونيوم (١).

اشتهرت مصر بصناعة الورق من نبات البردى الذى كان ينمو طبيعيا فى مستنقعات الدلتا والفيوم(٢)، ولعل مصر كانت تصدر الورق إلى بلاد المغرب (٣)، أما عن المواد الغذائية فكان أهمهاالسكر الذى كانت تصدره مصر إلى بلاد المغرب (٤).

وكانت الدولة الفاطمية تهتم بصناعة السكر الذى انتشرت مصانعه فى مصر (٥) ، وكان من بين صادرات مصر إلى المغرب الملح (٦)، كذلك ماء الورد (٧)، وزيت الياسمين الذى اشتهرت دمياط باستخراجة من الياسمين (٨)، وشاهد ناصر خسرو فى أسواق الفسطاط العديد من أنواع الزهور مثل الرياحين والورد الأحمر والنيلوفر والنرجس ، والياسمين والريحان الملكى والعطر (٩).

أما الخزف فلم يفت أهل مصر نوع من أنواع فنونه ، فمنه المطلى طلاء بالذهب له بريق المعدن ومنه الأوانى الشفافه ، ومنه الأقداح والأزيار المنقوشة ، وعلب البخور، والعطور المحلاة بمختلف الزخارف ، « ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والنظافة ويبيعونها بالوزن (١٠) » ... فقد كانت القاهرة تجمع جمهرة من الصناعات

---

(١) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، /٢٤١

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ٣/٣٠٧.

(٣) حورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب، /٢١٨ .

(٤) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، /٢٤٢ .

(٥) المقريزى : الخطط، ١/١٠٥ .

(٦) البكرى: المغرب فى ذكر افريقية ،/٥، ١٥

(٧) مؤلف مجهول : الاستبصار،/١٥٤ .

(٨)حورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب،/ ٢٢١ .

(٩) ناصر خسرو: سفر نامه، / ٦٠، المقريزى: الخطط، ١/٣٦٨ .

(١٠) نفس المصدر،/ ٦٠

الدقيقة التى كان لانتاجها رواج عظيم فى الخارج وفى المغرب بصفة خاصة ، فكان ذلك مادة ثراء خارق للبلاد ومادة مبادلة تجنى من ورائها السلع المحتاجة إليها[١].

ومن المرجح أن هذه الصناعات الفنية كانت ضمن السلع المتبادلة ، التى عرفت طريقها إلي قصور بني زيرى المليئة بحياة البذخ والرخاء نتيجة لعوامل الازدهار الاقتصادى والحضارى التى كانت تحياها البلاد [٢] .

كما شجع الفاطميون التجار المغاربة على القدوم إلى مصر للاستفادة من خبرتهم التجارية ، فضلا عن أنهم كانوا ملاحين مهرة ، يقول المقريزى [٣] : «فذلك وقف عليهم لمعرفتهم بمعاناة البحر» ، ومن المرجح أنهم شاركوا بدور فعال فى تجارة الكارم[٤] ، التى احتكرت تجارة الهند

---

(١) سليمان مصطفى زبيس: تاريخ القاهرة الاقتصادى، /٣٤

(٢) احمد بن عامر : الدولة الصنهاجية /٥٧.

(٣) المقريزى : الخطط . ٣٦٨/١ .

(٤) تنسب تجارة الكارم إلى «الكارمية» ، وهم كما حدثتنا عنهم وثائق الجنيزة فئة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل ، وما إليها من السلع الأخرى ، وكان مركز نشاطهم فى المحيط الهندى ، ويذكر صبحى لبيب أنه كان فى القاهرة سوق مشهور للعنبر أو الكارم ، إذ لايكاد يوجد بأرض مصر امرأة وان سفلت إلا ولها قلادة من العنبر الأصفر أو الكارم ، وإذا كان هذا الكارم احدى السلع التى استجلبها الكارمية ضمن ما استجلبوه إلى مصر، فمن الجائز أن ترد نسبتهم إلى هذه السلعة (صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥٢م /٦ ، ٧)؛ وآخر الدراسات عن نشأة الكارم هى التى قام بها المستشرق «جواتين» ، وأثبت فيها نشاط هؤلاء التجار فى العهد الفاطمى ، ويروى جواتين أنه الكلمة (الكارم) تسبق بأداة تعريف فهى لا تعنى اسماً صحيحاً ، ولكنها على الأرجح إسماً عاماً ، فليست هنال فى العربية كلمة تحمل معنى يتصل بنشاط الكارم ، ومازال مجال البحث عن أصل التسمية مفتوحاً . (لمزيد من التفاصيل : انظر : صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، /٩١ - ٩٢ ، جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، /٢٨٩ ، ٢٩٠) .

والشرق الأقصى[1] ، وبتزايد التبادل التجارى ووضوح أهميته الاقتصادية تزايدت أهمية المدن والموانىء البحرية ، التى كانت عبارة عن مراكز تجارية ضخمة تتجمع فيها منتجات الداخل بالاضافة إلى منتجات المناطق التى تفد منها السفن التجارية ، كان طبيعيا أن توجد فيها أسواق ضخمة للبيع والشراء ، فأصبحت برقة سوقا للسلع والمنتجات المصرية ، « .. وهى أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان ، وبها من التجار وكثرة الغرباء فى كل وقت مالا ينقطع طلابا لما فيها من التجارة »[2] كما أصبحت الاسكندرية سوقا للسلع والمنتجات المغربية ، فكانت السفن المصرية تفد إلى المهدية ، وتحمل متاجر المغرب إلى الاسكندرية[3] .

على أن علاقة الفاطميين التجارية ببنى حماد لم تنقطع ، بل انها ازدهرت على حساب أبناء عمومتهم بنى زيرى ، نتيجة لتوطيد علاقاتهم مع الفاطميين وابقائهم على العملة تابعة لهم إلى آخر عهد الأمير يحيى آخر أمرائهم [4] ، وشهدت مناطقهم الساحلية ازدهارا تجاريا ، اذ انتقلت التجارة إلى أملاكهم ، فالهروب الذى أخلى القيروان والمدن الزيرية ، دفع بالتجار والصناع أن ييمموا وجوههم صوب القلعة عاصمة الدولة الحمادية ، وشهدت بذلك القلعة ازدهاراً اقتصادياً ، كان مستبعدا بحكم وضعها الجغرافى[5] ، فأصبحت اليوم «مقصد التجار .» وبها تحل الرحال من العراق

---

(١) صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، / ٧ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، /٦٩ ، انظر : هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى ، /٦٦ .

(٣) البكرى : المغرب ، / ٣٠ ،

(٤) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى / ٢٦٣ ، عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد / ٣٠١ .

(٥) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق ، / ٢٢٨ .
Mas Latrie : Relations, PP. 57 - 59 .

والحجاز ومصر والشام ، وساير بلاد المغرب »[١] .

ويتفق الجغرافيون والمؤرخون على أن الحماديين نشطوا فى مجال التجارة الخارجية ، فالادريسى [٢] يقول عن بجاية« .. والسفن إليها مقلعة ، وبها القوافل منحطة ، والأمتعة إليها براً وبحراً مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها مياسير تجار ... يجالسون تجار المغرب الأقصى ، وتجار الصحراء ، وتجار المشرق ، وبها تحل الشدود ، وتباع البضائع بالأموال المقنطرة » .

ويصف صاحب الاستبصار[٣] مرساها بقوله : «وهى مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم من الشام ، وغيرها من أقصى بلاد الروم ، وسفن المسلمين من الاسكندرية بطرف بلاد مصر وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها » ..

وهكذا أصبحت كل من القلعة وبجاية منطلقاً لأكبر حركات التجارة العالمية فى ذلك الوقت ، ونشطت حركة التبادل التجارى بين الحماديين وبين مصر ، وساعد على هذا الازدهار الاقتصادى السياسة الحكيمة التى كان ينهجها أمراء بنى حماد ، فقد كان الناصر بن علناس على علاقة صداقة مع البابا جريجورى السابع ، وتبودلت بينهما الرسل والمكاتبات[٤] ، وظل الناصر طيلة مدة حكمه فى حالة سلام مع المدن الايطالية[٥] ، «فبقى صاحب بجاية فى ملك شامخ وعز باذخ يضاهى فى ملكه صاحب مصر »[٦] .

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية .، /٤٩ .

(٢) الادريسى : صفة بلاد المغرب ، /٩٠ ، الحميرى : الروض المعطار ، /٨١ .

(٣) مؤلف مجهول : الاستبصار ، / ١٣٠ .

(٤) Mas Latrie : Op. Cit., P. 54.

(٥) Ibid . , P. 56.

(٦) مؤلف مجهول : الاستبصار ، / ١٣٠ ، الحميرى : الروض المعطار ، /٨١ .

وليس أدل على مستوى الرخاء الذى كان عليه أهل بجاية من الصورة التى نقلها لنا البيذق (١) ، فيذكر أن المهدى بن تومرت عندما دخل بجاية ، هاله اسراف الرجال فى ملابسهم ، وعماماتهم الأنيقة(٢) ، وانتعالهم النعال ذات السيور المذهبة ، وآلات الملاهى ، ودنان الخمر ، مما جعله يستنكف هذه العادات ويعتبرها ضربا من ضروب الفساد .

ونتيجة لذلك ازدهر الدينار الحمادى وأصبح وسيلة فى التعامل حتى آخر عهد الأمير يحيى بن العزيز (٣) .

ازدهرت التجارة الخارجية فى عهد المرابطين نتيجة لنمو البحرية المرابطية ، وظهورها فى ميدان الصراع الدولى ، حتى أصبحت تنافس جمهوريات ايطاليا ، كما أصبحت تنافس ، النورمان ، واستطاع المرابطون بعد استيلائهم على موانئ شرق الأندلس ، وجزر ميورقة أن يبسطوا حمايتهم على الحوض الغربى للبحر المتوسط (٤)، وقد ساعد على ازدهار التجارة ،أن المغرب الأقصى كان بعيدا عن أخطار الغزو الهلالى ، هذا فضلا عن سيطرة المرابطين على مراكز تجارة الذهب فى سجلماسة (٥) ، التى كانت من أهم مراكز تجارة الصحراء ، وهى كثيرة العامر ، مقصد للوارد والصادر ،(٦) .

---

(١) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ، /٣٦ ، ٣٧ ، انظر : جورج مارسيه : علاقات المغرب ، /٣١٠ .

(٢) يذكر الحميرى أنه كان لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة يغالون فى أثمانها تساى العمامة منها خمسمائة دينار وستمائة دينار وأزيد . (الحميرى :الروض المعطار ،/٨١) .

(٣) Goitein; Letters., PP. 261 - 263.

(٤) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، /٤٠١ .

(٥) الحبيب الجنحانى : دراسات فى التاريخ الاقتصادى ،/ ١٠٠ ، ١٠١ .

(٦) الادريسى : صفة المغرب ، / ٦٠ ، الحميرى : الروض المعطار ، /٥٩ .

كما اشتهرت أغمات كمركز من مراكز التجارة فى الدولة المرابطية ، حيث كان تجارها يعدّون القوافل المتجهة نحو السودان ، والتى كانت تشتمل على منتجات الشرق كالأفاويه والعطور[١] ، وأصبح الدينار المرابطى عليه طلب كبير فى اسواق مصر والمشرق ، واصبح لجودته يكتسب صفة العالمية [٢] .

أما عن العلاقات التجارية بين الفاطميين والمرابطين فيذكر ابن الأثير [٣] أن مصر الفاطمية كانت سيئة الظن بالمغاربة الذين اعترافوا بالعباسين ، وكان بدر الجمالى يضيق عليهم ، حتى أنه من أراد الحج من المغاربة كان يعدل عن طريق مصر .

وعلى الرغم مما ذكره ابن الأثير فإن الشواهد الوثائقية تشير إلى وجود سلع متبادلة بين مصر ودولة المرابطين ، فقد حفظت لنا موسوعة الجنيزة الكثير من المعلومات التى تضمنتها الخطابات عن السلع المغربية التى تنقل من المريّة إلى الاسكندرية ، والسلع المصرية والبهارات والأصباغ التى كانت ترد من الاسكندرية إلى ساحل مدينة المرية[٤] ، وان كانت السلع المتبادلة لا تتجه مباشرة إلى موانىء المغرب فى العصر المرابطى ، فانها كانت تتجه إلى ميناء المرية التى كانت تحت امرة المرابطين ، « وكانت المرية إليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية ، والشام كله ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا ، ولا اتجر منهم فى الصناعات و أصناف التجارات تعريفا وادخاراً [٥] » .

---

(١) الادريسى : صفة المغرب ، /٦٦ .

(٢) Goitein; A Mediterranean Society, V.1. P, 235, 236, 240.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ١٠ / ٤١٤ .

(٤) Goitein: Letters.., PP. 54, 263.

(٥) الادريسى : صفة المغرب ، /١٩٧ ، جوليان : تاريخ افريقيا ، / ١٦٠

هذا بالاضافة إلى أن المغاربة كانوا يجمعون بين الحج والتجارة ، وكانوا ينقلون معهم بعض السلع (١) ، كما كان التجار المشارقة يدخلون إلى المغرب(٢) وعن ذلك يذكر لنا الادريسى(٣) منفذاللتجارة عبر الصحراء من سجلماسة إلى مصر مارا بالبهنسا ، ويذكر أنه الطريق الذى أخذه المرابطون فى سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م ولعل هذا الطريق كان يسلكه بعض التجار المصريون والمغاربة .

ولم تكن علاقات الموحدين بالفاطميين بأحسن حالا من علاقة المرابطين بهم ، فقد كانت علاقات الموحدين متأزمة مع الفاطميين ، بل كان الموحدون يتوقعون تملك مصر (٤) و ظل هذا الأمل يراود خلفاء الدولة الموحدية (٥) .

ومهما يكن من أمر فقد كانت السلع المتبادلة يتم نقلها على المراكب الجنوية التى كانت تقوم برحلات منتظمة عبر البحر المتوسط بين موانىء مصر ودول المغرب ، بل ان المسلمين حجاجهم وتجارهم اعتادوا أن يستقلوها فى أسفارهم ، فقد سافر ابن جبير فى رحلته من سبته إلى الاسكندرية على متن مركب جنوى ، كما ذكر لنا كثيرا من المراكب الجنوية التى قابلها فى صقلية قادمة من الاسكندرية فى طريقها إلى الأندلس(٦) .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ٥٨/٢ ، ٣٢٩ ، ٢٤٠ .

(٢) ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ،/ ٦١ ، ٦٤ ، مؤلف مجهول : الاستبصار ،/ ١٣٠ .

(٣) الادريسى : صفة المغرب ، /١٦٢ ، ١٦٣ .

(٤) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، / ٥٢ ، ٧٠ .

(٥) المراكشى : المعجب ،/ ٣٦٠ .

(٦) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، / ٤١ ، ٦٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٨ .

Amari; Diplomi Arabi del archivio, .I, Firenze, Le Mannier , 1863 . V.I., PP5, 24, 32, 34

عوامل تدهور النشاط التجارى بين مصر والمغرب :

وعلى الرغم من النشاط التجارى الكبير بين مصر وبلاد المغرب ، الا أن الظروف السياسية كانت تؤدى إلى تقليل حجم التبادل التجارى بين البلدين ، فقد كان لانفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية أثره المباشر على الأوضاع الاقتصادية ، وكان من اهمها إصدار المعز بن باديس فى سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م مرسوماً يحرم تداول العملة الفاطمية فى أملاك الدولة الزيرية(١) ، وربما كان لهذا التحريم أثر ضار بالتجارة بين مصر وبين سوسة وصفاقس والمهدية ، وبالتالى قل من الوساطة التى كان يقوم بها تجار المغرب فى التجارة الدولية بالبحر المتوسط(٢) ، وما ترتب على هذا الانفصال من هجرة عرب بنى هلال الى بلاد المغرب ، وما الحقته من خراب وتدمير بالبلاد ، مما اوقع البلاد فى حالة من الفوضى والاضطراب الدائمين (٣) ، ومن هنا نلاحظ أن التغير الذى طرأ على هذه العلاقات أثر بدوره على مراكز المنسوجات القطنية والكتانية تأثيرا كبيراً ، ولم تعد بلاد بنى زيرى تنتج شيئا ، بعد أن كانت مركزاً لهذه الصناعة قبل الغزو الهلالى (٤) .

ويذكر الشريف الادريسى(٥) فى منتصف القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى عن الخراب الذى لحق بالمنطقة الساحلية من افريقية ، عازياً ذلك إلى عيث

---

(١) ابن عذارى : البيان ، ٤٠٢/١ ، ٤٠٣ ، انظر : أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ، ‏/٣٨٥ .

(٢) ارشيبالد لويس : القوى البحرية ، / ٣٨٥ .

(٣) Mas Latrie: Relations., PP. 24, 25 .

(٤) عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى ، /٢٢٠ .

(٥) الادريسى : صفة المغرب ، /١٠٧ ، ١٢١ ، ١٣١ ، الحسن بن الوزان : وصف افريقيا ، /٤٢٨.

القبائل العربية ، فيذكر برقة بقوله : «غير أنها فى هذا الوقت عامرها قليل ، وأسواقها كاسدة ، وكانت فيما سلف على غير هذه الصفة » .. ويقول عن طرابلس :« أن العرب أضرت بها ، وبما حولها وأخلت أهلها ، وأخلت بواديها وغيرت أحوالها ، وأبادت أشجارها ، وغورت مياهها » .. ، وعن المهدية يقول : «.. لم تزل ذات اقلاع وحط للسفن الحجازية القاصدة اليها من بلاد المشرق و المغرب .. وقد قل ذلك فى وقتنا هذا «ومن قبل وصف المقدسى [١] المهديه فى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى بقوله : «خزانة القيروان ومطرح اصقلية ومصر» .

وعلينا أن نأخذ بتحفظ شديد ما يذكره الادريسى فى كتابه (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) الذى صنفه فى بلرم تحت رعاية روجار الثانى ، على أننا لا نقلل من الآثار التى ترتبت على هجرة بنى هلال إلى افريقية ، فقد انحسرت رقعة الدولة الزيرية ، وفقدت وحدتها السياسية هذا فضلا عن فقد جانب كبير من تجارة القوافل المجزية مع بلاد السودان ، واختلت اقتصاديات البلاد اختلالا شديدا ، فقد خرب العرب العمران وأتوا على معالم الحضارة من زراعة وتجارة ومنشآت ، فخربت صبرة والقيروان وتونس واكتسحت البلاد موجة عاتية من الدمار تركتها قاعاً صفصفاً [٢] مما جعلها عرضة لمطامع الجمهوريات الايطالية [٣] وهجمات النورمان المريعة على مدن الساحل [٤] ، فقد أجهز النورمان على التجارة الخارجية مما ادى إلى توقف الانتاج الصناعى ، وتعذر تصديره نتيجة للوجود النورماندى على الساحل،

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن ١٩٠٦) ، / ١٢٦.

(٢) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامى ، /٢٤٢، ٢٤٣

G.Marcais : Les Arabes en Berbérire, p. 150.

(٣) حسين مؤنس : تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط ، /٩٢.

(٤) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى ، /٢٢٨.

وللوقوف على ذلك يجدر بنا أن نعرض لمتقطفات من وثائق الجنيزة وأصحابها معاصرين للأحداث .

ففى احدى رسائل الجنيزة من التاجر أبى سعيد بن أبى الحسن الأبزارى فى بلرم إلى أخيه أبى البركات فى الفسطاط فى حدود سنة ١١٤٠م ، وتوضح الرسالة مانجم عن هجمات أسطول النورمان على ساحل افريقية ، واعتداء مراكب النورمان على سفن المسلمين العاملة بين مصر وبين موانىء افريقية ، وكان هذا التاجر ينوى العودة إلى مصر بيد أن الروم كما يقول فى رسالته : « صدموا وقلبوا مركب اللقنتى ووقعت السيف » ... ويستطرد فى رسالته بقوله : « ... دخلت صقلية مع أسرتى قادما من مدينة تونس بسبب الحرمان ، والفاقه هناك ، والأهوال التى حلت بافريقية .... وكان هدفى التوجه إلى مصر عن طريق صقلية ، إذ لم يعد من الممكن السفر إلى مصر من إفريقية مباشرة ..... وليس الخبر كالعيان...» [١] وفى رسالة أخرى من التاجر ابراهيم بن يجو فى عدن إلى أخيه فى المهدية والرسالة مؤرخة فى منتصف شهرسبتمبر ١١٤٩م ، وكان صاحب الرسالة قد فارق أهله فى المهدية منذ سنوات ، يعبر فيها عن قلقه على مصير أهله فى المهدية بعد استيلاء النورمان عليها سنة ١١٤٨م ، نقتبس من الرسالة بعض الفقرات : « ... قابلت سليمان بن جباى الذى أخبرنى أن الحال قد وصلت بكم إلى درجة أصبحتم لا تحصلون فيها إلا على رغيف واحد من الخبز فى اليوم .. لى ابن وابنة ، خذهما وخذ معهما كل ثروتى ، أفضل من أن يأخذها الأغراب .. سمعت عما حل بساحل إفريقية طرابلس الغرب وجربة ، وصفاقس والمهدية وسوسة ، إلا أنه لم تصلنى أية رسالة تمكننى من معرفة من مات ،

---

(١) Goitein, Letters, p. 324

انظر أمين الطيبى : جوانب من النشاط الاقتصادى ، ٤٧٠ ، ٤٧١

ومن بقى على قيد الحياة ، أناشدك الله أن تكتب تفاصيل دقيقة ، وأن تبعث برسائلك مع أناس يعتمد عليهم كى يطمئن بالى ...» (١)

لم يعد غريبا فى ضوء هذه الاعتبارات أن يتدهور شأن تجارة المغرب ، وان لم تختف تماما مما كان له جل الأثر على حجم التبادل التجارى ، وانتقال مركز الثقل من يد المغاربة ، إلى أيدى الأوربيين وعلى الأخص الايطاليين (٢) ، وأصبحت السفن الايطالية تحمل الزيت من جزيرة جربة إلى الاسكندرية (٣) وهكذا عاد الحوضان الأوسط والغربى للبحر المتوسط إلى منطقة النفوذ الأوربية ، وأصبحا طريقا آمنا للجمهوريات الايطالية ، واتسعت آمال شعوب غربى أوربا فى مهاجمة المسلمين فى بلادهم ، وذلك كله يرسم لنا مقدمات الحروب الصليبية (٤).

وكان من الطبيعى أن تتأثر التجارة الخارجية لمصر مع دول المغرب بهذه التطورات ، فاتساع ملك الفاطميين وامتداده غرباً حتى سبته وشرقا حتى ليشتمل على مصر وسوريا والحجاز ، ما هو فى الحقيقة إلا نتيجة لوقوع السيطرة على التجارة وعلى الملاحة فى البحر المتوسط فى أيدى التجار والملاحين المغاربة فى القرن العاشر الميلادى (٥) .

على أن الدولة الفاطمية تعرضت لهزات عنيفة خلال النصف الثانى لعصر المستنصر أى حوالى سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م «وقد وقع الغلاء الذى فحش أمره ، وشنع

---

(١) Goitein : Letters, pp. 203 - 206.
وأنظر : ملاحق الكتاب .

(٢) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية ، /٣٨٦.

(٣) ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى ، /٣١١

(٤) حسين مؤنس : تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط /٩٤

(٥) أرسشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية ، /٤١١ .

ذكره ،... وسببه ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، وقصور النيل ،[1] ، وكان نتيجة لهذه الشدة المستنصرية أن ارتفعت الأسعار ، وتعطلت الأرض الزراعية ، وخيفت السبل براً وبحراً ، وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة[2]، مما ادى الى تدهور الاحوال الاقتصادية ، وتحكم الأمراء والوزراء فى السلطة وحجبوا الخلفاء ، وانسلخت الولايات عن حكمها وطرحت طاعتها[3]، وانخفض سعر الدينار الذهبى الفاطمى ، مما يدل على انخفاض مستوى الرخاء فى مصر ، ومن المحتمل أن يكون مرجع ذلك إلى قلة الذهب الوارد لمصر من بلاد المغرب بسبب الانقسام بين الفاطميين والزيريين أو بسبب الغزوة الهلالية وقطعها لطرق القوافل الذاهبة جنوباً إلى السودان[4] .

وصفوة القول أن التبادل التجارى بين مصر ودول المغرب تأثر بكل العوامل السابق ذكرها ومن المرجح أن تجارة مصر مع بلاد المغرب كانت أقل أهمية بعد عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م عنها قبل ذلك ، فليس غريبا والأمر كذلك أن يتمكن المغامرون الأوربيون والصليبيون والملاحون الايطاليون من السيطرة على البحر المتوسط والوساطة فى تجارته وانتزاعه من قبضة المسلمين المتراخية .

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، /٤٦، ٥٢ ، ٥٤

(٢) عن الشدة المستنصرية انظر : المقريزى : الخطط ، /١/٣٣٥، ٣٣٨، ابن اياس : بدائع الزهور ، ١/ ٦٠، ٦٢ ، زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، /١٤، ١٦

(٣)محمد محمد مرسى الشيخ : الفاطميون ، الموسوعة المصرية ، تاريخ وأثار مصر الاسلامية حـ ٣ من المجلد الأول/١٠٥٦، ١٠٥٩

(٤) أرشيبالد لويس : القوى البحرية ، /٣٨٧.

ثالثا : المعاملات التجارية :

العملة :

تعتبر العملة من أهم وسائل المعاملات التجارية ، كما تعتبر مظهراً من مظاهر سيادة الدولة ، لذلك حرص جوهر الصقلى على سك العملة الفاطمية ، التى كانت فى طليعة المسائل التى اهتم بها غداة دخوله مصر ، فسك دنانير ذهبية جديدة أطلق عليها اسم المعزية ، وقد حفظت لنا كتب السكة نقوش هذه الدنانير ، ونقرأ من الخارج إلى الداخل على أحد الوجهين [١] .

١ ـ محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

٢ ـ وعلىّ أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين.

٣ – لا إله إلا الله محمد رسول الله

وعلى الوجه الثانى :

١ـ بسم الله ضرب هذا الدينر بمصر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة .

٢ ـ دعا الامام معد لتوحيد الاله الصمد.

٣ ـ المعز لدين الله أمير المؤمنين.

---

(١) المقريزى : النقود الاسلامية ، القسطنطينية ، ١٢٩٨هـ /١٣. انظر : عبد الرحمن فهمى : موسوعة النقود العربية ، /١٩٩ .
Lane poole : Catalogue of Arabic Coins, p.152.

ويبدو اضحاً ارتباط هذه النصوص بالعقائد الشيعية ، فضلاً عن التشابه بين السكة المصرية والمغربية فى النصوص والعيار [١] .

وعلى الرغم من اصدار جوهر للدنانير المعزية ، إلا أن الحكومةالفاطمية لم تمنع التداول بالعملة العباسية ، بل أبقت التعامل بالدينار الراضى [٢] ، والدينار الأبيض الذى كان متداولاً فى عهد الأمويين ، والدراهم التى ضربت فى عهد الأمين والمأمون وسميت الرباعيات [٣] .

لما قدم الخليفة المعز لدين الله من بلاد المغرب سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م ، عهد الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالاشراف على الخراج ، فامتنع ابن كلس أن يأخذ إلاّ ديناراً معزياً ، فاتضع الدينار الراضى ، وانحطت قيمته بمقدار الربع ، وكان صرف الدينار الجديد خمسة عشر درهماً ونصف درهم ، [٤] .

ومما يجدر ذكره أن الدينار الراضى كان أكثر وزناً ونقاوة من الدينار المعزى الجديد ، يتضح لنا ذلك من قائمة الدنانير التى أوردها على مبارك [٥] ، فقد بلغ وزن الدينار الراضى ٤ر٢٥ جراماً وهو الوزن الشرعى [٦] ، وفى الوقت الذى كانت قيمة الدينار المعزى ٤ر١٩ جراما ، وصل أعلى وزن له ٤ر٢٣ جراماً [٧] ، ومن هنا كان

---

(١) عبد الرحمن فهمى : موسوعه النقود العربية ، /١٩٩، ٢٠٠ .

(٢) نسبة إلى الخليفة العباسى الراضى بالله (عبد المعنم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ، مكتبة الأنجلو١٩٥٣م)/١٢٨،

(٣) المقريزى : الخطط ١/٣٩٨، ٤٠٥ ، انظر : عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين /١٢٨ .

(٤) ابن ميسر : أخبار مصر / ١٦٣ ، المقريزى : النقود /١٣ ، الخطط المقريزية ٢/ ٦ .

(٥) على مبارك : الخطط التوفيقية ، طبعة بولاق ١٣٠٦هـ. ٢٠/ ١٠٤

(٦) الوزن الشرعى للدينار الذهبى (٤ر٢٥ جم) . أنظر : محمد ضياء الدين الريس : الخراج فى الدولة الاسلامى ، القاهرة ١٩٥٧م /٢٣٧، ٢٣٨ .

(٧) Coitein : the Exchange of gold and silver money, V,lll, p . 41

التشديد فى فرض سكتها على المصريين يتمشى مع رغبتها فى القضاء على كل مظهر من مظاهر السيادة العباسية السنية ، بالاضافة إلى عامل اقتصادى هام وهو الاستفادة من الفروق فى وزن الدنانير التى انخفض سعرها ، « فخسر الناس كثيرا من أموالهم فى الدينار الأبيض والدينار الراضى »(١) ، هذا فضلا عن تهيئة قطاعات الشعب المصرى لاستقبال العهد الجديد فى ظل السياسة والأنظمة الشيعية (٢) .

لم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحدة للتعامل المالى بها ، بل أصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣) ، وهكذا أخذت مصر تسير على نظام المعدنين ، وأصبحت النقود الفضية عملة قانونية لم يكن بد من التعامل بها (٤) .

على أن استخدام هذه العملة الفضية ، وكثرة زيادتها فى السوق ، أدى إلى انخفاض قيمتها الشرائية ، « ففى شهر ربيع الأول من سنة سبع وتسعين وثلاثمائة تزايد أمر الدارهم القطع والمزايدة فبيعت أربعة وثلاثون بدينار » فارتفع السعر ، وزاد اضطراب الناس وكثر تعنتهم فى الصرف فرفعت تلك الدراهم وأنزل من القصر عشرين صندوقاً فيها دراهم جديدة وزعت على الصيارف ، وقرىء سجل بمنع التعامل بالدراهم الأولى ، وأن يصرف الدينار بثمانية عشر درهما(٥) .

---

(١) المقريزى : الخطط ٦/٢

(٢) عبد الرحمن فهمى : موسوعة النقود العربية /٢٠٢

(٣) المقريزى : النقود /١٣ ، اغاثة الأمة / ١٠٩ ، ١١٠ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ١٣٢/٢٠ ، الدراهم النقرة يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس ، وأما الدراهم السوداء فالدرهم منها ثلث درهم نقرة . (القلقشندى صبح الأعشى ٤٣٩/٣) .

(٤) راشد البروى : حالة مصر الاقتصادية /٣٠٤ .

(٥) المقريزى : النقود /١٣ ، اغاثة الأمة /١١٠ ، انظر : راشد البراوى : حالة مصر/٣٠٥

كذلك أوجد الفاطميون الدينار المغربى بجانب الدينار المعزى ، وهو الدينار الذى أدخله الفاطميون من المغرب بكميات هائلة (١) ، هذا فضلا عن نقود الدعاية والإعلام والمناسبات ، فكان يضرب من الذهب برسم خميس العدس عملة باسم خراريب ، وهى دراهم خفاف مدوره تساوى $\frac{1}{8}$ العملة (٢) كما كانت تضرب دنانير فى مناسبة أول العام الهجرى تعرف باسم الغرة ، وهى من الدنانير المدورة أيضاً(٣) .

لم يقتصر التعامل المالى فى أسواق مصر على العملات الفاطمية فحسب ، بل كانت تتداول الأسواق والمراكز التجارية عملات أخرى مختلفة ، فقد راجت دنانير ودراهم بنى زيرى فى أسواق مصر ، وكان الطلب عليها كبيراً ، وقد سجلت موسوعة الجنيزة خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى تدفقاً مستمراً للعملات من الذهب والفضة من إفريقية إلى مصر ، فى شكل مدفوعات لثمن البضائع المستوردة من مصر وسوريا والشرق عامة (٤) .

ظلت الدولة الزيرية محافظة على ضرب السكة باسم الخلفاء الفاطميين طيلة تبعيتها للخلافة الفاطمية فى مصر ، وكان دينار المهدية يضم فى كل من الوجه والظهر ثلاثة سطور هامشية نصها من الخارج إلى الداخل(٥) :

١ ـ بسم الله ضرب هذا الدينر بالمهدية سنة ..... وأربعين وثلث مائة.

٢ ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلىٌ أفضل الوصيين

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه / ١٣٥ ، انظر : عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين / ١٢٨ .

(٢) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين / ١٢٨ .

(٣) المقريزى : الخطط ١/٤٤٥.

(٤) Goitein : AMediterranean Society, I , p. 235.

(٥) Lane Pool : Catalogue of the Collection , p. 153

٣ ـ دعا الامام معد لتوحيد الإله الصمد

المعز لدين الله أمير المؤمنين.

بينما كان دينار المنصورية نقشه النص التالى (١) :

١ ـ بسم الله الملك الحق المبين ضرب هذا الدينر بالمنصورية سنة اثنتين وأربعين وثلث مائة .

٢ ـ مختزن سنة محمد سيد المرسلين ونائب مجد الايمة المهتدين .

٣ ـ عبد الله معد أبو تميم الامام المعز لدين الله

أمير المؤمنين

العظمـــة للـه

واستمر ضرب الدنانير على هذين النمطين حتى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦ ـ١٠٤٧ م(٢)، ويذكـر أن المعـز بن باديس حين ضـرب فى سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م الدينار المسـمى بالتجارى، نقش على الأزواج فى الوجه الواحد ، ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ، وفى الوجه الثانى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وضرب منها دنانير كثيرة ، وأمر أيضا « بسبك ما كان عنده من الدنانير التى عليها أسماء بنى عبيد ، فسبكت ، وكانت أموالاً عظيمة»(٣)، ويوجد نموذج لهذا الدينار بمجموعة متحف برلين (٤) .

ومن المرجح أن المعز بن باديس لم يسك دنانيره سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م ،كما ذكر

---

(١) Lane Pool : Catalogue of the Collection , p. 153 .

(٢) Lane Pool : A History of Egypt, P. 138 .

(٣) ابن عذارى: البيان ١/٤٠٢، ٤٠٣

(٤)حسن ابراهيم حسن : تاريخ الددلة الفاطمية /٢٥٣

ابن عـذارى ، فـيـوجـد نماذج يبـدأ تاريخـهـا من سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م إلى سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٣م ، ويبـدو أن ابن عـذارى كـان يشـير فى ذلك إلى الدينار التجـارى ، الذى أمر المعز برواجه وشاع استخدامه سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م(١) .

وما لبث أن ساءت أحوال الدولة الزيرية من جراء عيث قبائل بنى هلال وسُليم ، والتى تسببت فى قطع امدادات الذهب القادمة من السودان ، وتغير كل شيىء ، فحلّت العملات الصقلية والرومية محل العملات المحلية(٢) ، وفى احدى رسائل الجنيزة التى يرجع تاريخـهـا إلى سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٤م أرسل تاجـر تونسى إلى مـصـر أرباع الدينارات المسكوكة فى بلرم بدلاً من الدينارات المسكوكة فى المهدية ، لأنه أيقن أن هذه الأخيرة لن يكون لها سوق فى مصر(٣)، وفقدت دراهم بنى زيرى قيمتها فى أسواق مصر بسبب نقصان كمية الفضة بها نقصاناً شديداً ، بل وصل السوء بهذه العملة حداً جعل الدينار المصرى يساوى مائتى درهم منها(٤) .

على أن الدولة الحمادية استفادت من قطع المعز بن باديس علاقاته بالفاطميين ، فقد ظلت الدولة الحمادية محافظة على ضرب السكة باسم الخلفاء الفاطميين حتى عهد الأمير يحيى بن العزيز (٥)، مما أدى إلى ازدهار التجارة بين البلدين ، وساعد على رواج العملة فى أسواق مصر وبجاية .

كـانت القـوة الاقتـصـادية لبلد تتطلب بالضرورة عـملة قـوية ، وأصـبح الدينار المرابطى له طابع العالمية فى التبادل التجارى فى منطقة البحر المتوسط لجودته (٦) ،

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة ١/٤٤٧ .

(٢) Goiten : A Mediterranean , I, P.235.

(٣) Goiten : Op, Cit., P.235.

(٤) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر/٢٤٧.

(٥) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى / ٣٦٣.

(٦) Ibid., P. 235 .

كما يدل كذلك على ارتفاع قيمة هذه العملة كثرة المعاملات والتداول ، حتى لقد قيل أن الدينار المرابطي وصل إلى القسطنطينية (١) ، ويرجع ذلك إلى أن دولة المرابطين سيطرت على كل الطرق المؤدية الى السودان الغربي، حيث يستخرج الذهب ، الأمر الذى انعكس على الكميات الكبيرة من الدنانير الذهبية التى سكها المرابطون ، ابتداء من عهد أبى بكر بن عمر أول أمراء المرابطين الذى ضرب سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨ - ١٠٥٩م بسجلماسة ديناراً باسم الخليفة العباسى (٢) .

ومما يذكر أن الدينار المرابطى كان أقل من الدينار الفاطمى (٣)، ومن المعروف أن وزن الدينار المرابطى كان ٧٢ر٤ جرام وهو الوزن الذى عرف به دينار عبد الملك بن مروان ، هذا فضلاً عن أن المرابطين اتخذوا من الدولة الاسلامية فى عصرها الأول مثالاً يحتذى ، دون أن يغفلوا فى هذا الصدد عن السياسة النقدية ، بيد أن هذا الوزن قد انخفض حتى بلغ ٩٥ر٣ جرام ، كما تدل على ذلك بعض الدنانير التى عثر عليها فى شمال أسبانيا وفى غرب فرنسا وفى المغرب الأقصى (٤).

ومن المرجح أن ما ذكره ابن بعره ينطبق على أواخر عصر دولة المرابطين ، وخاصة فى القرن السادس الهجرى ، حيث أحاطت المشاكل بالدولة من حروب ضد نصارى أسبانيا ، هذا فضلا عن الثورات والفتن الداخلية ولا سيما ثورة الموحدين ، يتضح ذلك من احدى رسائل الجنيزة المؤرخة سنة ٤٩٤هـ/١١٠٠م ، وفى الرسالة حاول تاجر مصرى يعمل فى تونس أن يحصل على العملات المرابطية والمصرية

---

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين / ٤٠٣

(٢) Lavoix : Catalogue des monnais , P. 198.

(٣) ابن بعره ، منصور : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية / ٥٩ ، أبو الحسن على بن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة ، (صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد) - م / ٦ ، عدد (١-٢) ١٩٥٨ ، / ٤٩ .

(٤) الحبيب الجنحانى : دراسات فى التاريخ الاقتصادى /١٠٢.

مقابل لبضاعته ، وقد دفع أكثر لكى يحصل على الدينارات المصرية التى فضلها على المرابطية(1) ، فقد كانت الدنانير الفاطمية هى وحدة قياس العملة فى ذلك الوقت(2) .

ونستشف من هذه الوثيقة أن الدينار المرابطى كان له طلب فى الأسواق المصرية وخاصة بعد أن أصبح الدينار المضروب فى المهدية « مّموها» لتدنى نسبة الذهب فيه.

واما الموحدون فقد امتازت معظم دنانيرهم المضروبة لغرض التعامل التجارى عن بقية الدول المجاورة لهم ، بأنها ذات سمعه قوية ، ولها أثرها البالغ فى بث الطمأنينة، واستقرار التعامل بين الناس بسبب ما كانت تمتاز به من وزن مضاعف منذ عهد حاكمهم الثالث أبى يوسف يعقوب بن يوسف (٥٨٠ ـ ٥٩٠ هـ/ ١١٨٤ ـ ١١٩٣م) حيث كان وزن الدينار قبلاً ٢٫٣٥ جرام ، وأصبح ٤٫٧٠ جرام (3)، وقد أدخل الموحدون تغييرات على نظام السكة الذى سنه المرابطون ، ورسموا فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه ، وملىء من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً ، ومن الجانب الآخر كتبا فى السطور اسم المهدى ، واسم الخلفاء من بعده ، واختاروا وحدة سكتهم ضعف ما كانت عليه لتماثل فى وزنها الدينار القديم (4) ، وقد عثر أخيراً فى منطقة الريف على عملة فضية مربعة الشكل نقش على أحد وجهيها (الله ربنا، محمد رسولنا، المهدى امامنا) وفى الوجه الآخر (لا إله إلا الله، الأمر كله لله ، ولا قوة إلا بالله) وهى خالية من التاريخ، ومن المرجح أنها ضربت سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م (5)،

---

(1) Goitein : Op, Cit., P. 236.

(2) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى /٢٤٣ .

(3) ابن بعره : كشف الأسرار العلمية / ٥٨ ، انظر حاشية رقم (1) ، ابن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة /٤٩، حاشية رقم (2) ، محمد باقر الحسينى : دراسة تحليلية عن نقود الدعاية والاعلام ، مجلة المسكوكات ، العدد السادس ، بغداد ١٩٧٥م /١٢، ١٤ .

(4) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية / ١٦٠ .

(5) حسن على حسن عبد العواد : الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس الهجرى رسالة دكتوراه / جامعة القاهرة ١٩٧٣م. /٢٥٧، ٢٥٨ .

كما كان الموحدون يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب [١].

على أن الدينار الموحدى كان أقل من الدينار الفاطمى [٢] ، ومن المرجح أن ذلك حدث قبل أن يضاعف الموحدون الدينار ، ويبدو أنه كان أضعف من الدينار المرابطى فى التجارة الخارجية ، لاسيما وأن الموحدين قد أخفقوا فى استخراج الذهب من باطن الأرض المغربية ، ولعل ضعف الدينار الموحدى فى التعامل الخارجي يفسر لنا لِمَ ضاعف المنصور وزن الدينار الموحدى [٣] .

وتعطينا كتب السكة[٤] مؤشرات على درجة عالية من الأهمية ، يتضح من خلالها أن الدينار الفاطمى حافظ على نقاوته طوال عهد الفاطميين ، واستمرت نسبة الذهب فيه ٩٨ ٪ [٥] كما نجد فى بداية حكم الخليفة المعز لدين الله أن أوزان الدنانير تصل إلى أعلى معدل لها ، ولعل مرد ذلك إلى الثروةالذهبية التى جلبها جوهر الصقلى والخليفة المعز من بعده [٦] ، والتى بلغت مبلغا يقيم الدليل على وجود خطة مالية دقيقة ، وما تستند إليه من رصيد ذهبى ضخم ، هذا فضلاً عن النشاط التجارى واعتناء الدولة الفاطمية بتنظيمه ، باعتباره مورداً ثريًا لنظام الجباية ، ولتجميع الثروات وتوفير عملة نقدية ذهبية ذات شأن بأيدى فئات التجار فى المراكز التجارية النشطة[٧]، ومن مراجعة الدنانير التى ضربت فى الدولة الفاطمية نجد أن بعض الخلفاء الفاطميين كان

---

(١) المراكشى : المعجب / ٢٧٦ .

(٢) ابن بعره : كشف الأسرار / ٥٨، ابن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة /٤٩، ٥٦ .

(٣) عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى / ٣٠٤ .

(٤) Lavoix : Catalouge des Monnais , PP 88 - 90 , 31 - 170 .

انظر : على مبارك : الخطط التوفيقية ٢٠/١٠٤، ١٠٥ .

(٥) عطية القوصى : تجارة مصر / ١٣٣ .

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ١/ ١٤٤ ، الخطط المقريزية ١/ ٣٧٨ .

(٧) الحبيب الجنحانى : دراسات فى التاريخ الاقتصادى / ٨٥، ٨٧ .

يلجأ إلى تخفيض العملة كما يتبين ذلك من الجدول التالى :

السنة الهجرية	وزن الدينار بالجرام
٣٦٥	١ر٠٠٠
٣٦٦	٣ر٧٦٠
٣٨٣	٣ر٦٥٠
٤٠٦	٣ر٧٨٠
٤٢٧	٠ر٩٠٠
٤٢٧	١ر٠٠٠
٤٨٢	٢ر٩٥٠
٥١٦ ـ ٥٣٠	يتراوح الوزن بين ٣ر٤٨٠، ٣ر٩٩٠ جراما[١]

إلا أنه رغم ذلك كانت ترجع بمرور الزمن القيم إلى أصولها [٢] ، ومن المرجح أن هذه الدنانير ضربت للإهداءأو المناسبات ، أو للتقليل من نفقات الدولة ، وخفض رواتب الموظفين وزيادة الضرائب[٣] .

وتعد عملية تحويل الأموال من عملية لأخرى هى المجال الآخر والهام الذى اضطلع به الصيارفة ، وكانت هذه العملية تتصل بعمليتى وزن واختبارات العملات ، فقد كانت العملات المحلية فى ذلك الوقت تعتبر الوسيلة العادية فى المعاملات

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ٢٠ /٢٨، ٤٣ ، راشد البراوى : حالة مصر / ٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) راشد البراوى : حالة مصر / ٣٠٧ .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية / ٦٠٥ .

التجارية ، وتشير موسوعة الجنيزة إلى أن عملية التحويل كانت من الأشياء المألوفة في العصر الفاطمى [١] ، وكانت التجارة بين مصر والمغرب قائمة على العملة الذهبية وعندما يدخل التجار المغاربة إلى مصر يحملون العملة المغربية إلى دور الضرب فيها ويسكونها لتعادل السكة المصرية [٢] ، وعموماً فقد كانت هذه العملات مقبولة في مصر ، ولكن كانت قيمتها تتغير من مدينة لأخرى [٣] .

كان أهم ما يميز العملة الفاطمية العبارة التى تدل على جودتها فكان ينقش عليها عبارة (عال) أو (عال غاية) ، وهذه العبارة هي العلامة أى الرمز الذى يبين صرف العملة على المعيار الرسمى [٤] ، ومن وثيقة بردية لعقد زواج سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨ م يرد أربعة دنانير مستنصرية جياد العيون [٥] ، كما كانت توصف بأنها جيدة ، وكان يطلق على العملات عموماً لفظى (جيدة) و (قديمة) ، وكانت العملة القديمة هى الأفضل دائماً [٦] وكانت تختلف أسعار العملة باختلاف أسعار الذهب والفضة من وقت لأخر حسب العرض والطلب ، كما تتفاوت نسبة الدرهم إلى الدينار باختلاف سعر الذهب والفضة [٧] .

من كل ما سبق يتضح لنا أن الدينار الفاطمى ودينار بنى زيرى ، والدينار الحمادى والمرابطى والموحدى كان أهم وحدة التعامل التجارى بين مصر ودول المغرب ، هذا

---

(١) Goitein : A Mediterranean , I, P.234 .

(٢) ابن بعره : كشف الأسرار / ٥٨ ، ٥٩ ، ابن يوسف الحكيم : الدوحة المشتبكة ، /٤٩ ،٥٦ ،٥٧ .

(٣) Goitein : Op, Cit., P. 236 .

(٤) Lane Poole : Catalogue of Arabic coins, PP. 183 , 186.

انظر : عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ١/١٢٨

(٥) جروهمان : أوراق البردى العربية ١/ ١٠٠ ترجمة حسن ابراهيم حسن .

(٦) عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى / ٢٩٨

(٧) Goitein : Op, Cit., P. 236 .

فضلاً عن استخدام الدراهم فى العمليات التجارية الصغيرة ، وان الدينار الفاطمى ظل محافظاً على جودته ، الأمر الذى أدى إلى انتشاره فى الأسواق الخارجية.

الصكوك :

كانت الصكوك (١) تستعمل كوسيلة من وسائل التعامل التجارى فى البيوع ووفاء الدين ، وقد استخدمت الصكوك منذ صدر الاسلام ، حيث كانت الأرزاق والرواتب تدفع بها أحياناً ، فكان عمر بن الخطاب أول من صك وختم أسفل الصك (٢) و بازدياد النشاط التجارى شاع استخدام الصكوك ، وذكر الجهشيارى (٣)، أن الفضل بن يحيى البرمكى طلب من الرشيد أن يعطى محمد بن ابراهيم الامام مليون درهم ، فلما وافق على اجابة طلبه ، سأله الفضل أن يصك بهذا المبلغ صكاً بخطه ، وتذكر لنا موسوعة الجنيزة أن استعمال الصكوك كان متبعاً فى القرنين الرابع والخامس الهجرى (العاشر والحادى عشر الميلادى) ، فكان الشخص يرسل الصك إلى التاجر واسم السلع التى يرغب فى شرائها وثمنها ، وتحمل الوثيقة توقيعه ، فيرسل له التاجر ما يريد ، ويحتفظ بهذه الصكوك ثم يسلمها له ويأخذ منه ثمن ما أخذ من

---

(١) الصكوك : جمع صك ، وتجمع فى الصكوك أسماء المستخدمين وعدتهم ، ومبلغ مالهم ويوقع السلطان فى آخره باطلاق الرزق لهم . (ابن منظور : لسان العرب دار صادر، ١ / ٤٥٦) والصك فى الأصل سند الدين ، وكان الرجل اذا اشترى عقاراً كضيعة مثلاً كتب صكاً بشرائها . (آدم متز : الحضارة الاسلامية ٣١٩/٢)

Goiten : Bankers and Accounts from the eleventh century A. D (Journal of the Economic and social History, Vol, 1x part 1 -11, 1966, p. 28).

(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، النجف ١٣٥٨هـ/ ١٣٣/٢، انظر : خورية عبده سلام : علاقات مصر / ٢٥٢

(٣) الجهشيارى، ابو عبد الله محمد بن عبدوس : كتاب الوزراء والكتاب ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٤٠١هـ/١٩٨٠م ، ١٩٦ .

بضائع [١] .

وقد أورد الرحالة ناصرخسرو[٢] أنه عندما كان فى أسوان أخذ من صديقة كتاباً إلى وكيله فى عيذاب جاء فيه : « اعط ناصراً ما يريد ، هو يعطيك صكاً للحساب ، فلما نفذ ما مع ناصر من مال فى عيذاب ، أعطى الكتاب للوكيل فقال له : « انى معطيك ما تريد ، وإعطنى صكاً به ...»

لم يقتصر التعامل بالصكوك على مصر ، بل انتشر فى بلاد المغرب فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وشاهد ابن حوقل باودغشت صكاً فيه حق لأحد التجار على رجل من تجار سجلماسة بمبلغ اثنين واربعين الف دينار [٣] وهذا يدلنا إلى أى حد أن الورق فى ذلك العصر كان قد بلغ إلى مسافة كبيرة فى وسط الصحراء الكبرى .

لم يكن التعامل بهذه الصكوك مقصوراً على طبقات التجار فحسب ، بل كانت الحكومة أيضاً تتعامل بها ، كما كانت الصكوك فى بعض الأحيان تكتب وتصرف على بيت المال او على التجار والصرافين ، الذين كانوا يتقاضون عمولة نظير ذلك تبلغ درهماً على كل دينار [٤] ، كما جرت العادة ان يوقع على الصك شاهدان ثم يختم فى اسفله [٥] ، ومن المرجح ان التجار المصريين والمغاربة كانوا يستخدمون الصكوك فى التعامل التجارى فيما بينهم ، إذ كانت المعاملات المالية الضخمة فى ذلك الوقت ومخاطر الطرق الطويلة سواء منها البحرية او البرية ، تتطلب وسائل للدفع خفيفة الحمل مأمونة من الضياع .

---

(١) Goiten : Bankers and Accounts , P. 28.

(٢) ناصر خسرو : سفر نامه / ٧٤.

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض /٩٦

(٤) Goiten : OP. Cit., P.28 .

(٥) حورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب / ٢٥٢ .

السفاتج[1] :

استخدمت السفاتج فى الدولة الاسلامية كوسيلة من وسائل المعاملات المالية وكانت السفائج من بين اساليب التعامل التجارى بين مصر والمغرب ، وتحفظ لنا موسوعة الجنيزة سفتجة يرجع تاريخها الى سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م بمبلغ مائتى دينار مرسلة من احد تجار طرابلس الى تاجر بمدينة الفسطاط [٢] ، ومما يجدر ذكره ان مصر عرفت استخدام السفاتج قبل مجىء الفاطميين ، فقد ورد ذكر سفتجة فى بردية ترجع الى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٨م[٣] .

يتبين لنا مما سبق أن التجار سواء فى مصر ، او المغرب كانوا يستخدمون السفاتج والصكوك فى التعامل التجارى فيما بينهم ، ودعت الحاجة إلى استخدام هذه الوسائل بعد هجرة بنى هلال ، وغارات النورمان ، وأعمال القرصنة ، وخراب مدن الساحل الافريقى ، ومن وسائل التعامل التجارى ايضاً المقايضة التى كانت تستخدم فى بعض أماكن من بلاد المغرب ، وبصفة خاصة جنوبى الصحراء[٤] .

الموازين والمكاييل والمقاييس :

كان الرطل من وحدة الموازين فى مصر ، ويذكر القلقشندى [٥] أن الرطل

---

(١) السفاتج: مفردها سفتجه وهى كلمةفارسية معناها ورقة مالية أو خطاب ضمان . (محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية) / ١٦٣ .

(٢) Goitein: Op. Cit., p. 29.

(٣) جروهمان : أوراق البردى العربية ٦/١٨١ .

(٤) البكرى : المغرب/ ١٧٣ ، مؤلف مجهول : الاستبصار / ٢١٧ ، الادريسى: صفة/١١

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/٤٤١

١٤٤ درهما وهو اثنى عشر أوقية ، والأوقية اثنى عشر درهما (١) ، وكان التجار يتعاملون بالرطل والأوقية والدرهم(٢)، كما كان من بين هذه الموازين النش وهو نصف الأوقية ، والنواة خمس دراهم (٣) ، ومما تجدر الاشارة إليه أن وزن الرطل لم يكن واحدا فى البلاد ، بل كان لكل بلد ومنطقة رطلها الخاص بها (٤) ، كما اختلفت الأرطال تبعا لما يوزن بها ، فكان الرطل الذى يوزن به الفحم والخشب يختلف عن الذى يوزن به العود والكافور والطيب (٥) ، ونتج عن اختلاف الأرطال تفاوت القناطير والقنطار مائة رطل، والرطل اثنا عشر أوقية (٦) .

وتذكر لنا وثائق الجنيزة عن العدل (البالة) وهو وحدة من الموازين التى كان يوزن بها الكتان وشاع استخدامه فى الدولة الفاطمية ، وهى تحتوى على ٥٠٠ رطل(٧) ، كما كان هناك من بين الموازين المن ويساوى مائتين وستين درهما(٨) .

وأما بالنسبة لبلاد المغرب فكان يستعمل من الموازين الأوقية والرطل والقنطار والربع والعدل وكان الرطل اثنتان وعشرون أوقية ، والأوقية خمسة عشر درهما وقنطارهم من جميع الأشياء بهذا الرطل (٩) ، كما أن بعض الموازين يقتصر استعمالها

(١) المقريزى : اغاثة الأمة / ٨٩ ، الكرملى : النقود العربية / ٢٦ .
(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية / ٦١٧ .
(٣) المقريزى : اغاثة الأمة /٨٩، انظر : بدر عبد الرحمن : النشاط التجارى فى مصر / ١٥٨ .
(٤) راشد البراوى : حالة مصر / ٢٠٣ .
(٥) ايليا المطران : مقالة ايليا المطران فى المكاييل والأوزان ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٩ رياضيات / ورقة ٥ .
(٦) الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، القاهرة ١٩٤٦ ، /١٥ ، المقريزى : اغاثة الأمة / ١٢٥ ، انظر : بدر عبد الرحمن : النشاط التجارى / ١٥٩ .
(٧) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى / ٢٤٢.
(٨) ابن مماتى ، أبو المكارم أسعد بن مهذب الخطير ابى سعيد بن مينا (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) : قوانين الدواوين، القاهرة ١٩٤٣ ، /٤٠٥ .
(٩) البكرى : المغرب /٨٩، ٩١، انظر : عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى/٢٩٧.

على منطقة واحدة لا يتعداها ، حيث كانت تختلف من بلد لآخر [١].

ونعنى هذا وجـود وحـدة فى الموازين بين البلدين من رطل وأوقـيـة وقنطار مع ملاحظة أن الموازين المغربية أثقل وزناً من نظيرتها المصرية مما يترتب عليه ضربها إلى أجزاء معادله عند التعامل بهذه الموازين فى كلا الاقليمين.

وكانت تستعمل فى مصر أوزانا مصنوعة من الزجاج لوزن نقود الفضه وأخرى لوزن نقود الذهب ، وشاع ذلك فى عصور معظم الخلفاء الفاطميين ، وكانت تحمل هذه الأوزان ضمن كتاباتها القاب السكة التى كانت تنقش على المعادن النفيسة من الذهب والفضة ويبدو أن هذه الأوزان قد تم اختيارها من الزجاج حتى تظل نظيفة، وبذلك تحافظ على وزنها [٢] ، وكانت هذه الأوزان اما قطع مستديرة أو اسطوانية مخروطية الشكل ، ومن المرجح أن هذه الأوزان الزجاجية كان خاصا بمصر التى كانت حلقة الوصل بين الشرق والغرب [٣] ، كما كان يستخدم فى المغرب نوع من الأوزان يسمى الصنوج ، وهو قطعة مستديرة بقدر الدرهم ، اتخذها بنو زيرى ، ومن قبلهم الفاطميين لوزن الاشياء الثمينة ، وكان ينقش على أحد وجهيها بكتابة بارزة ما تساويه من وزن [٤]، على أن هذه الصنوج انقرضت فى إفريقية بعد انفصال الدولة الزيرية عن الفاطميين ، وبذلك انعدم رواجها فى البلاد [٥] .

على أن استخدام الصنج المصنوعة من الحديد كان يعرضها للتلف، وكان المحتسب

---

(١) البكرى : المغـرب ، ٢٦/، ٢٧ ، ٦٢ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٦٢، ابن صاحب الصلاة : المـن بالامـامة / ٤٥١ ، ٥٠٩ ، ٥١٢.

(٢) Lane poole, A History of Egypt, pp. 123 - 124

(٣) زاشد البراوى : حالة مصر / ٢٠٥، ٢٠٦

(٤) المقدس : أحسن التقاسيم / ٢٤٠، ليدن ١٩٠٦.

(٥) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة ١/ ٤٢٣، ٤٢٤.

ينظر فى هذه الموازين ، ويتشدد فى منع استخدام الأوزان من الحجارة [1] واذا دعت الحاجة الى استخدامها من الحجارة لقصور يده عن اتخاذها من الحديد ، أمره المحتسب بتجليدها ، ثم يختمها المحتسب بعد العيار [2] ، ولم يكن هذا التشديد على التجار فى أسواق مصر فحسب ، بل كان ذلك متبعا فى أسواق المغرب ، حيث كان التجار فى المغرب يغشون أوزانهم ، ويستعملون الحجارة بدلا من صنج الحديد ، وتزخر كتب الحسبة بالكثير من الأمثال عن أساليب غش التجار [3] ، ولذا نرى التجار فى معاملاتهم ينصون فى وثائق البيع والشراء على نوع الكيل والوزن [4] .

أما عن المكاييل فينقل لنا ابن سلام [5] ثمانية أصناف من المكاييل التى كانت مستخدمة فى الدولة الإسلامية ، وهى الصاع والمد والفرق والقسط ، والمدى ، والمختوم والقفيز والمكوك ، وان كان اهمها المد والصاع ، وبالنسبة لمصر أورد القلقشندى [6] المكيلات التالية :

القدح ٢٣٢ درهماً ، الويبة ١٦ قدحاً ، الأردب ٩٦ قدحاً .

ويبدو ان الاردب كان من المكاييل الشائعة فى مصر قبل الإسلام ، فقد جاء فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام دينارها ومديها ، ومنعت مصر دينارها وإردبها ﴾ [7] .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين / ٣٣٢، المقريزى : الخطط المقريزية ٤٦٤/١

(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة / ١٩ .

(٣) ابن عبدون ، محمد بن أحمد التجيبى : رسالة فى القضاء والحسبة ، نشرها ليفى بروفنسال / القاهرة ١٩٥٥ ، ٣٧، ٤٢، ٥٩ .

(٤) ابن عذارى : البيان ٣٨/٤، ٣٩ ، انظر : عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادى ./٢٩٧

(٥) ابن سلام : الأموال / ٢٠٦ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ٣ /٤٤١، انظر : إيليا المطران : مقالة ايليا المطران ورقة ٦ ، ٧

(٧) ابن سلام : الأموال / ٣٧ .

وكذلك كان من بين المكيلات القسط فمن بردية من كشف حساب عطار كان هناك مكيال يسمى القسط ، واستنتج محقق الوثيقة أن القسط عيار زنته ٤٨أوقية [١] ، والقفيز مكيال من مكاييل الحبوب وسعته ما يقرب من ربع اردب[٢] ، كما كان الصاع وهو خمسة أرطال وثلث ، والمد ربعه وهو رطل وثلث ، وأما الصاع المختوم ، فكان يجعل فى أعلاه خاتما مطبوعا لئلا يزاد فيه ولا ينتقص منه [٣] ، وكانت هذه المكاييل أيضا تختلف من مكان إلى آخر .

وأما وحدة المكاييل فى بلاد المغرب فكانت المد والوسقة والقلة والقفيز ، والصحفة والقفة [٤] ، كما كان يستخدم السطل فى المغرب الأقصى [٥] ، ولم تكن هذه المكاييل موحدة القيمة كما هو الحال فى مصر ، ولذا نجد قيمتها تختلف من مكان إلى آخر ، يتجلى ذلك من قول البكرى [٦] « والقفيز بالقيروان وأعمالها ثمانى ويبات ، وعن أهل تاهرت يقول : « ومدهم الذى يكتالون به خمسة أقفزة ونصف » .

وبالنسبة للمقاييس فيهمنا المقاييس التى كانت تستخدم فى الأسواق لقياس الأقمشة ومنها الذراع الهاشمى ، والذراع العثمانى والشبر وهو معيار يعادل المسافة بين أصابع اليد ، ويذكر القلقشندى[٧] أن الأقمشة تقاس فى القاهرة بذراع اليد وأربع أصابع

---

(١) جروهمان : أووراق البردى العربية ٦/١١٤، ١١٥ .

(٢) القفيز من مكاييل الأشياء اليابسة . واختلفت مقاديره فى البلاد الاسلامية فى العصور المختلفة (الشيزرى نهاية الرتبة / ١٧ ، حاشية رقم ٣) ، وهو أيضا مقياس للأرض وقدره مائة واربعة واربعون ذراعاً، (المقريزى : اغاثة الامة / ٩٣ ، حاشية رقم ٤٩) .

(٣) ابن سلام : الأموال / ٢٠٧ .

(٤) البكرى : المغرب / ٢٦ ، ٢٧ ، ٦٩ ، ٩١ ، ١١٢ .

(٥) ابن عذارى : البيان ٤/٩٩ .

(٦) البكرى : المغرب / ٢٦، ٦٩ ، ٩١ ، ١١٢، ١١٧ .

(٧) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/٤٤١ .

مطبوقة ويزيد عليه ذراع القماش بالفسطاط بعض الشيء ، ربما زاد فى بعض نواحى الديار المصرية ، ويذكر المقدسى[1] أن الذراع الشرعى أربعة وعشرين اصبعاً ، ويرى أحد الباحثين [2] أن طوله ٨ر٥٧سم .

تلك كانت أهم الموازين والمكاييل والمقاييس التى كانت مستخدمة فى كل من مصر والمغرب ، والتى كانت تشكل وسيلة هامة من وسائل التعامل فى التجارة بين البلدين ويتضح من خلال العرض السابق التشابه فى هذه الوحدات الذى ترتب عليه تيسير التبادل التجارى .

---

(١) المقدسى: أحسن التقاسيم / ٦٥ .

(٢) كرسويل : تأسيس القاهرة ، ترجمة السيد محمد رجب ، المقتطف ، نوفمبر ١٩٣٤ ، / ٣٠٥، حاشية رقم (٢) .

الفصل الثالث

(العلاقات الثقافية)

أولاً : مراكز الثقافة فى مصر .

* المساجد الجامعة .
* دار العلم .
* القصور والمكتبات .
* المدارس .

ثانياً : مراكز الثقافة فى المغرب .

* المساجد الجامعة .
* الرباطات .
* المكتبات .

ثالثاً : الصلات الثقافية .

أولاً : العلوم الدينية .

ثانياً : العلوم اللغوية وأدابها .

ثالثاً : العلوم العقلية .

أولا : مراكز الثقافة في مصر :

المساجد الجامعة :

تعتبر المساجد من أهم المراكز الثقافية ليس فى مصر فحسب ، بل فى الأمصار الاسلامية جميعها ، وكان المسلمون يحرصون على بناء المساجد الجامعة عند انشائهم المدن فى الأمصار المفتوحة ، لتقوم بوظائف متعددة ، لعل من أبرزها قيامها بدور المدرسة والجامعة فى العصور الحديثة ، فقد عرف التدريس فى المساجد منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام (١) .

شهد جامع عمرور بن العاص(٢) منذ نشأته ، حياة علمية مزدهرة ، تلقى فيه دروس الوعظ بعد الصلاة منذ سنة ٣٨ هـ / ٦٥٨ م وحتى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩م، وانتشرت به مع الوقت حلقات العلماء والفقهاء التى اقبل عليها طلاب العلم من كل حدب وصوب ، وكثرت حلقات الدرس فى جامع عمرو فى العصر الاخشيدى ، فيروى ابن زولاق ، أنه كان به فى سنة ٣٢٦ هـ/ ٩٣٧ م خمسة عشر حلقة للمالكيين وللشافعيين مثلها ، ولاصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات (٣).

---

(١) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ١٩٦٩، ٤٣/٢، ١٤٤ .

(٢) عرف جامع عمرو بعدة أسماء منها الجامع العتيق ، وجامع مصر ، ومسجد أهل الراية وغيرها، وكلمة جامع معناها المكان الذى يجتمع فيه الناس ، وهذا يختلف فى معناه عن كلمة المسجد ، فالمسجد هو الموضع الذى يسجد فيه والجامع نعت للمسجد ، وما كانوا فى الصدر الأول للاسلام يفردون كلمة «الجامع» وانما كانوا تارة يقتصرون على كلمة المسجد ، وطوراً يصفونه فيقولون المسجد الجامع ، وآونة يضيفونها إلى الصفة ، فيقولون المسجد الجامع ، ثم تجوّز الناس بعد ذلك واقتصروا على الصفة ، فقالوا للمسجد «الكبير» ، وللمسجد الذى يصلى فيه الجمعة وان كان صغيراً «الجامع» لأنه جمع الناس لوقت معلوم .

راجع : وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٦٤، ١١٦/، ١١٩ ، محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ١١/ ، حاشية (١) .

(٣) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ١٧٣/١ .

كما شهد جامع عمرو بن العاص اعلان مولد الدولة الفاطمية فى مصر ، فقد أقيمت فيه صلاة الجمعة فى ١٩ شعبان سنة ٣٥٨هـ/٣ يوليو ٩٦٩م بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة ، وخطب الفقيه هبة الله بن أحمد وهو يرتدى البياض شعار الدولة الجديدة ، ودعا للمعز لدين الله لأول مرة على منابر مصر (١) .

حظى جامع عمرو باهتمام الخلفاء الفاطميين ليقوم بدوره الدينى ، والثقافى كمركز من مراكز الثقافة ، فقد جاء بسجل فاطمى بولاية مصر ما يأتى : (٢) «وتقدم بحفظ الجامع العتيق وصونه وتوفيره على ما يليق به ، وتوقيره ، وأمنع من ابتذاله فى غير ما جعل له ... ووفر تام العناية وشامل الرعاية على من به من الفقهاء والعلماء والمتصدرين والقراء وحضهم بالتكرمة على المبالغة فى طلب العلوم ، والتزود من صالح الاعمال ليوم الوقت المعلوم » .

وفى عهد الخليفة العزيز زاد فيه الوزير ابو الفرج يعقوب بن كلس الفوارة التى تحت قبة بيت المال وذلك فى سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م (٣) ، كما استبدل منبره وجعل مكانه منبر مذهب(٤) ، «وفى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م انزل من القصر الى الجامع العتيق الف ومئتان وثمانية وتسعون مصحفاً فى اجزاء مختلفة فيها ما هو مكتوب كله بالذهب ، وسمح للناس بالقراءة فى هذه المصاحف»(٥) .

وقد أمدنا الرحالة الذين زاروا مصر فى عصر الخلافة الفاطمية بوصف دقيق

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٧٩/١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ١١٤/١ ، طبعة ١٩٦٧ ، ادريس عماد الدين : عيون الأخبار ١٥٦/٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ١٠ / ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

(٣) المقريزى : الخطط ٢٥٠/٢ .

(٤) نفس المصدر ، ٢٥٠/٢ .

(٥) نفس المصدر ، ٢٥٠/٢ .

للحياة العلمية فى جامع عمرو ، فيصف المقدسى[1] الذى زار مصر فى عهد الخليفة العزيز الحركة العلمية الدينية بقوله : «ليس فى الاسلام أكبر من جامعه .. وسائر المذاهب بالفسطاط موجوده ظاهرة ، والفتيا اليوم على مذهب الفاطمى ، والقراءات السبع فيه مستعملة ، غير أن قراءة ابن عامر اقلها » ، كما يقول فى موضع آخر : «.. جامعهم مغتص بحلق الفقهاء ، وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ، ودخلته مع جماعة من المقادسه ، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين دوروا وجوهكم الى المجلس، فننظر فاذا نحن بين مجلسين ، على هذا جميع المساجد ، وعددت فيه مائة وعشرة مجلساً ، كما يعبر ناصر خسرو[2] عن المعنى نفسه بقوله : « .. ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون ، وهو مكان اجتماع سكان المدينه الكبيرة ، ولا يقل من فيه عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء ، والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها » .

كما يعطينا الرحالة ابن جبير[3] الذى زار مصر سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢م وصفاً شائقاً لهذا الجامع كمركز من مراكز الثقافة بقوله : « إن لجامع عمرو بن العاص من الفائدة نحو الثلاثين ديناراً مصرياً فى كل يوم متفرقة فى مصالحه ، ومرتبات قدمته وسدنته والطلاب » .

أما ابن سعيد المغربى[4] الذى زار مصر فى أوائل القرن السابع الهجرى ، يصف الحركة العلمية بقوله : « .. واستحسنت ما أبصرته فيه من حلق المصدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن » .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم / ١٩٧ ، ٢٠٢ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامه / ٥٩ .

(٣) ابن جبير : الرحله / ٥١ .

(٤) ابن سعيد المغربى : المغرب ١/ ٧ .

فهذه الروايات تؤكد المكانة العلمية للمسجد الجامع فى الفسطاط التى لم تتأثر بوجود جامع ابن طولون والجامع الأزهر ، ويبدو أن جامع عمرو بن العاص كان أحد معاقل أهل السنة فى تلك الحقبة ، ولعل مما ساعد على ذلك موقعه وسط الفسطاط ملاذ السنة طوال العصر الفاطمى ، وكانت حلقات دروس الفقه المالكى تفوق غيرها ، فما قدم فى هذا المحراب إمام إلا وهو يتفقه لمالك ويقرأ لنافع»[1] كما كان أبو بكر النعالى (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م) إمام المالكية فى زمانه .. وإليه كانت الرحلة والامامة بمصر ، وكانت حلقته فى الجامع تدور على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها»[2] .

وعلى الرغم من وجود الدراسات السنية بجامع عمرو ، فان الدولة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها ، وتدريس التعاليم الاسماعيلية فى جامع عمرو ، فكان فقهاء الاسماعيلية يعقدون فيه مجالسهم لتدريس كتاب الوزير يعقوب بن كلس المعروف بالرسالة الوزيرية[3] ، التى اشترك فى تصنيفها أربعون فقيها من فقهاء المذهب الاسماعيلى[4]، وهو كتاب ألفه فى الفقه الشيعى على مذهب الاسماعيلية ، يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، «اقتفى فيه فعل القاضى النعمان فى ما ألفه ، وصنفه ، وسلك نهجه »[5] ، ونذكر من الدعاة الفاطميين الذين كانوا يلقون دروسهم فى جامع عمرو القاضى الحسين بن على بن النعمان ، كان من

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم / ٢٠٢ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ١/ ٤٥١ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧/ ٣٠ ، المقريزى : الخطط ٢/ ٣٦٢ ، ادريس عماد الدين : عيون الأخبار السبع السادس / ٢٣٢ .

(٤) ابن الصيرفى : الاشارة / ٥٠ .

(٥) ادريس عماد الدين : عيون الأخبار ٦/ ٢٣٢ .

أقطاب الفقه الاسماعيلى ، وتولى قضاء مصر سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٨م [١] ، والقاضى عبد العزيز بن محمد بن النعمان الذى كان يلقى درسه « من كتاب جده واختلاف المذاهب» [٢] ، وتحفظ لنا كتب التراجم والتاريخ كوكبة من العلماء والأدباء الذين تحلقوا فى جامع عمرو ، نذكر منهم على بن نصر بن سليمان الزنبقى ، كان يلقى دروسه فى النحو بجامع عمرو سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م[٣] ، وأبا أسامة جنادة بن محمد النحوى الذى كان له ذيوع صيت فى علوم اللغة ، وقتله الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م[٤]، وأبا الحسن طاهر بن بابشاذ (ت ٤٦٩/١٠٧٦م) ، كانت له حلقة لتدريس الأدب بجامع عمرو ، فضلا عن عمله فى تحرير السجلات الصادرة عن ديوان الانشاء الفاطمى[٥] ، والحسين بن حميد الذى كانت له حلقة لاقراء القرآن وتدريس النحو[٦] ، وأبا عمرو عثمان بن على بن عمر السرقوسى ، كانت له حلقة لتدريس النحو بجامع عمرو ، وترك لنا العديد من المؤلفات فى القراءات والنحو والعروض[٧] ، كذلك أبا الفضل عبد الله بن الحسن المعروف بابن الجوهرى (ت ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧م) الذى يعتبر بحق من أشهر فقهاء مصر الذين تصدروا للوعظ فى جامع عمرو فى عهد الخليفة المستنصر [٨] .

يتضح من ذلك أن الخلفاء الفاطميين عملوا على تشجيع العلم والعلماء ، وأفسحوا

---

(١) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاه / ٥٩٦ـ ٥٩٧ .

(٢) الكندى : كتاب الولاة / ٦٠٠ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٣٦٣/٢ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٧٢/١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٨٠/٢ .

(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣١٨/٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠٥/٥ .

(٦) ياقوت : معجم الأدباء ١٣٠/١٢ ، ١٣١ ، انظر : محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية/١٢٣ .

(٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣١٨/٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٠٥/٥ .

(٨) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣٢٥/٢ .

صدورهم لهؤلاء العلماء الذين يخالفونهم فى المذهب ، بالتحلق فى جامع عمرو مركز الدراسات السنية ، مما حدا بطلاب العلم من المشرق والمغرب أن ييمموا وجوههم صوب هذا الجامع ، وينهلوا من علومه ، ودفع بفقهاء المالكية المغاربة أن يتصدروا الوعظ فى حلقاته فيذكر ابن عذارى (١) فى حوادث سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠م أن الفقيه أبا عبد الله بن عبد الصمد ، كان والده فقيها يعظ الناس بجامع مصر وهكذا كانت تتلاقح الآراء ، وتمتزج الثقافات ، وتصبح افرازاتها متشابهة لا فرق بين أندلسى ومصرى ومغربى(٢)، ومن هنا كان جامع عمرو بمثابة الجسر الذى عبرت عليه الثقافة العربية فى دراسات علوم القرآن والنحو واللغة من المشرق إلى المغرب .

الجامع الأزهر :

شرع جوهر الصقلى فى وضع أساس الجامع الأزهر أو جامع القاهرة فى ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ/ ٩٧٠م (٣) ، وتم بناؤه فى عامين وثلاثة أشهر ، فكان أول مسجد أقيم فى مدينة القاهرة ، ليكون الجامع الرسمى للدولة ، ومركزا لنشر الدعوة الاسماعيلية ، ورمزاً لظفرهم وانتصارهم على الخلافة العباسية (٤) .

---

(١) ابن عذارى : البيان ١/٤٠٤ .

(٢) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية / ٩٤ .

(٣) كان الاسم الذى أطلق على هذا المسجد هو «جامع القاهرة» نسبة إلى العاصمة الجديدة ، أما تسميته بالأزهر فقد بدأت متأخرة ، وظل الاسمان يطلقان على هذا المسجد عدة قرون ، ثم اختفت التسمية الأولى ، وأصبح الأزهر هو الاسم الوحيد ، ويردد المؤرخون أسباباً شتى لاطلاق اسم الأزهر ، فيرى فريق منهم أن لفظة الأزهر مشتقة من الزهراء لقب السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينسب فريق ثان من المؤرخين أن الجامع الأزهر أطلق عليه بعد إنشاء القصور الفاطمية فى عصر العزيز بالله ، فقد كان يطلق عليها اسم القصور الزاهرة .

راجع : المقريزى : اتعاظ الحنفا ١/١٣٧ ، ٢/٦٧ ، ١٥٩ ، الخطط ، ٢/٢٧٣ ، محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ١٨ ، ١٩ ، على عبد الواحد وافى : لمحة من تاريخ الأزهر ، ٢/ .

(٤) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر / ١٨ .

وكان مطلع الدراسة بالأزهر فى أواخر عهد المعزلدين الله الفاطمى فى صفر سنة ٣٦٥ هـ أكتوبر ٩٧٥ م ، حين جلس قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان القيروانى بالجامع الأزهر ، أملى مختصر أبيه من فقه آل البيت ـ أى فقه الشيعة ـ وهو المسمي بكتاب « الاقتصار » ، وكان جمعا عظيماً ، وأثبت أسماء الحاضرين [١] ، وكانت هذه أولى الحلقات العلمية التي عقدها بنو النعمان في الجامع الأزهر ، وكان بنو النعمان من أكابر علماء المغرب الذين اصطفتهم الخلافة الفاطمية ، وجعلتهم دعامتها والسنتها الروحية ، فلحقوا بها إلي مصر [٢] ، والمعروف أن الدولة الفاطمية كانت تعتمد في توطيد سلطتها علي عصبيتها المغربية ، ثم على أنصارها وخاصتها من الموالي ، وكان الأفذاذ من العلماء المغاربة يعقدون حلقاتهم العامة في الجامع الأزهر ، فقد اصطحب المعز لدين الله في موكبه عند رحيله إلي مصر جمعاً وافراً من فقهاء الشيعة وأعلامها مثل قاضى القيروان أبى عبد الله بن منصور بن أحمد بن حيون الاسماعيلى القيروانى ، هذا الرجل الذي تحدثنا المصادر عنه بأنه كتب كتبا كثيرة فى فقه الشيعة مثل دعائم الاسلام في الحلال والحرام ، وكتاب ابتداء الدعوة ، وكتاب الهمة في اتباع آداب الأئمة ، وكتاب اختلاف الفقهاء وشرح كتاب الأخبار ، وكتاب المجالس والمسايرات ، وغيرهما مما يدل علي علو كعبه في الفقه والدين ، وتوقد قريحته فى التأليف والتصنيف [٣] .

---

(١) المقريزى : الخطط ٣٤١/٢، اتعاظ الحنفا٢٢٧/١
نشر كتاب الاقتصار الأستاذ محمد وحيد ميراز ووضع له مقدمة باللغة الفرنسية / وصدر عن دار بريل، لندن ١٩٥٧.

(٢) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر /٤٧ .

(٣) المقريزى : الخطط ٣٩١/١، اتعاظ الحنفا ٢٨٥/١ .

* القاضى النعمان المعروف بابن حيون (ت٣٦٣هـ)، لا نكاد نجد من بين رجالات الدولة، الفاطمية من خدم الدعوة الاسماعلية وعبر عن معتقداتها ، ودافع عنها ، وأرخ لأئمتها مثله، فهو من أعظم فلاسفة الشيعة الاسماعيلية ، وكان النعمان على صلة وثيقة بالخلفاء الفاطميين فى المغرب ، وحضر الى مصر بصحبة الخليفة المعز ، وظل ملازما له حتى وفاته وتولى منصب=

والظاهر أن حلقات بني النعمان المغاربة في الجامع الأزهر ، جعلت هذا الجامع يتجه منذ ذلك الوقت المبكر الإتجاه العلمى ، بقيام هؤلاء على نشر الدعوة الاسماعيلية كحركة فكرية وثقافية من خلال ساحات هذا الجامع.

على أن الفضل فى هذه البداية النشطة يرجع إلى الوزير يعقوب بن كلس ، الذى كان يشغل وقتذاك وزير الخليفة العزيز بالله ، وقرأ على الناس كتاباً ألفه فى الفقه الشيعى على مذهب الاسماعيلية(١)، وكان يجلس للسماع منه خواص الناس وعوامهم، وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء (٢) ، فكانت حلقات ابن كلس فى الجامع الأزهر أول مجالس جامعية حقيقية عقدت فى هذا الجامع ، وتمتاز عن مجالس بنى

= القضاء والدعوةفى الدولة الفاطمية الكثير من أفراد أسرته .
عن القاضى النعمان ومؤلفاته راجع: القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٦-٣٦، الكندى: الولاة والقضاة ، (بيروت ١٩٠٨)، /٥٨٩، ٦١٠، ٦١١، انظر : عطية مصطفى مشرفه : المذهب الشيعى قبيل الدولة الفاطمية وبعدها مجلة المقتطف ، أبريل ١٩٤٥، القاهرة ، / ٣٢٦، ٣٢٧ .

(١) الاسماعيلية، يدعون ايصال نسبهم إلى السيدة فاطمة والامام على، وزعموا أن الامام بعد جعفر الصادق هو ابنه اسماعيل نصاً عليه ، واختلفوا فى وفاته فى حياة أبيه فمنهم من قال إنه أظهر موته تقية من خلفاء بنى العباس، ومنهم من قال إن الموت صحيح ، ولكن النص لا يرجع القهقرى ، وأن الفائدة من النص بقاء الامامة فى أولاد المنصوص عليه فالامام بعد اسماعيل هو محمد بن اسماعيل ، ويرون أن الامامة لا تنتقل من أخ إلى أخيه بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ، وأن طاعة الامام واجبة عليهم ، ومن أهم معتقداتهم التأويل الباطن ، واحتجوا فى ذلك ببعض آيات القرآن الكريم ، وهم بذلك أوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن ، ومن ثم فالاسماعيلية لم يأخذوا بالرأى والقياس فى التفسير والفقه .

(اليمانى : الأنوار اللطيفة / ١١٨ وما بعدها ، المقريزى : ترجمة المهدى عبيد الله من كتاب المقفى، تحقيق محمد اليعلاوى ، حوليات الجامعة التونسية العدد ١٩٨٦/٢٥، /٤٣ ، ٥٥ ، محمد حسن الأعظمى : الحقائق الخفية /٢٩، ٣١ ، برنارد لويس : أصول الاسماعيلية ، ٨٢وما بعدها ، حسن خضيرى أحمد : قيام الدولة الزيدية /١٥٨، ١٥٩)

(٢) المقريزى : الخطط ٣٤١/٢، انظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية /١٣٧ .

النعمان يتحريرها من الصبغة المذهبية(١) للدعوة الاسماعيلية واتجاهها نحو الغايات العلمية قبل اتجاهها نحو المثل المذهبية .

وعلى عهد الخليفة العزيز بالله خطا الأزهر خطوة أخرى نحو الأخذ بالنظام التعليمى ، ففى عام ٣٧٨هـ/٩٨٨م استأذن ابن كلس الخليفة العزيز فى أن يعين بالأزهر جماعةمن الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ، ويأخذون عنه الفقه الشيعى ليعلموه الناس(٢) ، ويعقدون مجالسهم بالأزهر ، وكان عددهم سبعة وثلاثين ، ورئيسهم ومنظم حلقتهم الفقيه أبو يعقوب قاضى الخندق ، وقد وافق الخليفة العزيز على تعيينهم بالأزهر ، وبنى لهم داراً لاقامتهم بجوار الجامع ، وخصص لهم الرواتب ، وجعل لهم ابن كلس منحاً من ماله الخاص ، وكانت تخلع عليهم الكساوى فى عيد الفطر ، ويصاحبون موكب الخليفة ، وهم يركبون بغلات تمنح لهم فى هذه المناسبة تشريفاً لهم وتكريماً(٣) ، ويعد هذا الأمر أول حدث من نوعه فى تاريخ مصر الاسلامية ، وهو تعيين العلماء للتدريس ، وتخصيص رواتب ثابته لهم (٤) .

وهكذا بدأت الدراسة بالجامع الأزهر ، وجاءه طلاب العلم واستطاع بما فيه من العلماء الرسميين الذين تجرى عليهم الأرزاق الدائمة ، أن يكون من أهم مراكز الثقافة، ولا شك أن الصبغة المذهبية غلبت على الدراسة بالأزهر ، ولا سيما فى بداية عهده ، فقد كان هذا المسجد مركزا هاما لمجالس الحكمة (٥) التى كان يعقدها الدعاة فيه ،

---

(١) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر /٤٣، عطية مصطفى مشرفة : المذهب الشيعى /٣٢٧

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٣٦٧/٣، المقريزى : الخطط ٣٤١/٢

(٣) مؤلف مجهول : شرح اللمعة من أخبار المعز، نسخة مصورة بجامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٢ ، ورقة ١١، القلقشندى : صبح الأعشى ٣٦٣/٣ ، محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر /٤٣ ـ ٤٤ .

(٤) المقريزى : الخطط ٣٦٣/٢.

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، ٤٣٧/١٠ .

والتى كانت غايتها بث دعوة الدولة الفاطمية ، وتوطيد امامتها ، فكانت علوم الشيعة وفقه آل البيت تحتل من حلقاته الدينية المقام الأول (1) .

تعهد الخلفاء الفاطميون الجامع الأزهر بالتجديد والعمارة ، وخصوه بالكثير من رعايتهم وعنايتهم ، وخصصوا الاموال للانفاق عليه ، فوقفوا عليه الأحباس ، وقد حفظ لنا المقريزى نص وثيقة وقفية الحاكم بأمر الله التى تتضمن حبس بعض أملاكه من دور وحوانيت ومخازن لتنفق على الأزهر ، وجامع راشده وجامع المقس ودار الحكمة ، وأفرد لكل منهما نصيباً خاصاً ، كما عين رواتب الخطباء والمشرفين والأئمة، وخصص أحباسا للنفقة منها على فرش الجامع وتأثيثه وانارته بالقناديل والزيت (2) .

لم يقتصر الأمر عند هذا الحد ، بل كان للأزهر فى العصر الفاطمى موارد أخرى غير الأحباس تشمل الأعطيات ، ومال النجوى الذى يؤدية الأفراد الذين يحضرون مجالس الحكمة (3) وكان ينفق بعضه على الدعاة ، وبعضه الآخر يخصص للجامع الأزهر ليوزع على من يحتاج إليه من الطلاب ، وكما كان لهؤلاء نصيب من الصدقات النوعية والمالية التى يمنحها الأمراء والكبراء لهم ، وقد أغدق الفاطميون العطايا على علماء الأزهر وطلابه ، مما هيأ لهم فرصة التفرغ لتحصيل العلم ، وقد ساعد هذا على أن يكون الأزهر مركزا ثقافيا ، يقصد إليه الطلاب من مشارق الأرض ومغاربها، يتلقون الدراسة ، وتجرى عليهم الأرزاق ، وتقيم كل جماعة منهم فى مكان خاص بها .

---

(1) خطاب عطية خطاب : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول /١١٤

(2) المقريزى: الخطط ٢/٢٧٣ ، ٢٧٥

(3) نفس المصدر ، ١/٣٩١.

هذا هو نظام الأروقة الشهير التى يقول عنها المقريزى (١) عام ٨١٨هـ « .. لم يزل فى هذا الجامع منذ بنى عدة من الفقراء ، يلازمون الاقامة فيه ، وبلغت عدتهم فى هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلا ، ما بين عجم وزيالعة ، ومن أهل ريف مصر ومغاربة ، ولكل طائفة رواق يعرف بهم .. » .

يظهر من ذلك أن نظام الأروقة بالجامع الأزهر يرجع إلى عصوره الأولى ، غير أن هذه الأروقة لم تستخدم كمساكن للطلبة فى بداية الأمر ، إنما كانت سكنا للفقهاء عندما أخذ الخليفة العزيز باقتراح وزيره يعقوب بن كلس الذى عرضه عليه سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م كما سبق ذكره بتنظيم دراسة علمية فى الأزهرتضم سبعة وثلاثين فقيها ، وتجرى عليها الدولة المرتبات وتعد دارا لسكناهم ، وتنفيذاً لهذا الاقتراح ابتنى العزيز بالله داراً بجوار الجامع الأزهر يقيمون فيها .

كما يجب أن نفرق بين الأروقه كنظام هندسى معمارى وبين الأروقه كمساكن للطلبة ، فيذكر أحد علماء الآثار (٢) أن الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله قد بنى أعمدة رخامية تحيط بالجوانب الأربعة لصحن الجامع ، كما بنى عقوداً فوق هذه الأعمدة ، وعرفت هذه الاضافة المعمارية باسم رواق ، وقرر أن إضافة رواق إلى صحن الجامع كانت إحدى التأثيرات المعمارية الاسلامية التى دخلت إلى مصر من بلاد المغرب ، لأنها كانت موجودة فى مسجد عقبة بن نافع فى القيروان ، وفى الجامع الكبير فى سوسه ، وفى جامع الزيتونه فى تونس والتى تعرف باسم المجنبات .

---

(١) المقريزى : الخطط ، ٢/٢٧٦ .

(٢) حسن عبد الوهاب باشا : العمارة الاسلامية فى العصر الفاطمى ، مجلة العمارة ، العدد ٥ ـ ٦ سنة ١٩٤٠ ، /٣١٤ . (توجد مجموعة من أعداد هذه المجلة فى مكتبة متحف الفن الاسلامى بالقاهرة) وانظر : سعاد ماهر محمد : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، القاهرة ١٩٧١ ، ١/١٩٧ـ ١٩٨ .

على أن رواق المغاربة يعتبر أقدم أروقة الجامع وأهمها ، ومازال محتفظاً بمكتبته القديمة ، وهو مخصص لطلاب ليبيا والجزائر وتونس ومراكش ، ولا يستحق من أوقافه إلا من كان مالكى المذهب [١] ، وفى مكتبة هذا الرواق كان يبحث ويراجع ابن خلدون ومن بعده شهاب الدين المقرى وله تعليقات وتقييدات كثيرة على بعض مخطوطات المكتبة [٢] .

ومما يجدر ذكره أن الجامع الأزهر فى ذلك العصر كان يتصدر للتدريس فى حلقاته العلمية النابغون فى كافة فروع العلم والمعرفة ، فكانت تدرس فيه علوم الطب والفلسفة والرياضيات والفلك [٣] ، كما كانت تعقد به حلقات علمية تخصص للنساء[٤] ، وهكذا أخذ الأزهر ينافس مسجد الفسطاط فى كثرة العلماء وكثرة المتعلمين.

كذلك تميز العصر الفاطمى بحركة نشطة فى بناء العديد من المساجد ، التى غدت بمثابة مراكز للثقافة والعلوم ، نذكر منها : جامع القرافة ، الذى أنشأته السيدة تغريد زوجة الخليفة المعز لدين الله سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م ، وقدر لهذا الجامع أن يسهم بدور كبير فى نشر الثقافة ، فضلاً عن دوره الدينى ، ويذكر المقريزى أنه كانت تعقد به مجالس للوعظ ، يتحلق فيها بنو الجوهرى ، ويعقبها توزيع الصدقات على الفقراء[٥] .

وأيضاً جامع الحاكم بأمر الله ، الذى بدأ بناءه الخليفة العزيز بالله ، خارج باب

---

(١) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر / ٣٠٢

(٢) نفس المصدر، / ٣٠٠

(٣) القفطى ، جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م) : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٣٢٦هـ / ٧٤ ، ١٥٥ ، ١٨٧ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء / ٥٤٨، ٥٤٩.

(٤) المقريزى : الخطط المقريزية ، ٣٩١/١.

(٥) نفس المصدر ، ٣١٨/٢.

الفتوح سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م ، تحت إشراف وزيره يعقوب بن كلس ، وكان يعرف أولا بجامع الخطبة ، ثم أطلق عليه فى فترة لاحقة جامع الحاكم ، أو الجامع الأنور ، وكان هذا الجامع مركزاً للدراسة منذ إنشائه ، فقد تحلق فيه الفقهاء الذين كانوا يتحلقون فى الجامع الأزهر [١] .

كما أسس الحاكم جامع راشدة سنة ٣٩٤هـ /١٠٠٣م وأقام فيه الجمعة ، وخطب فيه فى رمضان سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م [٢] ، وعندما رحل الفقية أحمد بن عبد الله بن هشام أحد علماء القرآن الكريم من المغرب إلى مصر ، أقام به ، وعقد به حلقة لتدريس القراءات ، وكان لا يقبل من طلاب حلقته شيئا نظير دروسه لهم ، بل إنه كان يرتزق ويكفى مؤونة نفسه من نسخه لكتب الأدب داخل المسجد [٣] ، ومن المساجد التى أقيمت فى عهد الحاكم أيضا جامع المقس على شاطىء النيل [٤].

وكان بمصر عدا هذه المساجد الجامعة الكبيرة مساجد أخرى كثيرة فى المدن المصرية فيروى ناصر خسرو [٥] : « وكان لكل مسجد فى جميع المدن والقرى التى نزلت بها من الشام إلى القيروان نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السيرج والحصر وسجاجيد الصلاة ورواتب القوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم » .

وتتميز الاسكندرية بالمساجد الكثيرة نحو عشرين ألف مسجد [٦] ، وكان من الطبيعى أن تضم بعضها الكثير من الطلاب والعلماء المغاربة ، وليس أدل على ذلك ما

---

(١) المقريزى : الخطط ، ٢٧٧/٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهره ، ١٧٧/٤ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ٧٨/٤، المقريزى : الخطط ٢٨٢/٢

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٧٠/١

(٤) المقريزى : الخطط ٢٨٣/٢ .

(٥) ناصر خسرو : سفر نامه ٥٦/

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ٣٩٦/٣

كان من أمر أبى بكر الطرطوشى الذى نزل الاسكندرية ، وأقام بها معلما ، وكان من أئمة العلم (١) وكذلك القاضى أبى بكر بن العربى الذى قدم مصر أخر سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م فى عهد الخليفة المستنصر ودرس على علمائها ، وبعد عودته من الحج عرج على الاسكندرية فى أوائل سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م وتوفى والده ودفن فيها (٢) .

وكذلك تحوى الكثير من مساجد الاسكندرية أضرحة علماء مغاربة ، الذين توافدوا على ثغر الاسكندرية فى العصر الفاطمى ، لقربها من المغرب موطن الدولة الفاطمية الأول (٣) ، وكانت تمثل لهؤلاء المغاربة بداية الطريق من المشرق ، لذا دعيت عند الجغرافيين « بباب المغرب » (٤) ، هذا فضلا أن الاسكندرية كقاعدة سُنّيّة ينتشر فيها المذهب المالكى والشافعى ، جعلت منها قبلة للعلماء المغاربة ، لكونها ترضى نزعاتهم المذهبية المالكية ، وكانوا يؤثرونها لذلك على القاهرة القاعدة الشيعية للدولة الفاطمية(٥) .

وصفوة القول أن المساجد ظلت طوال العصر الفاطمى مراكز للثقافة ، ومثابة للعلماء وطلاب العلم ، ولا سيما المغاربة الذين أصبحت تعج بهم حلقات العلم فى هذه المساجد طلابا وأساتذة ، مما عمق من أواصر العلاقات الثقافية بين البلدين .

---

(١) الضبى ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميره (ت ٥٩٩هـ) : بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس القاهرة ١٩٦٧ ، /١٣٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ٤٥٢/١ ، الموسوعة المصرية ، تاريخ وأثار مصر الاسلامية ، (مادة أبى بكر الطرطوشى)، ١٠٠٧/٣ .

(٢) القاضى أبو بكر بن العربى (ت ٥٤٣هـ) : العواصم من القواصم /١٣، ٢٢ ، الضبى : بغية الملتمس / ١٤٢، ١٤٣ .

(٣) جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى /٤٢، ٥٣

(٤) ابن رشيد السبتى الفهرى (ت ٧٢١هـ/١٣٢١م) : رحلة ابن رشيد، رسالة دكتوراه / جامعة عين شمس ، /١٤٤ .

(٥) ابن رشيد : رحلة ابن رشيد / ١٤٦ .

دار العلم :

ومن بين المراكز الثقافية التى ذاع صيتها فى العصر الفاطمى ، تلك الدار التى أنشأها الحاكم بأمر الله فى العاشر من جمادى الآخر سنة ٣٩٥هـ / مارس ١٠٠٥م ، وسماها بدار العلم (١) وجعلها جزءا من قصره ، وعنى بفرشها وزخرفتها ، وزيّن أبوابها وحجراتها بأنفس الستائر ، وعيّن بها خُزّاناً وخُداماً وفراشين للخدمة والسهر على راحة من فيها من العلماء والطلبة ، وحمل إليها من خزائن كتب القصر مجموعات عظيمة من الكتب فى سائر العلوم والآداب « ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك» (٢) ، وعين لها العلماء فى كافة مناحى المعرفة ، فتصدر للتدريس فى دار العلم « القراء والفقهاء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء » (٣) ، ورصدت للانفاق عليها وعلى أساتذتها وموظفيها أموال ضخمة ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر (٤) ، وأبيح الحضور إلى دار العلم لجميع الراغبين ، على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم لتلقى الدروس ، أو القراءة والنسخ فى مكتبتها (٥) ، كما خصها الحاكم بجزء من ريع أملاكه التى وقفها على بعض مساجد القاهرة(٦) .

وقد اتخذت هذه الجامعة فى البدية طابعاً حراً فدعى إليها الأساتذة الذين يعتنقون

---

(١) عن تسميتها بدار العلم أو دار الحكمة راجع : المقريزى : اتعاظ ٥٦/٢ ، الخطط ٤٥٨/١، ٤٥٩ ، محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر / ٥١، ٥٣ ، على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى / ١٠٨

(٢) المقريزى : الخطط ١/ ٥٤٩ ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة / ٦٠

(٣) ابن سعيد : النجوم االزاهرة / ٦٠ .

(٤) يحيى بن سعيد : تاريخ الأنطاكى (بيروت ، ١٩٠٩) / ١٨٨ ، المقريزى : الخطط ٤٥٩/١.

(٥) المقريزى : الخطط ٤٥٩/١ .

(٦) راجع نص وقفية الحاكم الخطط ٤٥٩/١ .

المذهبين الشيعى والسنى ، بيد أن الفقهاء السنيين أبعدوا عنها بعد وقت غير طويل ، وقتل بعضهم(١) ، مما يؤكد أن المظهرالعلمى لم يكن فى الواقع إلا ستاراً للغاية الأصلية التى أنشئت دار الحكمة لتحقيقها ، وأهمها العمل على نشر المذهب الاسماعيلى بطريقة علمية منظمة تمتزج فيها النظريات والآراء الفلسفية بالأصول والمبادىء المذهبية ، وتكون أبعد أثرا فى غزو الأذهان والعقائد من مجالس القصر(٢) ، فنجد أن أول من عينه الحاكم بأمر الله للاشراف على دار العلم كان قاضى القضاة وداعى الدعاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، يقول ابن حجر (٣) : « وفى ولايته فوض الحاكم إليه النظر على دار العلم التى أنشأها » .

وهكذا أصبحت دار العلم مركزا للدعوة الاسماعيلية ، يجتمع فيها داعى الدعاة و فقهاء المذهب الاسماعيلى ، هذا فضلا عن الطلبة الذين يقبلون على دراسة الفقه الاسماعيلى (٤) .

على أن الخليفة الحاكم مالبث أن أضاف إلى العلماء الاسماعيليين طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها ، وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعى المشهور ، وأكبر حفاظ الحديث المصريين فى زمنه (٥) ، وأسامة جنادة بن محمد اللغوى ، وأبو الحسن على بن سليمان المقرى النحوى ، وكان الثلاثة يجتمعون فى دار العلم ،

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ٢٢٢/٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١٥١/٢

(٢) محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر / ٥٣ ، شوقى ضيف : عصر الدول والامارات / ٧٦ .

(٣) ابن حجر : رفع الاصر / ٦٠٠ (ملحق بكتاب الولاة والقضاة)، المقريزى : اتعاظ ٢/ ٥٠، ٨٢.

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ٣٦٢/٣، ٤٨٣،

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٢٣/٣ ، المقريزى : الخطط المقريزية ٤٥٩/١، شوقى ضيف : عصر الدول والامارات / ٨٦ .

وتجرى بينهم محاورات ومناظرات فى الآداب [1] .

ومن بين العلماء الذين تصدروا للتدريس فى دار العلم العالم النحوى أبو الفضل جعفر الذى خلع عليه الحاكم ، ومنحه اقطاعات ، ولقبه عالم العلماء ، وأسند إليه مهمة تدريس النحو بدار العلم[2] ، كما ازدهرت فى دار العلم علوم الفلسفة والرياضيات والطب بجانب علوم الدين والآداب ، فكان الحاكم بأمر الله يستدعى العماء المتصدرين للتدريس من أهل الرياضيات والمنطق ، والفقهاء والأطباء ، كل طائفة تحضر مجلسه فى القصر للمناظرة بين يديه ، وكان يخلع على الجميع ويصلهم[3] ، كما يروى ابن سعيد [4] أن الحاكم كان يجمع بمجلسه : « الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ، ويناظر كل أحد على مذهبه » .

ومن المرجح أن الحاكم انتهج هذه السياسة خشية ثورة أهل السنة المصريين ، وقد اتت هذه السياسة أكلها ، وازدهرت العلوم بشتى فنونها ، وأصبح يغلب على دار العلم الطابع الاكاديمى ، وقام بالتعليم فيها إلى جانب هؤلاء الدعاة والفقهاء والنحاة واللغويين كثير من المنجمين والرياضيين والفلاسفة والأطباء المعاصرين ، نذكر منهم أبا الحسن على بن يونس الذى يصفه ابن خلكان [5] بقوله : « إنه لم ير فى الأزياج على كثرتها أطول منه » ، ويقول القفطى [6] عنه « : إن ابن يونس كان يقصد تحرير

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٧٢/١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢/ ٨٠

(٢)الكندى : الولاة / ٦١٠.

(٣) المقريزى : الخطط المقريزية٤٥٩/١

(٤) ابن سعيد : النجوم /٥٤

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٢٩/٣ ، ادريس عماد الدين : عيون الأخبار ٦/ ٢٩٨

(٦) القفطى : أخبار العلماء /١٥٥ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٢٩/٣ ، ٤٣٠ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ٤٦١/١ ، غوستاف لوبون : حضارة العرب /٤٦١ .

زيج جامع كبير يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب » . ويصفه ادريس عماد الدين بقوله(1): «كان عالماً بالفلسفة ، والهندسة ، وعلم المنطق ، وعلم الهيئة».

ولعل أشهر عالم رياضى شهدته مصر الفاطمية هو أبو على الحسن بن الهيثم . وكان عالماً فى الرياضة والطبيعيات ، وبالغ الحاكم بأمر الله فى الاحسان إليه عند قدومه إلى مصر ، وخرج بنفسه للقائه عند مشارف القاهرة ، وأغدق عليه العطايا والهبات وتوفى بالقاهرة سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م (٢) ، وأما علوم الطب فكان من أشهر الأطباء أبو الحسن على بن رضوان كبير أطباء الحاكم « وله مسائل ... ومباحثات دقيقة ، وكتب بخطه كثيراً جداً من كتب الطب ، ولا سيما فى كتب جالينوس وشروحها وجوامعها (٣) » .

وفى علوم الرياضيات كان أبو على المهندس المصرى الذى يعلم الهندسة (٤) ، ومن أعلام الفكر فى العصر الفاطمى المؤرخ المسبحى ، فقد كان من اقطاب الامراء والعلماء وتولى الوزارة للحاكم بامر الله ونال حظوة لديه ، ونقل بعض رواياته التاريخية مستشهداً بسماعها من الحاكم نفسه (٥) ، ومن المرجح ان يكون المسبحى من العلماء الذين تصدروا للتدريس فى دار العلم والجامع الازهر ، وتعتبر كتابات المسبحى مصدرا هاماً للمؤرخين الذين أرخوا لمصر من بعده ، فقد نقل عنه كثيرا المقريزى ، واستشهد بأقواله التى تعد بحق وثائق للعصر الفاطمى .

---

(١) ادريس عماد الدين : عيون الاخبار ٦/٢٩٨ .

(٢) القفطى : أخبار العلماء / ١١٤ ـ ١١٥ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء / ٥٥٠ .

(٣) القفطى : أخبار العلماء /٢٨٨ .

(٤) نفس المصدر /٢٦٧ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء /٥٦١ ـ ٥٦٦ ، ابن سعيد : المغرب /٢٦٤ ـ ٢٦٧

(٥) المسبحى : أخبار مصر ٤٠/٥٨، ٦٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤/٦٥٣ .

وهكذا استطاعت هذه الجامعة المصرية الفاطمية بفضل هؤلاء العلماء ، وبفضل رعاية الخلفاء الفاطميين لها ، أن تتبوأ الزعامه فى الدراسات العلمية والفقهية وأن تجتذب كثيرا من أعلام المشرق والمغرب مثل الرحالة الفارسى ناصر خسرو والفيلسوف الحسن بن الصباح اللذين انتظما حينا بين تلاميذ دار العلم ، وتفقها فى الدعوة الفاطمية على يد أساتذتها ، وعلى رأسهم داعى الدعاة (١) .

بيد أن هذه الجامعة لم يقدر لها أن تستمر فى مسيرتها العلمية ، فقد تطرق الضعف إليها واضطربت شئونها ، وفتر نشاطها منذ منتصف القرن الخامس الهجرى، فيروى المؤرخون أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى قد أغلقها فى سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م عندما علم أن جماعة من المترددين على دار العلم يحاولون بث دعوة الحادية بين الطلاب ، وأن بعضهم ادعى الألوهية ، فاضطر الوزير إلى أن يغلق هذه الدار (٢) ، وهناك احتمال آخر أن الأفضل أقدم على هذه الخطوة باغلاق دار العلم خوفا من المذهب النزارى المعادى له ، وخاصة بعد أن انقسم المذهب الاسماعيلى إلى مستعلية ونزارية ، وناصب النزارية الأفضل العداء ، واشتد نشاطهم يتجلى ذلك من قول المقريزى (٣) نقلا عن ابن عبد الظاهر : « ... وكان لإبطالها أمور سببها اجتماع الناس والخوض فى المذاهب والخوف من الاجتماع على المذهب النزارى » .

ومهما يكن من أمر فقد بنيت دار جديدة للعلم فى عهد الخليفة الأمر بأحكام الله بجوار القصر الكبير الشرقى فى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م ، وجعل الوزير المأمون البطائحى على رأسها الداعى أبا محمد الحسن بن آدم ، ولكن لم يقدر لهذه الدار أن تعمر طويلا إذ قضى عليها بالقضاء على الدولة الفاطمية (٤) .

---

(١) خطاب عطية : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى /١٦٤، ١٦٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ٤٥٩/١ ، وقارن ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر ، /٩٥، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية /٥٢، شوقى ضيف : عصر الدول والامارت /٧٧ .

(٣) المقريزى : الخطط١/ ٤٦٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٢١٨/٤، ٢٢٢ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ٣٦٢/٣ ، المقريزى : الخطط ١/ ٤٦٠ .

القصور والمكتبات :

كان للخلفاء الفاطميين ميل شديد إلى العلم والعلماء ، ومن هنا كانت قصور الخلفاء ، ودور الوزراء ، وكبار رجالات الدولة من المراكز الثقافية الهامة فى العصر الفاطمى، فكانوا يعقدون المجالس بالقصور ، يحضرها أهل الفقه والأدب والشعر والطب (١) ، وساعد على ازدهار هذه المجالس شغف المصريين بالعلم ، واقبال الأدباء والشعراء على المناظرة طمعا فى الهبات والعطايا التى كان يغدقها الخلفاء عليهم ، هذا فضلا عن الرواتب المقررة لهم من خزانة الدولة(٢) ، وكان الخلفاء يرمون من وراء ذلك إلى نشر دعوتهم ، والاشادة بمآثرهم ، وتحقيق سياستهم ومنازلة خصومهم العباسيين ، حتى غدت قصورهم كعبة القصاد للشعراء على إختلاف مذاهبهم .

وساعد على ازدهار هذه المجالس أن الخلفاء الفاطميين أنفسهم كانوا من طلبة العلم والمشجعين له والمقبلين على دراسته ، فقد كان الخليفة المعز على درجة عالية من الثقافة ، فيروى عنه أنه كان يتقن اللغات المعروفة فى عصره البربرية والرومية والسودانية والصقلبية (٣)، يصفه القاضى النعمان (٤) بقوله : « ... قد نظر فى كل فن وبرع فى كل علم وان تكلم فى فن منها أربى على المتكلمين ، وكان فيه نسيج وحده فى العالمين ، أما علم الباطن ووجهه البحر الذى لا تخاض لجته ، ولا يدرك اخره ... وأما الفقه والحلال والحرام ... فذلك مجاله وصنعته وديدنه ..... وأما الطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة ، فأهل النفاذ فى كل فن من ذلك فى يديه ، وكلهم فى ذلك عيال عليه ... » .

---

(١) المقريزى : الخطط ١/٣٩١، اتعاظ الحنفا ١/٢٨٥ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء / ٣٢٥ ، ٥٠١، ٥٤٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/٤٩٣، المقريزى : الخطط ١/٤٠١

(٣) المقريزى : الخطط ١/٣٥٤، اتعاظ الحنفا ١/٩٥

(٤) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /١٤٨

وكانت مكتبة المعز فى المنصورية ثم فى القاهرة زاخرة بالكتب ، وقد بلغ من شغفه بهذه المكتبة أنه كان يعرف مواضع ما فيها من الكتب ، وما تحويه من المعلومات ، وقد قيل أن المعز امر خازن كتبه ان يحضر له كتاباً ، فلم يحضره على الفور ، فقام المعز ويحث عن هذا الكتاب ، ثم قرأه كما قرأ غيره من الكتب ، واستهواه الاطلاع حتى صرف معظم هذه الليلة فى القراءة ، وهو واقف على قدمية [1] ، ومع علو كعب النعمان فى التأليف فقد كان المعز يوجهه ويقترح عليه ويأمره بتعديل ما يرغب من أعماله ، « وقفت على الكتاب وتصفحته ، فرأيت ما أعجبنى فيه من صحة الرواية ، وجودة الاختصار ، ولكن فيه كلمات تعتاص على كثير من أوليائنا معرفتها ، فاشرح بما يقرب من أفهامهم»[2] ، ولعل ذلك كان دافعا للمعز أن يكلف العالم النحوى المغربى محمد بن جعفر القيروانى المعروف بابن القزاز بتأليف كتاب النحو[3] .

وإذا كان هذا شأن المعز لدين الله ، فان ابنه العزيز كان أديبا فاضلا [4] ، أما الخليفة الحاكم بأمر الله ، فقد عرف عنه براعته وشغفه فى علم النجوم والكيمياء والرياضيات[5] ، هذا فضلا عن المامه بالآداب وتشجيعه للأدباء ، وليس أدل على ذلك من العلماء النابغين الذين يمموا وجوههم شطر القاهرة فى عهده [6] ، وكان من عادة الخليفة الحاكم يركب كل يوم إلى الميدان ، فيجلس فى القصر على سريره فتعرض عليه الخيل والقراء بين يديه ، ويحتشد حوله الشعراء ويلقون قصائدهم بين يديه، وبعد فراغهم يقوم برجوان بجمع القصائد منهم ، فاذا عاد الحاكم إلى القصر

---

(١) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٥٣٣، ابن سعيد النجوم ، /١٠٥

(٢) نفس المصدر / ٣٦٠

(٣) القفطى: انباه الرواه ٨٦/٣.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١١٣/٤

(٥) الداودارى : الدرة المضية ٢٥٧/٦

(٦) الكندى : الولاة / ٦١٠ ، ابن حجر : رفع الاصر /١٠٢

قرأها عليه برجوان في مجلسه الذى كان يضم كبارالشعراء والعلماء والأدباء ، ، وكان الحاكم له من الحذق ماليس لغيره ، ، فاذا مر بالخليفة بيت نادر أو معنى حسن نبه على برجوان باستعادته مراراً ، ثم يأمر لكل واحد بقدر استحقاقه ومبلغه من صناعته، [(١)] .

ومن الشعراء الذين اتصلوا بخدمة الفاطميين ابن هانىء الأندلسى ، الذى علق عليه الخليفة المعز آمالا كباراً ، وحزن لوفاته [(٢)] ، وفى عهد الخليفة الظاهر ، قدم إلى مصر الشاعر البغدادى عبد الوهاب بن نصر المالكى ، وهو من أهل بغداد وكان فقيها مالكيا ، وقد استقبل فى القاهرة على الرغم من اعتناقة المذهب السنى أحسن استقبال، واغدقت عليه الهبات والعطايا ، ولكن أدركه المرض، وكان يقول وهو فى مرضه : ، لا اله إلا الله عندما عشنا متنا ، ، وتوفى بمصر فى نفس العام الذى أتى فيه ٤٢٢هـ/١٠٣٠م [(٣)] .

يتضح لنا مما سبق أن قصور الخلفاء الفاطميين ، كانت مراكز للثقافة ينزلها العلماء والأدباء ليشاركوا فى نهضتها العلمية والأدبية ، ويصف لنا المقريزى [(٤)] وصفاً مثيراً للاعجاب استقبال الخليفة الامر بأحكام الله للعالم المغربى الطبيب أحمد بن حسدية بن يوسف عند قدومه إلى مصر ، حيث اعتبره الخليفة الأمر ضيف الدولة ، وأغدق عليه العطايا والأرزاق ، وأقطعه داراً لسكناه، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فحسب بل كتب له سجلا صدرعن ديوان الانشاء فى شهر ذى القعدة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ٢/١٤، ١٥ .

(٢) ابن هانىء الاندلسى : ديوان ابن هانىء ، تحقيق كرم البستانى ، المقدمة ، دار صادر ، ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤/٤٤٢ ، ترجمة محمد بن هانىء ، .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/٢٢٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ١/٣١٤ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية /٩٠ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣/٩٤ ، راجع نص السجل / ٩٤، ٩٥ ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء /٤٩٩ .

سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م ، يعد بحق وثيقة توضح إلى أى حد كان اهتمام الخلفاء الفاطميين بالعلم والعلماء .

وكان يعقد فى القصر الفاطمى الى جانب مجالس الادب والشعر والمناظرة مجالس الدعوة التى كانت بمثابةمدرسة عامرة بفقهاء الدعوة الاسماعيلية والطلاب ، وقد ازداد الاقبال على هذه المجالس من الناس على سائر طبقاتهم ، وكان يتصدر التدريس فيها علماء المغاربة الشيعيين من آل النعمان ، ويصف المقريزى(١) ازدحام الناس على هذه المجالس بقوله : «.. فمات فى الزحمة أحد عشر رجلاً ، فكفنهم العزيز بالله ، ولعل هذا الازدحام مرده إلى الهبات والعطايا التى كان يغدقها الفاطميون فى هذه المناسبات .

لم تقتصر مجالس الثقافة على قصور الخلفاء بل تعدتها إلى دور الوزراء وكبار موظفى الدولة ، التى كانت لا تخلو من العلماء وأهل الأدب (٢) ، ومثال ذلك الوزير يعقوب بن كلس ، فقد كان يعقد فى داره المجالس العلمية ، كما خصص فى داره مكاناً لقوم ينسخون القرآن الكريم والكتب الأدبية والعلمية (٣) ، واستطاع ابن كلس أن يتعمق فى الدين الاسلامى ، وفى المذهب الاسماعيلى ، مما أهله أن يعقد مجالس التأويل ، وذكر ياقوت (٤) أن ابن كلس صنف عدة مؤلفات منها : كتاب فى الأديان وهو الفقه ، ومختصر الفقه المعروف بالرسالة الوزيرية ، وكتاب فى آداب رسول الله ، وللأسف قد ضاعت هذه الكتب جميعها ، ولم يبق منها إلا الرسالة الوزيرية فى الفقة،

---

(١) المقريزى : الخطط المقريزية ٣٩١/١ ، اتعاظ الحنفا ٢٨٥/١ .

(٢) ابن الصير فى : الاشارة / ٤٧ ـ ٥٢ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٣٤/٢

(٣) ابن خلكان : وفيان الأعيان ٢٩/٧ ، المقريزى : الخطط ٣٤١/٢ ، أنظر : محمد خضر محمد : يعقوب بن كلس التاجر الذى أصبح وزيراً وفقيهاً للفاطميين ، مجلة الداره ، العدد ٢ ، رجب ١٣٩٦هـ / يوليو ١٩٧٦م / السعودية ، ١٧٧ ـ ١٨٦ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ١٠ /١١٨ ، محمد خضر محمد : يعقوب بن كلس ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

وهو الكتاب الذى كان يقوم ابن كلس بتدريسه (١) ، كما كان يضم مجلسه نوابغ العلم واقطابه ، وحسبنا ما ذكره القفطى عن العالم الطبيب محمد بن احمد بن سعيد التميمى المعروف بالمقدسى ، الذى ذاع صيته ، وكانت له براعة فى الطب ، وعناية فائقة فى تركيب الأدوية ونال هذا الطبيب حظوة عند ابن كلس وصاحبه زمناً طويلاً، وصنف له كتاباً كبيراً فى عدة مجلدات سماه «مادة البقاء باصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء» وتصدر هذا العالم لتدريس الطب فى مصر ، والتقى بالأطباء المصريين والمغاربة وحاضرهم وناظرهم(٢) .

ومن الوزراء الفاطميين الذين كانوا على درجة عالية من الثقافة والشغف بالآداب والفنون الوزير اليازورى ، وزير الخليفة المستنصر ، الذى كان يجتمع فى مجلسه جهابذة العلماء والأدباء ، ويستشيرهم فى شئون الدولة ويستمع إليهم ويناظرهم (٣) ، هذا فضلا عن شغفه لفن الرسم ، يقول المقريزى (٤) : « وكان أحب ما إليه كتاب مصور أو النظر إلى صورة أو تزويق » .

وأما الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فقد كان يجيد قرض الشعر ، وكان يدعو العلماء والأدباء والشعراء على طبقاتهم فى داره فى مجلس يسمى « مجلس العطايا » ، وقد وضع على يمين المجلس ويساره سبعة ظروف من الديباج يحتوى كل ظرف منها على خمسة آلاف دينار لمنح الهبات لمن يحضرون مجلسه ، ثم زاد الأفضل فى عطاياه بعد ذلك حتى أصبحت تشمل فقهاء مصر (الفسطاط) ، والرباطات بالقرافة(٥) . ولا يفوتنا ذكر الوزير الصالح طلائع بن رزيك الذى تولى الوزارة للخليفة الفائز وأول عهد العاضد (٥٤٩ ـ ٥٥٦هـ/ ١١٤٤ ـ ١١٦٠م) كأحد الشعراء المجيدين،

---

(١) المقريزى : الخطط المقريزية ١/ ٣١٨ ، ادريس عماد الدين : عيون الأخبار/ ٢٣٢ .

(٢) القفطى : أخبار العلماء / ٧٤ ـ ٧٥ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣/ ٢٤٣، ٢٤٤ ، انظر : عمر الصالح البرغوثى : الوزير اليازورى / ٦٧ـ ٧٠ .

(٤) المقريزى : الخطط المقريزية ٢/ ٣١٨.

(٥) المقريزى : الخطط المقريزية ، ١/ ٤٨٤.

وله ديوان شعر من جزئين (١)، وكان مجلسه يضم العلماء والأدباء ، وحسبنا ما ذكره الشاعر اليمنى عمارة الحكمى عن الحفاوة التى استقبل بها من الخليفة الفائز والوزير ابن رزيك عند قدومه إلى مصر سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م، عندما دخل قاعة الذهب ، وانشد قصيدته التى مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمداً يقوم بما أولت من النعم (٢)

وكان من نتائج تلك الحركة العلمية النشطة فى القصور الفاطمية ، المكتبة الضخمة التى بهرت المؤرخين بكثرة ما تحويه من نوادر الكتب ونفائسها فى ذلك العصر (٣) ، فقد عنى الفاطميون بجمع أكبر عدد من الكتب والحصول على أندر المؤلفات فى جميع العلوم ، واقتناء العديد من النسخ للكتاب الواحد (٤) ، حتى يتيحوا الفرصة لأكبر عدد من القراء من الاطلاع عليه ، وكان تجار الكتب يعرضون على موظفى مكتبة القصر أندر الكتب التى يعثرون عليها ، ولا غرو فقد كانت تجارة الكتب وجلودها تمثل احدى السلع فى الواردات التجارية من بلاد المغرب (٥) ، وكثيراً ما كان الخليفة الفاطمى يزور خزانة الكتب فى القصر الشرقى ، ويمثل بين يديه أمين الخزانه ، ويأتيه بمصاحف مكتوبة بأقلام المشاهير من الخطاطين ، ويعرض عليه ما يقترح شراءه من الكتب ، أو ما يريد الخليفة حمله لقراءته فى مجلسه الخاص(٦) ، ويروى أن الخليفة العزيز عنى بانشاء مكتبة فى القصر كان بها ما يزيد على مائة الف مجلد ، وفى رواية أخرى على مائتى الف مجلد ، وكان أمينه القائم عليها علىّ بن محمد الشابشتى صاحب الديارات (٧) .

---

(١) عمارة اليمنى : النكت العصرية ١/٥٥ ، وقارن العماد : خريدة القصر ١/١٧٤

(٢) عمارة اليمنى : النكت العصرية ١/٣٢.

(٣) أبو شامة : الروضتين / ٥٠٠ ، المقريزى : الخطط ١/٤٠٨ .

(٤) المقريزى : الخطط ١/ ٤٠٨ .

(٥) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى / ٢٤١ ، انظر : الفصل الثانى من الكتاب .

(٦) المقريزى : الخطط ١/٤٠٩ .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم ٤ / ١٠١ و قارن ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣ / ٣١٩ .

يروى صاحب كتاب الذخائر والتحف [1] أن القصر الفاطمى قد عثر به فى الشدة العظمى على ما يبلغ الألف من الستور الحريرية المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها ، فيها صور الدول وملوكها ، على صورة كل واحد منهم اسمه وعدة أيامه وشرح حاله .

ويروى المقريزى[2] عن مؤلف كتاب الذخائر والتحف الذى زار هذه المكتبة فيقول : « وكنت بمصر فى الفسطاط فى العشر الأُول من المحرم سنة احدى وستين واربعمائة فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا مرسلة إلى دار الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى ، فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق فى الدين عما يستحقانه وغلمانهما .. » ويستطرد بعض من شاهد ذلك بنفسه فيقول : « ان الكتب التى نقلت إلى دار الوزير وفاء لخمسة آلاف دينار ، بلغت قيمتها أكثر من مائة الف دينار » .

ومن هنا يتبين لنا عناية الفاطميين باقتناء الكتب فى كل فن ، وحرصهم على أن تجمع خزائنهم الطرائف والنفائس فى كل علم ، وذلك تشجيعا منهم للعلم والعلماء ، ولا غرو فى ذلك ، فإن مذهبهم يدعو إلى العلم والعمل ، والى الاستزادة من جميع العلوم والآداب[3] ، حتى يتسنى لدعاتهم أن يكاسروا خصومهم بأدلة علمية ، فقد كان هبة الله بن موسى الشيرازى أحد دعاتهم يلم بجميع ألوان العلوم التى كانت معروفة فى عصره ، ويرد على جميع المذاهب والفرق الاسلامية [4] .

والى جانب مكتبة القصر ، كان وزراء الدولة الفاطمية يحتفظون بمكتبات ضخمة

---

(١) الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف / ٢٥٤ ، انظر : على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ، / ٤٣١ .

(٢) المقريزى : الخطط ٤٠٨/١ ، ٤٠٩.

(٣) برنارد لويس : أصول الاسماعيلية / ١٥٣ ، احمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى / ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

(٤) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية / ٤٧

فى قصورهم تحوى الآلاف من الكتب النفيسة من أمثال الوزير يعقوب بن كلس (١) ، الذى كان يجرى بأمره الف دينار شهريا على جماعة من أهل العلم ، والوراقين والمجلدين مما يدل على أنه نشأت حينئذ حركة علمية كبرى لا للدراسات العلمية فحسب بل أيضا لنسخ المخطوطات فى مختلف العلوم والآداب (٢) .

ويذكر المقريزى (٣) أن بعد استيلاء صلاح الدين على القصر ، كان من جملة ماباعوه خزانة الكتب ، ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر ، ومن عجائبها أنه كان فيها الف ومئتا نسخة من تاريخ الطبرى .

وصفوة القول أن خزائن الكتب فى المساجدوقصور الخلفاء والوزراء لعبت دورا كبيرا فى الحياه الثقافية والفكرية في العصر الفاطمي ، كان من أثره ظهور طائفة كبيرة من المؤرخين والأدباء والعلماء والفلاسفة والأطباء ، وأدت هذة المكتبات دورا جليلا لطلبة العلم الذين يمموا وجوههم صوب مراكز الثقافة في مصر ، مما ساعد علي الدرس والتحصيل والنسخ والتأليف (٤) .

المدارس :

لم تعرف مصر بناء المدارس إلا في أواخر عصر الدولة الفاطمية ، ففي عام ٥٣٢هـ / ١١٣٧م أنشأ رضوان بن ولخش وزير الخليفة الحافظ لدين الله مدرسة بالاسكندرية ، التي كانت في ذلك الوقت مركزا علميا وثقافيا ، وكثر عليها الطلاب والعلماء الوافدين من المغرب ، وزخرت كتب التراجم باسماء العلماء المتصدرين للتدريس بها (٥) ، ومما يجدر ذكره أن مدينة الاسكندرية تميزت بطابعها السنى ،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٧ / ٢٩ ، ٣٠

(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية ١/ ٢٥٠ ، محمد حسن الأعظمى : الحقائق الخفية / ٥٨ .

(٣) المقريزى : الخطط ٤٠٩/١ ، على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى / ١٠٠

(٤) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين / ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١.

(٥) القفطى : انباه الرواة ١٩١/٢ ، ١٩٢ ، انظر : جمال الدين الشيال أعلام الاسكندرية / ١٣١ .

وكان يقيم بها مجموعة من العلماء يتمذهبون بمذهب أهل السنة والجماعة ، وينشرون مذهبهم بين تلاميذهم (١) ، وأسند رضوان بن ولخش مهمة ادارة هذه المدرسة والتدريس فيها لأبى الطاهر بن عوف الذى يعد من أعلام المالكية فى عصره ، وصدر سجل عن الخليفة الحافظ يتضمن هذا التعيين ، وقد حفظ لنا القلقشندى (٢) هذا السجل نقتبس بعضا من فقراته فيصف السجل ثغر الاسكندرية بأنه «مركزاً ... للقراء والفقهاء والمرابطين ، والصلحاء وطالبى العلم من أهله والطارئين عليه ...» .

ومن المرجح أن عددا غير قليل من الطارئيين كانوا من بلاد المغرب من اصحاب مذهب مالك كما حرص السجل أن تتوفر فى هذه المدرسة الاقامة والسكن لجميعهم « حتى تكون مستقراً لهم ومقاما ومأوى لجميعهم ، ووطنا ومحلا لكافتهم وسكناً » (٣) .

كما أنشأ العادل أبو الحسن على بن السلار وزير الخليفة الظافر مدرسة أخرى بالاسكندرية عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، وكان ابن السلار فى أول أمره شيعيا ، ثم نبذ المذهب الشيعى، واعتنق المذهب الشافعى ، لذلك كانت المدرسة التى بناها مخصصة لتدريس هذا المذهب (٤) ، وما لبث أن كثر بناء المدارس فى وزارة صلاح الدين للخليفة العاضد ، فبنى مدرسة بجوار جامع عمرو للشافعية (٥) ، والمدرسة الصلاحية بجوار ضريح الامام الشافعى ، وكانت معظم المدارس التى أدخلها صلاح الدين مخصصة لتدريس مذهب واحد الشافعى أو المالكى أو الحنفى (٦) ، وهكذا مع أفول نجم الدولة الفاطمية ظهرت المدارس التى عملت على احياء المذاهب السنية ، مما مهد

---

(١) جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية / ١٣١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٤٥٨/١٠

(٣) نفس المصدر ١٠ /٤٥٩.

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤١٧/٣.

(٥) أبو شامة : الروضتين / ٤٨٦ .

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ٣٤٢/٣ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣١٩/٣.

للقضاء على الدولة الفاطمية .

ومما يجدر ذكره أن مراكز الثقافة لم يقتصر وجودها على الفسطاط والقاهرة ، والاسكندرية فحسب بل كان هناك العديد من مراكز الثقافة فى مدن مصر نذكر على سبيل المثال مدينة أسوان التى كان يتوافد عليها العلماء وطلاب الرحلة ، فيذكر السيوطى(١) أن محمد بن حميد بن الأرقط الحسينى النحوى قرأ على القاضى الأديب بأسوان الأدب ، وظل بأسوان تؤخذ عنه علوم القرآن الكريم والأدب ، وانتقل إلى قوص ، وتوفى بها سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م ، وكانت قوص من مراكز العلم والثقافة فى مصر ، هذا فضلا عن الزوايا والأسواق وحوانيت الوراقين التى كانت موئلا للدارسين يتجاذبون الحديث ، ويثيرون فيها المناقشات ، وكانوا يتخذونها مكانا لاجتماعاتهم وكانت من مراكز الثقافة فى ذلك العصر(٢) ، بيد أننا آثرنا أن نعرض فى هذه الدراسة لأبرز مراكز الثقافة فى مصر وأكثرها ذيوعا ، وطلباً للرحلة إليها من المغرب .

---

(١) السيوطى : بغية الوعاه ١/ ٤٠ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ٤١٤/١.

ثانياً : مراكز الثقافة فى المغرب

المساجد الجامعة :

كان التعليم فى أول أمره بطرابلس الغرب بجامع فاتحها عمرو بن العاص، وهو ما يعرف إلى الآن بمسجد الناقة، الذى شيده عمرو بن العاص سنة ٢٣هـ / ٦٤٣م (١) ، وكان جامعاً صغيراً يقع فى قلب المدينة، فطرابلس تعتبر الفسطاط العربى الأمامى، أو القلعة الأولى التى فتحت المغرب (٢) .

على أن موقع طرابلس يفسر لنا دورها الثقافى من خلال مراكزها الثقافية ، فهى تتصل بمصر، فثقافتها مصرية من هذا المنطلق ، واذا أضفنا أن ثقافتها مصرية تمتد جذورها فى أعماق التاريخ منذ العصر الحجرى ، ولا تزال النزعة المتمصرة قائمة إلى الآن (٣) ، واستمر التعليم فى جامع الناقة أو جامع عمرو بطرابلس قاصراً على حفظ القرآن الكريم واللغة العربية، حتى بنى الأغالبة الجامع الكبير فى القرن الثالث الهجرى ، وتحلق العلماء فيه للتدريس ، وكان يغلب عليه المذهب الحنفى ، وبقيام الدولة الفاطمية فى المغرب سنة ٢٩٦ هـ /٩٠٨م، امتدت يد العناية إلى هذا الجامع وعملت على توسعته ، وأحدثت به التعليم الشيعى ، وصار التعليم يتناسب مع مذهب الدولة الجديدة ، يقول البكرى (٤) عند ذكر طرابلس : « ومبنى جامعها أحسن مبنى»

وفى عهد الدولة الزيرية نضج التعليم بالجامع الكبير بطرابلس ، وتكاثرت حلقاته ، وتعددت فنون تعليمه ، فلم تقتصر على العلوم الاسلامية البحتة، بل اشتملت على

---

(١) البكرى : المغرب / ٨، الحميرى : الروض المعطار / ٣٨٩، ٣٩٠ .
(٢) محمد بن تاويت : الأدب المغربى / ٦٢ .
(٣) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة فى المغرب ، منشورات معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٨م / ١١٥، ١١٦ .
(٤) البكرى : المغرب / ٧ .

العلوم الرياضية على اختلافها [١] ، ونشطت الحركة الفكرية بفضل موقع طرابلس فيما بين القاهرة وبين القيروان والأندلس ، أى على طريق الرحلة ، فقد كان العلماء والأدباء من أعلام الفكر فى ذلك الوقت يرتحلون فى طلب العلم ما بين المشرق الاسلامى والمغرب الاسلامى ، وكانوا يعرجون على الجامع الكبير بطرابلس ، حتى أن التجانى [٢] عند كلامه عن الفقيه الامام أبى اسحاق ابراهيم بن اسماعيل بن احمد ابن عبد الله الاجدابى الطرابلسى يقول : « وكان الفقيه أبو اسحق هذا من أعلم أهل زمانه بجميع العلوم كلاماً وفقهاً ونحواً ولغة وعروضاً و نظماً ... إلى أن يقول : « ولم تكن له رحلة عن بلد طرابلس إلى غيرها ، وقد سئل أنّى لك هذا العلم ولم ترتحل، فقال اكتسبته من بابى هوارة وزناته »، وهم بابان من أبواب البلد ، ويشير أنه استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس فيدخل من هذين البابين من المشارقة والمغاربة ، وكان له اعتناء بلقاء الوفود والقيام بضيافتهم [٣] .

وقد ذكر لنا الدباغ الكثير من العلماء الذين ترجم لهم ، وتلقوا تعليمهم فى طرابلس من أمثال أبو عبد الله محمد بن اسماعيل الحبلى قاضى برقة، وأبو عبد الله محمد بن حسن الزويلى السرتى ، وأبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الاجدابى [٤] .

وذكر لنا ابن بشكوال الكثير من هؤلاء العلماء نذكر منهم إبراهيم بن أحمد بن جعفر الاطرابلسى البرقى [٥] .

ويذكر ابن خلكان [٦] عند رحيل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ومروره ببرقة

(١) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة / ١١٨.
(٢) التجانى : رحلة التجانى / ٢٦٢ .
(٣) التجانى : رحلة التجانى / ٢٦٤ .
(٤) الدباغ: معالم الايمان ٤٩/٣ ، ١٠٥، ١٠٦.
(٥) ابن بشكوال : الصلة ١ / ١٠٠
(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٤ / ٤٢٢ (ترجمة محمد بن هانىء) .

أن شاعره ابن هانىء الأندلسى قد وجد مقتولاً بعد ليلة ماجنة قضاها عربدة وسكراً مع بعض ندماء برقة، وإذا علمنا أن ابن هانىء ذلك كان من أكبر شعراء البلاط الفاطمى لتأكد لدينا أن قبوله الدعوة من لدن الندماء البرقاويين ، لا بد وأن تكون بعد تأكده من أنهم كانوا من طبقتة الاجتماعية ، وخاصة من أرباب الفكر والقلم، إذمن غير المعقول لشاعر كبير مثله ، أن يرافق ويسامر من هم دونه.

وهكذا كان لموقع طرابلس وانفتاحها على علوم الفسطاط والقاهرة، أن ازدهرت فيها الثقافة وأصبحت تعج بالأدباء والعلماء والشعراء.

جامع القيروان :

وأما جامع عقبة بن نافع الفهرى بالقيروان ، أو جامع القيروان الذى أسسه سنه٥١هـ / ٦٧١م [١]، فقد جعله ثكنة ومدرسة ومسجداً، واستمر هذا المركز الثقافى يؤدى رسالته من لدن انشائه حتى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م حيث انتقل التعليم إلى جامع الزيتونة [٢].

لقد أدخل الولاة والأمراء الأغالبة على جامع عقبة تغييرات أساسية ، من ذلك أن حسان بن النعمان هدمه من أساسه وبناه بناءاً جديداً، ثم جاء زيادة الله الأول الأغلبى فشرع فى تجديد جامع عقبة سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م ، بيد أنه توفى دون أن يتم عمله، فواصل البناء بعده أبو ابراهيم أحمد [٣]، وكان للمسجد بالقيروان نفس الدور الذى اضطلع به مسجد عمرو بن العاص فى مصر ، ومسجد القيروان أول مساجد المغرب الاسلامى، وكان لهذا المسجد دورا كبيرا فى تفقيه المسلمين فى أمور دينهم فقهية

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان (بيروت ١٩٥٧) / ٣٢٠ .
(٢) عثمان الكعاك: مراكز الثقافة فى المغرب / ١٣ .
(٣) البكرى المغرب / ٢٢ ـ ٢٤ ، الحميرى : الروض المعطار / ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

وتشريعية، مما كان له أكبر الأثر فى انتشار الاسلام بين أهل البلاد (١).

واستمر جامع عقبه يواصل رسالته الثقافية بجانب رسالتة الدينية، فكانت تدرس فيه العلوم الدينية من تفسير وحديث فى حلقات التعليم به، وكان أصحاب الملل والنحل يجتمعون فيه ، ويتظاهرون فى مذاهبهم ، ودامت هذه الحال إلى أواسط القرن الثالث الهجرى ، عندما تولى سحنون قضاء إفريقية سنة ٢٣٤ هـ /٨٤٨م، فمنع وقتئذ التدريس بجامع عقبه على من لم يكونوا على مذهب السنة (٢) ، وكان المذهب السائد هو المذهب المالكى ، وصار جامع القيروان كعبة العلم بالديار المغربية ، والأندلسية وصقلية ، فقد كان به جناحان للتعليم ، جناح للرجال وجناح للنساء ، فكان سحنون يدرس بجناح الرجال وكانت ابنته تدرس بجناح النساء وكذلك يحيى بن عمر وابنته (٣) ، هذا مايتعلق بالعلوم الدينية ، وأما الفنون الأخرى كاللغة والأدب ، والطب والرياضيات والفلسفة فقد ساعد على انتشارها بالقيروان رواة ثقات ، قدموا القيروان واستوطنوها فأخذ عنهم الناس ماكانوا يحملونه ، فمن جملة هؤلاء : أبو مالك ابان بن الصمصامة، حفيد الطرماح الأكبر ، والمسهر التميمى اللذان وفدا أواسط المائة الثانية وبثا بافريقية ماكانا يرويانه من الأدب واللغة، ونقل الطب اسحاق بن عمران، فاقتبس منه القوم علم الطب والتشريح والصيدلة (٤) ، كما ازدهرت بالقيروان علوم الفلك والرياضيات بتشجيع الأمراء الأغالبة ، وحرصهم على استقدام العلماء المختصين فى تلك العلوم من العراق ومصر (٥) ، وهكذا أصبحت مدينة القيروان دار ملك المغرب ، ورأت من الفقهاء والعلماء والصالحين مالم يكن

---

(١) حورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب / ١٣٨ .

(٢) أبو العرب : طبقات علماء أفريقية / ١٠٢ ، المالكى : رياض النفوس ٢٠١/١ ، الدباغ : معالم الايمان ٥٥/٢ .

(٣) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة /٢١ .

(٤) حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة ٥٧/١ .

(٥) ابن عذارى : البيان ١ /٢٠٤ .

مثله فى قطر من الأرض[١] .

على أن إنتصار المذهب الفاطمى ، ودخول الفاطميين إلي رقادة وضع حداً للحرية الفكرية فى القيروان ، وقضى الحكام الجدد على المذاهب الأخرى ، وكانت المعركه بين المذهب الجديد وبين المدرسة المالكية أستمرت أكثر من قرن ونصف[٢] ، وقد وقف المالكيون في وجه الفاطميين ، وافتوا بتكفيرهم، لا تخطب لهم جمعة، بل اعتبروا الفاطميين زنادقة ، ونادوا بقتلهم حيثما ثقفوا [٣] ، وعمل الفاطميون على مصارعة خصومهم ، ورفع لواء مذهبهم ، عن طريق المناظرات، فعقدوا المجالس ، وجلبوا أئمة المالكية بالقيروان ، وأخذوا يناقشونهم الحجة ويقارعونهم بالرأى فما ازدادوا إلا تمسكاً برأيهم ، وقد حفظ لنا الدباغ [٤] الكثير من هؤلاء الرجال من أمثال ابى سعيد بن محمد الحداد ، وأبى بكر محمد بن محمد اللباد ، وأبى الفضل عباس بن عيسى بن محمد بن عيسى الممس، والكثير والكثير من أمثال هؤلاء الفقهاء وحاول الفاطميون إلى استخدام سياسة اللين واغداق المال والجاه، فلم يجد ذلك النداء إلى قلوب المالكية سبيلاً [٥] .

وعلى الرغم من محاربة الفاطميين للمالكيين، إلا أن جامع عقبة ظل مركزاً ثقافياً يشع بالفكر والمعرفة، ومعقلاً لدراسة مذهب مالك، ويستقطب النشاطات الفكرية من حوله ، وأصبحت القيروان تعج بالأندلسيين فى القرن الثالث والرابع الهجرى وذكر ابن بشكوال[٦] أن الأندلسيين حضروا للإستماع من أبى الحسن القابسى هذا الفقيه الذى تلقى علوم الحديث من فقهاء الإسكندرية ، وتتلمذ عليهم

---

(١) الحميرى : الروض المعطار / ٤٨٧ .
(٢) الحبيب الجنحانى : القيروان عبر العصور / ١٦٣ .
(٣) الدباغ : معالم الايمان ٣/٢٩، ١٧٨ .
(٤) نفس المصدر، ٢٥ ، ٩٣ ، ١٩ .
(٥) نفس المصدر ٩٢ ، ٩٣ ، انظر : حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين / ٩٥ .
(٦) ابن بشكوال : الصلة ١ / ١٥٧ .

ردحا من الزمن[1]، ولعل هذا يؤكد أن الرحلة إلى الشرق ظلت مستمرة ، وكان الطلبة المغاربة يفتخرون بالاستماع إلى علماء الشرق والتتلمذ عليهم ، وكان عامة الناس يولون من تعلم بالشرق اهتماما كبيرا،خصوصاً إذا جاءهم مرتدياً لباس أهل الشرق ، ويتكلم بلهجتهم[2].

وإلى جانب جامع عقبة كانت هناك المساجد العتيقة الأخرى كمسجد الانصار وابن ميسره والحبلى وسواها من بقية الثلاثمائة مسجد التى كانت يومئذ منتشرة بالقيروان[3] ، واستمر النشاط الثقافى فى عهد امراء بنى زيرى على الشكل الذى تركه عليه الفاطميون، حتى أعلن الأمير الزيرى المعز بن باديس انفصاله الروحى عن الخلافة الفاطمية فى مصر ، ودعا للخلفاء العباسيين على منابر إفريقية [4]، وتطورت الحركة الأدبية والعلمية فى عهد المعز بن باديس تطوراً كبيراً، لما عرف عنه من تشجيع أهل الأدب والعلم فقد كانت القيروان فى عهده، وجهة العلماء والأدباء تشد اليها الرحال من كل فج ، لما يرونه من اقبال المعز على أهل العلم والأدب ، وعنايته بهم [5] .

وكان المعز بن باديس لا يسمع بعالم جليل أو شاعر فصيح إلا ويدنيه من حضرتة، ويضمه لخاصته حتى سار بذكره الركبان ، «ولم يكن أحد فى زمانه أطول يداً بالمكارم ، ولا أعنى بلسان العرب ولا أحنى على أهل الأدب منه » [6] ، وصار

---

(١) الدباغ : معالم الايمان ٣ / ١٣٥، انظر : جعفر ماجد : العلاقات الأدبية بين قرطبة والقيروان فى القرنين الرابع والخامس ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١٣ ، ١٩٧٦ ، ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) إبراهيم العبيدى التوزرى : تاريخ التربية بتونس ١ /١٤٦، ١٤٧ .

(٣) الشاذلى عطا الله : دور القيروان فى نشر العلم ، مجلة القيروان، الدار التونسية للنشر، ١٩٥٨ ، / ١١ .

(٤) ابن عذارى : البيان ١ /٣٩٩، انظر الفصل الأول من الكتاب .

(٥) الحبيب الجنحانى : القيروان / ١٦٥ .

(٦) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع / ٦١٤ ، ٦١٥ .

بلاطه كما وصفه ابن خلكان(1) : « محط بنى الآمال » ، وفتحوا أمراء بنى زيرى قصورهم للشعراء ، وحبوهم بكرمهم ورعايتهم ، وعقدوا لهم مجالس المناظرة، وجعلوا منهم ألسنة تلهج بمدحهم، وكان فى مقدمة هؤلاء الشعراء الحسن بن رشيق (2)، ومحمد بن شرف (3) ، إلى جانب غيرهم ممن يزخر بنماذج من أشعارهم انموذج ابن رشيق، مثل ابن الخازن ، وغيرهم(4) ، وتبعاً لذلك تسابق الكثيرون إلى المعارف والأداب ، وأبرزوا نتائج أفكارهم ، طمعاً فى عطايا الأمراء والأغنياء ، ومن الجدير بالذكر أن الأمير المعز بن باديس كان له معرفة تامة بالفن ، فكان يجيد الأغانى والتلحين ، ويجيد التوقيع على العود والرباب، وحاجبه عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الذى يصفه المقرى(5) بقوله : « .. واحد عصره فى الغناء الرائق ، والشعر الرقيق، واللفظ الأنيق .. وكان أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصنعته اللون ».

---

(1) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٥ / ٢٣٣ .

(2) الحسن بن رشيق الازدى القيروانى ، ولد فى مدينة المسيلة بالجزائر سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م ، حيث نشأ وتلقى ثقافته الأولى ، ثم انتقل إلى القيروان وفيها أتم ثقافته العالية، ولم يلبث أن أصبح أشعر شعراء عصره ، وقربه الأمير المعز بن باديس منه، والحقه بديوانه ، فاكتسب عنده المكانة الأولى ، إلى أن زحف الأعراب على القيروان، فارتحل إلى صقلية وسكن مدينة « مازره » ، حيث توفى سنه ٤٥٦هـ/١٠٦٤م ، واشتهر بكثرة مؤلفاته التى تعد بحق ثروة عظيمة فى ميادين اللغة والنقد والأدب منها : الأنموذج ، قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب ، العمدة ، الشذور. عن الحسن بن رشيق راجع : الحسن بن رشيق القيروانى : العمدة ، القاهرة ١٩٦٣ ، ١/٣ ـ ١٤ ، الأنموذج ، تحقيق محمد المطوى ، وبشير البكوش، تونس ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م / ٤١٠، ٤٣٩ ، ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع / ٥٩٧ ـ ٥٩٩ ، جعفر ماجد : العلاقات الأدبية / ١١٦ .

(3) عن ابن شرف، انظر : ابن رشيق : الانموذج / ٤٣٩ ، ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ٤/٥٩٨ ـ ٥٩٩

(4) ابن رشيق : الانموذج / ٨١.

(5) المقرى : نفح الطيب ١/١٩٤ ، الصادق الرزقى : الأغانى التونسية ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٧، / ٤١ .

وكان بشاره الزامر من حذاق زمرة المشرق، من هذا نرجح أن فن الأغانى والموسيقى أخذه المغاربة عن المشرقيين (١) .

ومن المرجح أن العلماء والأدباء والشعراء المصريين كانوا ممن يتوافد على هذه المجالس ، وعلى الرغم من القطيعة بين الدولة الزيرية والدولة الفاطمية فى مصر ، فان ذلك لم يؤثر على رحلة العلماء والطلاب ، يتضح ذلك جلياً مما تحفظه لنا كتب الطبقات .

إلى جانب هذه المجالس الأدبية ، كانت هناك مجالس تعقد فى الحوانيت أشار إليها الغبرينى (٢) بقوله : « وكثيراً ماكانوا يجلسون بالحانوت الذى هو بطرف حارة المقدسى .. وكان الحانوت المذكور يسمى مدينة العلم ، لاجتماع هؤلاء الثلاثة فيه الفقيه أبو على المسيلى ، والفقيه أبو محمد عبد الحق والفقيه أبو عبد الله القرشى » .

على أن سقوط القيروان بأيدى الهلاليين سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧م ، وماترتب عليه من هجوم النورمان على سواحل المغرب، واستيلاءهم على المهدية وجربه ، وضع حدا لهذه النهضة الثقافية ، وتفرق علماء القيروان فى كل وجه فمنهم من قصد مصر، ومنهم من قصد صقلية والأندلس ، وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب ، حيث نزلوا فاس بجامع القرويين(٣) ، وتعطلت الحركة العلمية والأدبية والفنية ، واغتنم ملوك أوربا هذه الفرصة فجلبوا علماء العرب إلى بلاطاتهم، وأصبح بلاط روجار النورمانى ملك صقلية يحوى أمثال الشريف الادريسى الطبيب الجغرافى المشهور(٤)، وأرتحل الحسن بن رشيق إلى صقلية حيث توفى بها

---

(١) الصادق الرزقى : الأغانى التونسية / ٤١ .
(٢) الغبرينى : عنوان الدراية / ١٧ .
(٣) المراكشى : المعجب/ ٤٤١.
(٤) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة /٢٧.

سنة٤٥٣هـ/١٠٦٧م، وارتحل محمد بن شرف إلى الأندلس حيث توفى باشبيلية سنة٤٦٠هـ/١٠٦٧م ، واحتل شعر الغربة والحنين إلى القيروان مكانة بارزة فى شعر ابن شرف وابن رشيق(١) ، وخبا ضوء حضارة القيروان الذى كان يشع من جامع عقبة ، وغيره من مراكز الثقافة العديدة فى إفريقية(٢) .

وعلى الرغم مما أحدثه الغزو الهلالى من تدهور لحق بمراكز الثقافة فى القيروان، فإنه ساعد على انتشار اللغة العربية والاسلام فى الريف والبوادى التونسية، وكان هذا الانتشار مستقلاً ومختلفاً عن الانتشار الذى كان منذ الفتح الاسلامى حيث المدن وأماكن التبادل التجارى ومراكز الثقافة الاسلامية ، فقد انتشرت فى افريقية بعض الكلمات والصيغ الفعلية المميزة ، ولهجات البدو وأشعارهم التي يغلب عليها طابع العامية ، وقد نقل لنا ابن خلدون نماذج منها(٣) ، وبرز شعراء من بني هلال في افريقية نذكر منهم أبي عمران شاكر الهلالى(٤) ، وانتشرت الأغاني البسيطة التى تولد عنها الشعر الملحون ، كما انتشرت الرقصات القوية «الزقارة» بواسطة عرب بنى هلال ، وشاع استعمال الطبول الكبيرة التي أتوا بها(٥) .

جامع تلمسان

منذ أسس عقبة بن نافع جامعه الكبير توالى بناء المساجد فى كل مكان من بلاد

---

(١) ابن بسام : الذخيرة، المجلد الأول ، القسم الرابع / ١٧٧، جعفر ماجد: العلاقات الأدبية/ ١١٨، محمد بن عامر : الدولة الصنهاجية / ٨٢، ٨٤

(٢) محمد بن عامر : الدولة الصنهاجية / ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر / المجلد السادس ، القسم الأول / ٣٣، انظر:
جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامى /٢٣٥ .
G. Marcais : Les Arabes en Berberie, P. 40.

(٤) العماد الأصفهانى : خريدة القصر ١٦٣/١.

(٥) محمد بن عامر : الدولة الصنهاجية /٥٥.

المغرب بحيث كان جامع تلمسان الذى بناه موسى بن نصير سنة ٨٩ هـ /٧٠٧م على الحدود بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، يضاهى جامع القيروان (١) ، واستمر هذا الجامع ليقوم بدوره كمركز من مراكز الثقافة فى المغرب الأوسط خلال القرون المتعاقبة ، « ولم تزل تلمسان داراً للعلماء والمحدثين وأهل الرأى على مذهب مالك » (٢).

وإلى جانب جامع تلمسان انتشرت المساجد فى قلعة بنى حماد وبجاية، وقد زاحمت بجاية معها القاهرة وبغداد وقرطبة ، واجتمع فيها من رجال الدين والعلم والأدب مالم يجتمع مثله أبداً فى المغرب الأوسط (٣)، وقد جدد المنصور بن علناس قصور بجاية ، وجدد جامعها ، وتأنق فى اختطاط المبانى ، وتشييد المصانع، واتخاذ القصور واجراء المياه فى الرياض والبساتين (٤)، ومن بين هذه المساجد الجامع الكبير بمدينة قسنطينة الذى يرجع تاريخه إلى سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م والجامع الكبير بالجزائر ، والذى نقش على منبره بالخط الكوفى « سنة تسعين واربعمائة » (٥).

على أن دور القيروان اذا كان قد انتهى كعاصمة فكرية لبلاد المغرب بعد الغزوة الهلالية فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، فان تأثيرها استمر بواسطة المهاجرين من علمائها وأدبائها إلى نهاية هذا القرن إلى بجاية ، التى ازدهرت بها الحركة العلمية والأدبية، وظهر فيها عدد من الأدباء والعلماء اسهموا بنصيب وافر فى النهضة الثقافية التى عمت البلاد(٦)، وقد أنشأ الناصر بن علناس فى بجاية « معهد سيدى

(١) محمد بن تاويت : الأدب المغربى /٧٢.
(٢) الحميرى : الروض المعطار / ١٣٥.
(٣) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة /٧٩، محمد بن تاويت : الأدب المغربى / ٧٣,٧٢.
(٤) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس، القسم الثانى / ٣٥٨.
(٥) ابراهيم العدوى : بلاد الجزائر /٢٩٣.
(٦) عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد /٣٤٥.

التواتى ، الذى كان يحتوى على ثلاثة آلاف طالب، وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية ، وكان مسموحاً للفتيات بالتعليم فى هذا المعهد ، وخلال حكم العزيز الحمادى كان يحاضر فى معهد سيدى التواتى علماء من الأندلس ومن الشرق(١).

ساعد على ازدهار الحركة العلمية والأدبية فى مراكز الثقافة الحمادية، العلاقات الطيبة بين الخلافة الفاطمية والدولة الحمادية ، الأمر الذى ساعد على حركة انتقال الطلاب والعلماء وبالتالى إلى ولادة مجتمع ثقافى عظيم الأهمية ، فقد كانت قاعة أدباء بجاية تضم مائة وأربع من مشاهير الأدب والطب، ومن هنا جاءت تسميتها « بمكة الصغيرة »(٢).

ويقول الغبرينى(٣) نقلاً عن الشيخ أبى على المسيلى « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتياً مامنهم من يعرفنى، وإذا كان المفتون تسعين، فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء، وغيرهم ممن تقدم عصرهم، ممن لم يدركه... لقد كان الناس على اجتهاد ، وكان الأمراء لأهل العلم على مايراد » .

ومما لا شك فيه أن هذا الثراء الفكرى يرجع إلى تشجيع أمراء بنى حماد، فقد كان الناصر بن علناس يستقدم الأدباء ويغدق صلاته عليهم ، كذلك ابنه المنصور كان يكتب ويقرض الشعر، وقد وفد عليه الشاعرابن حمديس ومدحه (٤)، ونذكر من شعراء دولة بنى حماد الشاعر على الزيتونى الذى كان شاعر المغرب الأوسط وأديبه والمعيه وأريبه ، وهو صاحب توشيح (٥) ، ويوسف بن المبارك الذى كلن من موالى بنى

---

(١) بورييه : بجاية ، كتالوج سلسلة الفن والثقافة، نشر وزارة الأخبار الجزائرية/ مدريد ١٩٧٠م ، ٥٦، ٥٨ .

(٢) عبد القادر جغلول : مقدمات فى تاريخ المغرب / ٦٠ .

(٣) الغبرينى : عنوان الدراية / ٣٢.

(٤) رابح بونار : المغرب العربى / ٢٨٢ ، ابراهيم العدوى : بلاد الجزائر/٢٩٣.

(٥) العماد الأصفهانى : خريدة القصر ١ / ١٨١.

حماد، وله فى مدائحهم من الشعر الكثير [1] ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعى الأصم، وقد ورد إلى الاسكندرية ومصر [2] ، ومن المحدثين على بن منصور الطبنى ، وأبو بكر بن يحيى الوهرانى [3]، وعبد الله بن محمود وهو من المسيلة، وكانت له معرفة بالأصول والفروع [4] ، والفقيه ابو محمد عبد الله بن سلام واصله من بجاية، ورحل الى الاسكندرية ثم مصر والصعيد [5]، وكذلك العالم النحوى الحسن بن طريف التاهرتى المتوفى سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م. [6]

والى جانب هذه المراكز الثقافية ، قامت المساجد فى المدن الحمادية الاخرى مثل تاهرت التى كان يطلق عليها عراق المغرب، او بلخ المغرب، وكان ينتشر بها مذهب الخوارج الاباضية [7] وكذلك الجزائر وبونه ، كما وجد فى هذه المدن علماء أجلاء يقصدهم طالبوا العلم من الأندلس ومن البلاد المغربية الأخرى لشهرتهم فى ذلك الوقت نذكر منهم موسى بن حماد الصنهاجى الذى كان فقيها حافظاً للرأى عالماً بالمسائل والأحكام، وكان من جلة القضاه فى وقته ، وله رواية عن أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد الازدي وأبى الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوى وغيره ، وتوفي سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م بمراكش[8]

يتضح لنا مما سبق إلي أي حد كانت قصور بني حماد بمثابة مراكز ثقافية يؤمها

---

(١) العماد الأصفهانى : خريدة القصر ١/١٨٣.
(٢) نفس المصدر ١/٤٢٤.
(٣) رابح بونار : المغرب العربى / ٢٥٩.
(٤) ابن بشكوال : الصلة ١/٢٩٨.
(٥) العماد الأصفهانى : خريدة القصر١ / ٤٢٤.
(٦) السيوطى : بغية الوعاه ١/٥١٣.
(٧) محمد بن تاويت : الأدب المغربى / ١٢٢
(٨) ابن بشكوال : الصلة ٢/٦١٤ .

العلماء والأدباء من كل حدب وصوب ، وكيف استفادت دولة بني حماد مما لحق بالقيروان عقب نكبتها على يد بني هلال ، وهجرة العلماء إليها ، الأمر الزى انعكس على النهضة الثقافية ، سواء ، فى مساجد الدولة أو في قصور الأمراء التي كانت بحق تحفة فنية رائعة لهذا العصر ، فان بناء القلعة وطابية الفنار ، وقصر البحيرة ، يعطينا فكرة عما كانت عليه مباني بني زيري فى صبرة (المنصورية) ، ويتضح تأثير مصر في التخطيطات ، والنسب الفسيحة ، وفي الواجهات المزودة بالطنوف والمشاك ، وأثبتت افريقية على انها مقاطعة فنية للمشرق ، متقبلة للطرز الوافدة من القاهرة ، وظهر هذا جليا اكثر مما كان علية فى عهد الأغالبة (١) ، ونفس الشيء فى أدب بجاية الحمادية يتحدث عنه جوتيه وبيليه على انه أدب وافد من المشرق أو من أسبانيا (٢).

وهكذا أصبحت بلاد المغرب مركزا فكرياً مستقلاً ، فالظروف التاريخيه كانت ملائمه لانتاج أدبي وازدهار فني كان لمصر دور بارز في اثراء هذه النهضة عن طريق مراكزها الثقافية وافرازات علمائها وأدبائها في ذلك العصر .

- جامع القرويين بفاس (٣) .

مدينة فاس قطب بلاد المغرب الأقصي ، واليها تشد الركائب ، وتقصد القوافل(٤)

---

(١) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق / ٢١٦ .

(٢) عبد الحليم عويس : دولة بني حماد / ٣٢٠ .

(٣) عن جامع القرويين راجع : ابن أبى زرع : روض القرطاس ٣٢ ، ٣٤، الجزنائي : زهرة الآس / ٣٣ - ٣٥ .

G. Marcais : Manuel D'art Musulman L'architecture, paris, 1926, Vol., I,p. 321.

(٤) البكري : المغرب / ١١١ ، ١١٢، الحميرى : الروض المعطار/ ٤٣٤ .

وتروي المصادر التاريخية ، أن جامع القرويين أسس في عدوة القرويين غربي فاس على عهد الامام يحيي بن محمد بن ادريس سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م، بعد ان ضاق جامع الأشياخ بوارديه ، وأن بانيته هي السيدة فاطمة أم البنين ، وهي من أسرة عربية فهرية قيروانية (١) .

اتخذ جامع القرويين صبغة دراسية جامعية إلي جانب صبغته الدينية الأساسية، فصار بعد ذلك مركز اشعاع ثقافي وروحي في المغرب الأقصي (٢) ، يؤمه العلماء والأدباء ، ويحج إليه الطلاب لا من المغرب ومصر فحسب ، بل من أطراف أوربا ، وكان يدرس فيه علوم التفسير والحديث والتوحيد ، وأصول الفقه وبعض العلوم الرياضية (٣) ، ويصف عبد الواحد المراكشي (٤) مدينة فاس بقوله : « هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيه علم القيروان وعلم قرطبة ».

علي أن خراب القيروان أدي إلي ازدهار فاس وجامع القرويين ، فقد رحل كثير من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، وأكثر هم إلي مدينة فاس ، حتي أطلق عليها «بغداد المغرب » (٥) وفي عهد المرابطين والموحدين ازدهرت الحركه العلمية بالمدينة وازداد الدور الحضاري الذي تؤديه ، فقد أصبحت كعبة العلماء ، « ولم تزل مدينة فاس .. من حين أسست دار فقه وعلم وصلاح ودين » (٦) .

---

(١) الجزنائي : زهرة الآس /٣٣ ، لسان الدين ابن الخطيب : أعمال الاعلام /٢٣٦، ٢٣٧، حاشية (٢) .
(٢) الجزنائي : زهرة الآس / ٣٠.
(٣) محمد بن تاويت : الأدب المغربي /٧٥.
(٤) المراكشي : المعجب /٤٤٣.
(٥) المراكشي : المعجب /٤٤٣
(٦) الجزنائى : زهرة الآس / ٣٠.

الجامع الكبير بمراكش :

بني يوسف بن تاشفين جامعه الكبير بمراكش (١)، ولا تزال اثاره ماثلة للعيان امام مسجد الكتبيين ، وقد كشفت عنها الحفريات المعاصرة، وجلب اليه علماء الاندلس للتدريس (٢) ، يقول المراكشي (٣) : . . « فانقطع الي امير المسلمين من الجزيرة من اهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم » .. واجتمع له ولابنه من اعيان الكتاب وفرسان البلاغة ، ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الاعصار » .

وهكذا هيأ المرابطون المناخ الملائم لازدهار العلوم والآداب ، فيصف صاحب الحلل الموشية (٤) يوسف بن تاشفين بقوله : « .. وكان يفضل الفقهاء ، ويعظم العلماء، ويصرف الأمور اليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضي علي نفسه بفتياهم » .

كما أشتد تعلق على بن يوسف بأهل العلم حتى أصبح بلاطه بمدينة مراكش لا يخلو من عالم أو فقيه أو أديب ، وأرتفع شأن هؤلاء الفقهاء فكان « لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء (٥) ، وكان يقلد العلماء، ويؤثر الفضلاء، وكان ذكياً فقيها ، مكرماً لأهل العلم يقلد الأمور الفقهاء (٦) .

عملت دولة المرابطين على إحياء تقاليد الاسلام ، ورفع لواء السنة، واتسم الأمراء

---

(١) الحميري : الروض المعطار / ٥٤٠، انظر : حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين / ٤٥١ .
(٢) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة / ٤٧ .
(٣) المراكشى : المعجب / ٢٢٧ .
(٤) مؤلف مجهول: الحلل الموشية / ٨٢ .
(٥) المراكشى : المعجب / ٢٣٥ .
(٦) مؤلف مجهول : الحلل الموشية/ ٨٤ .

والولاة بالتقوى والصلاح، وأقبلوا على المساجد يعمرونها ، ويكثرون فيها [1] ، كما انفتح المغرب فى عهد هذه الدولة على الأندلس ، بعد أن تم توحيد المغرب والأندلس تحت صولجان هذه الدولة ، واغترفوا من حضارة الأندلس وعلومها وآدابها وفنونها، ونلمس فى معالم المغرب خلال القرن الخامس الفن الأندلسى بثروته ودقته العجيبة وتفننه الباهر [2] ، على أننا لا ننكر أن الرعيل الأول من قادة المرابطين وأمرائهم لم يكونوا فى الغالب ملمين بالثقافة العربية إلماماً دقيقاً ، وعهدهم بالحياة فى الصحراء قريب [3].

وفى عهد الموحدين اتخذوا مراكش عاصمة لهم فشهدت عهداً ثقافياً جديداً يختلف كثيراً عن عهد المرابطين ، إذ كانت الثقافة المرابطية فى عمومها مستوردة من القيروان والأندلس، أما الثقافه الموحدية، التى وضع أساسها المهدى بن تومرت فقد طبعت بطابع مغربى [4] ، ولم تكتف الدولة الموحدية بتهيئة الجو للثقافة والعلم، ولكنها دفعت بالمغرب إلى نهضته الثقافية الشاملة ، وذلك بالترحيب بالقادمين من الأندلس ومن المشرق، وقد عرف رجال هذه الدولة بتقريبهم للعلماء، ورعايتهم للعلم، وليس أدل على نهضة المغرب العلمية فى تلك الفترة من وفرة العلماء والمؤلفات فى أغلب فروع المعرفة ، تلك الوفرة التى لم يعرفها المغرب من قبل ، والتى اتضحت معها الشخصية العلمية للمغرب واستقلت إلى حد كبير [5] ، وساعد على ذلك شيوع الرحلة فى طلب العلم ، وقد استنها فى الخلافة الموحدية ابن تومرت الذى رحل إلى

---

(١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين / ٤٥١ .

(٢) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة / ٤٦ .

(٣) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين / ٤٤١ .

(٤) علام : الدولة الموحدية/ ٢٧٦ .

(٥) محمد بن تاويت : الأدب المغربى / ١٣١ .

المشــرق وعــرج على الاسكندرية ونـهل من علم أســاطينهــا ، والتــقى هناك بالطرطوشى[١] ، ويروى ابـن القـطـان [٢] فى هـذا الصــدد : « ونزل المهــدى مـدينة الاسكندرية ، فرأى بهـا مناكـر فـغيرهـا ، وأغلظ فى أمرها، فـقـامت عليـه العامـة والغوغـاء، وصـاروا يقطعون عليه طريقه إلى مجلس أبى بكر الطرطوشى، فلما فقده الطرطوشى بحث عنه حتى أعلم بمكانه ، فقصد إليه وهو فى مسجد الأخضر على ساحل البـحر ، فترامى عليه وصافحه، وسأله عن سبب غيبته عن مجلسه، فعرفه بشأن أولئك الغوغاء، وأنه يريد الذهاب إلى المغرب، فودعه وانصرف » .

ونخرج من هذا النص أن المهدى بن تومرت الذى تأثر فى دعوته بآراء المعتزله فى المشرق، وفكرة المهدوية والعصمة ، كان ينشر فكره الموحدى فى الاسكندرية ، ولم ينته هذا الفكر برحيله إلى المغرب، بل ترك صدى كبيراً فى نفوس المصريين، فقد كان المصريون يترقبون مجيء الموحدين[٣] .

عمـل ابـن تومرت فى طريـق عـودتـه إلى بـلاد المغرب علـى استغلال المساجد فى نشـر دعـوته فى الأمـر بالمعروف والنهى عـــن المنكر ، فـقــد كـان ينـام فى مـسجـد المدينـة التى يمـر بهـا ، ويأتى الناس إليـه لســمـاع دعـوتـه[٤] ، وكــان إذا انفصل عـن مجــلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة، وأما خليفتـه عبد المؤمــن بـن علـى، فيصفه المراكشى [٥] بقوله : « وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم، محباً لهم، محسناً

---

(١) المراكشى : المعجب / ٢٤٦ .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان / ٣٨، ٣٩ .
(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير / ٥٣، ٧٠ .
(٤) ابن القطان : نظم الجمان / ٢٩، جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق / ٢٩٠، ٢٩١ .
(٥) المراكشى : المعجب / ٢٥٠، ٢٦٩ .

إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده ، والجوار بحضرته، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والاعظام لهم » .

ازدهرت الحركة الثقافية فى عهد عبد المؤمن بن على بفضل تشجيعه للعلم والعلماء وغدا قصره مركزاً ثقافيا يعج بالعلماء فقد كان « عالماً بمقادير العلماء .. ووقف الحفاظ لحفظ كتاب الموطأ [1] ، وكتاب أعز ما يطلب ، وغير ذلك من تواليف المهدى، وكان يدخلهم كل يوم جمعة بعد الصلاة داخل القصر، فيجتمع الحفاظ فيه ، وهم نحو ثلاثة آلاف » [2].

ومهما يكن من أمر فان قصور الموحدين أصبحت بمثابة مراكز ثقافية لنشر العلم والمعرفة، وازدهرت الثقافة فى عصرهم ولعل ذلك مرده إلى تشجيع الخلفاء وتنشيط الرحلة إلى الفسطاط والقاهرة والاسكندرية، فقد كان المشرق الاسلامى بصفة عامة ومصر بصفة خاصة منبعاً خصباً للتأثير العلمى والأدبى والفنى [3] ، وكما تأثر المغرب الاسلامى فى عصر الموحدين بالمشرق علمياً فقد تأثر كذلك فنياً، فنجد فى الفن الأندلسى للقرن العاشر الميلادى أكثر من علامة لأثر القيروان والقاهرة ، ويتضاعف هذا الاقتباس فى عهد الموحدين، فمثلاً شكل حنية أو رسم سعفه تبنتها مراكش، إنها مستوحاة من نماذج فى إفريقية، وبذلك يكون نوع من التوفيقية

(١) ومن الطريف أن المهدى بن تومرت وضع كتاباً أسماه موطأ المهدى، وهو عبارة عن الأحاديث النبوية التى وردت فى موطأ مالك بعد حذف معظم الاسناد منها للاختصار ، ونشر موطأ المهدى بن تومرت فى مطبعة فونتانه الشرقية بالجزائر سنة ١٩٠٧، وتوجد بالخزانة العامة بالرباط نسختان خطيتان من هذا الكتاب تحت رقمى ٨٤٠ ج ، ١٢٢٢ ج . (انظر : أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب / ١٠٩ ، حاشية رقم (٢)) .

(٢) مؤلف مجهول : الحلل الموشية / ١٥٠ .

(٣) ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى / ٣٨٥ .

(الألفة) ، يشرحها ظهور سلطة واحدة لكل المغرب الاسلامى [١]، فقد وضع الموحدون أمام أعينهم المبانى الفاطمية والصنهاجية ذات الالهام المشرقى [٢] ، كما كان التأثير المغربى على المشرق واضحاً ، وأبرز مثل للتأثيرات المغربية ارتباط كلمة الزليجى المغربية، وتقابل الفسيفساء المشرقى بكلمة «زليزلى » العامية، وانتشار ذلك فى مصر بوجه خاص باعتبارها أكثر الأقطار المشرقية ارتباطاً بالمغرب وتعرضاً لتأثيراته، يتجلى ذلك من قول المقرى [٣]، : « ويصنع بالأندلس نوع من المفضض وهو ذو الوان عجيبة يقيمونه مقام الرخام الملون الذى يعرفه اهل المشرق فى زخرفة بيوتهم كالشاذروان وما يجرى مجراه » .

الرباطات :

تعد الرباطات من أهم مراكز الثقافة فى بلاد المغرب ، لما كانت تقوم به من دور هام فى هذا المجال ، ويرجع انشاء الرباط إلى الوالى هرثمة بن أعين الذى أسس رباط المنستير سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م بطرابلس الغرب[٤] ، لتعرض سواحل البلاد لغارات الأسطول البيزنطى بعد فتح العرب لها، واضطر أهل المغرب إلى تحصين الثغور بالمقاتلة الذين أخذوا يرابطون فيها للدفاع عن المسلمين، والحيلولة بين المقاتلة البيزنطيين وبين النزول الى البر [٥] .

---

(١) G . Marcais : Manuel d'art musulman, I, p.424 - 425 .

(٢) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها / ٣١٢.

(٣) المقرى : نفح الطيب ٢٠٢/١، راجع فى ذلك : السيد عبد العزيز سالم : « بعض المصطلحات للعمارة الأندلسية المغربية » ، صحيفة معهد الدرسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ، العددا ، ٢ / ١٩٥٧ ، / ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى / ٣٨٧ .

(٤) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة بالمغرب / ١٦

(٥) محمد بن تاويت : الأدب المغربى / ٩٢، حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين /١٢٨ .

والرباط هو تكتة تتكون من صحن ومن عشرات الغرف الانفرادية حوله، ومن الطبقات التى تعلو جوانبه، وتنتهى بجامع كبير وصومعة مستديرة للآذان، وخصوصاً لمراقبة السواحل من غارات الروم ، واقامة العلامات النارية بالليل التى تتناقلها الأربطة أولاً بأول من أدنى رباط بسبتة فى أقصى المغرب إلى الاسكندرية (١) ، والرباط فوق ذلك كله مركز ثقافى يبث فيه المرابطون العلم فى صدور النساء والرجال احتساباً، هذا فضلاً عن أنه معهد صناعة للحبر والرق والكاغد لتوزع على الطلبة بالمجان ، ودار استنساخ للمصاحف ، ومجامع الحديث وكتب الفقه ، فالمؤلفون يحبسون تصانيفهم بخطوط أيديهم على الأربطة، لتكون منه النسخة الأم التى يرجع إلى نصها الصحيح ، ويتولى المرابطون نسخ الكتب وتوزيعها على طلاب العلم بالمجان ، وفى كل رباط مكتبة جدارية مفرغة في طاقات من الحائط، ولما كان عدد الأربطة الفا بالمغرب ، فقد كانت هناك الف مكتبة (٢) .

ومما يجدر ذكره أن الرباطات كان يؤمها العلماء والطلبة من كل حدب وصوب ، فكان الامام سحنون ويحيى بن عمر ومحمد بن سحنون والامام المازرى وغيرهم من العلماء يقضون شهراً، وأحمد بن الجزار القيروانى الذى كان يقرىء الطب ويعالج المرضى فى أشهر معلومة من السنة فى الرباط حيث يدرسون العلم احتساباً، ومشاهد القبور التى وجدت بالأربطة لدليل واضح على مرابطة العلماء بها(٣)، وكثيراً ماترد هذه العبارة فى ترجمة الفقهاء والصلحاء « وكان فقيهاً صالحاً عابدا ذا حج ورباط وسياحة » (٤) .

وأما عن التعليم بالرباط فهو شرح لأصول التعليم بالكتّاب ، فهنالك تفسير القرآن

---

(١) المراكشى : المعجب / ٤٣٢، التوزرى : تاريخ التربية بتونس ١٥٧/١ .
(٢) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة /١٧ .
(٣) التوزرى : تاريخ التربية بتونس / ١٦٠ .
(٤) الدباغ : معالم الايمان ٣ / ٥٣ .

الكريم والحديث الشريف، وكتب الفقه وشعر المواعظ الذى يسمى « الرقائق » ، وفى نفس الوقت الذى أسست فيه المجموعة الأولى من الأربطة فى أواخر القرن الثانى الهجرى ظهرت ظاهرة جديدة فى ميدان العلم والثقافة ، وهى الرحلة العلمية من الأندلس والمغرب إلى القيروان من ناحية ، ومن القيروان إلى الفسطاط و المدينة ودمشق وبغداد من ناحية أخرى، فطالب العلم إذا ماإجتاز عامة المراحل التعليمية الموجودة بالقيروان يشد الرحال إلى المشرق بنية الحج الدينى والحج العلمى ، وهذا ماجعل الحج من الفرائض التى يحرص كل مغربى على آدائها(١) .

المكتبات :

لما أسس الفاطميون مدينة المهدية، نقلوا إليها بيت الحكمة الذى كان شيده الأغالبة برقادة، ولما انتقلوا إلى القاهرة حملوا ما تجمع عندهم من تلك النفائس العلمية، فمكتبة رقادة كانت هى النواة الأولى لمكتبة الفاطميين بالقاهرة (٢) .

ولم يقتصر الفاطميون على الاستحواذ على مكتبة بيت الحكمة برقادة، بل صرفوا جل عنايتهم إلى جلب الكتب واستنساخها وفى تأسيس المكتبات ، فقد أسس المعز لدين الله الفاطمى مكتبة عظيمة بالمنصورية، وجلب إليها الكتب التى كانت بالمهدية ، وكان يرسل وفوداً إلى جميع أنحاء العالم الاسلامى لاقتناء المؤلفات على اختلاف أنواعها(٣) ، بيد أن المكتبات لم تبلغ شأواً عظيماً إلا فى عصر الدولة الزيرية ، فكان المعز بن باديس يهادى العلماء بالكتب ، وقد أهدى مرة أبا بكر عتيق السوسى تسعمائة

---

(٣) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة / ١٩

(٤) التوزرى : تاريخ التربية بتونس /١٥١ .

(٣) التوزرى : تاريخ التربية بتونس /١٥١ .

الف مجلد من نفائس المصنفات أرسلها إليه على رؤوس الحمالين عقب مجلس علمى استحسن فيه الأمير آراء هذا الأديب (١).

بالاضافة إلى انتشار المكتبات ، كانت هناك حركة تحبيس الكتب واسعة النطاق، يدلنا على ذلك الكتب والمصاحف الكثيرة من مخطوطات ذلك العصر ، والتى مازالت إلى الآن بمكتبة القيروان العتيقة ، وكما كان الأمراء من بنى زيرى، كانت أيضاً الأميرات يحبسن الكتب التى قد تنسخ بأيديهن أحياناً، فالأميرة أم ملال عمة المعز وفاطمة حاضنة أبيه، وأم العلو أخته وزليخاء زوجته حبسن كثيراً من الكتب التى مازالت موجودة بمكتبة القيروان (٢).

كانت الخاصة من العلماء مولعين بجمع الكتب واستنساخها فيروى أن القاضى عيسى بن مسكين المتوفى سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٢م كان جماعاً للكتب، حكى عنه تلميذه الكاشى فقال : « أدخلنى عيسى مدة قضائه برقادة بيتاً مملوءاً بالكتب، من جمعه وقال : كل هذه الكتب رواية لى ومافيها كلمة غريبة إلا وأنا أحفظ لها شاهداً من كلام العرب » (٣) .

ومن أكبر المكتبات وأجلها مكتبة آل الجزار الأطباء ولا سيما خزانة أحمد بن الجزار الحكيم المشهور يتجلى ذلك من قول ابن جلجل (٤) : وجدت له بعد موته أربعة وعشرين الف دينار ذهباً وعشرين قنطاراً من الكتب بين طبية وغيرها » .

كما عنى أمراء بنى حماد بجمع الكتب وكان بجامع المنارة بالقلعة مكتبة مليئة

---

(١) حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق / ٦٢.
(٢) أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية / ٥٥، ٥٦.
(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب / ١٨٠ .
(٤) ابن جلجل : طبقات الأطباء ١/ ٣٨.

بالكتب المحمولة من أقطار المغرب ، أو المنقولة من دروس أساتذه الجامع [١] ، وانتشرت المكتبات العامة والخاصة فى عهد الموحدين، وقد ساعد على ذلك تشجيع الخلفاء على حركة التأليف وشراء الكتب ، وكانت هناك أماكن محددة لبيع الكتب ، ففى مدينة مراكش وبجوار جامع الكتبيين وجد مايقرب من مائتى متجر لبيع الكتب ، كما وجد أيضاً بمدينة تلمسان سوقاً لبيع الكتب [٢] .

وأما أدوات الكتابة فكانت متنوعة وكثيرة يصنع أغلبها بالقيروان ، فكانوا يكتبون على جلود الخرفان المصقولة أو على البردى المصنوع من قصب خاص ، وكان أجود ما يجلب من مدينة الاسكندرية [٣] .

إلى جانب هذه المراكز الثقافية السالفة الذكر كان هناك العديد من المساجد والمكتبات فى المدن المغربية ، بيد أننا آثرنا أهمها بروزاً فى العلاقات الثقافية فى تلك الفترة .

---

(١) عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد /٣٢٣.

(٢) حسن على حسن : الحياة الادارية / ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ .

(٣) التوزرى : تاريخ التربية / ١٥٦

ثالثا : الصلات الثقافية :

كان أهل المغرب يشدون الرحلة إلى الشرق لاعجابهم بعلمائه ، وللحصول على إجازة ترفع من شأنهم ، فى مجتمع أنظاره مشدودة إلى مهد الاسلام واللغة العربية ، ولم تكن مصر غريبة على الرحالة المغاربة منذ بداية العصر الإسلامى ، بل إن صلتهم بها صلة وثيقة ، قديمة قدم الإسلام فى المغرب ، وإيمان المغاربة بضرورة تأدية فريضة الحج ، يتيح لهم المرور على مصر والاستماع إلى علمائها [١] ، يقول ابن خلدون[٢] : «ان الرحلة فى طلب العلوم ، ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعلم » .

ازدادت الصلات الثقافية بين مصر والمغرب بعد الفتح الفاطمى لمصر ، فنشطت الرحلات المغربية إلى مصر التى وصلت إلى الذروة الفكرية والعلمية فى العهد الفاطمى[٣] ، ولئن عرف الكثير من رجال العلم الذين شدوا الرحال إلى مصر ، فما أكثر الذين خفى ذكرهم ، يقول المقرى[٤] : « حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا حال » ، واذا أردنا أن نعطى صورة واضحة للصلات الثقافية ، نجد لزاماً علينا الرجوع إلى كتب الطبقات فهى المراجع التى تؤرخ للنهضة الثقافية ، وتتناول العلماء وتترجم لهم ، وتكشف عن آثارهم العلمية ، وتعرف وتفصل أمر شيوخهم وتعرض لمذاهبهم ، وسنقتصر على نماذج لهؤلاء العلماء المغاربة فى مختلف العلوم سواء من عاد منهم إلى بلده بعد أن تفقه بالعلم أو بقى بمصر وخاصة فى الاسكندرية .

---

(١) ابن رشيد : رحلة ابن رشيد / ١٤٤، ١٤٥ ، جعفر ماجد : العلاقات الأدبية بين قرطبة والقيروان/ ١٠٧ .
(٢) ابن خلدون : المقدمة / ٥٤١ .
(٣) ابن رشيد : رحلة ابن رشيد / ١٤٩ .
(٤) المقرى : نفح الطيب ٥/٢ .

أولا : العلوم الدينية :

« القراءات وعلوم القرآن »

من المعروف أن العلوم العربية والاسلامية انما نشأت بسبب القرآن الكريم وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه وتفسير غريبه وتفهم معانيه ، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم موضع اهتمام المسلمين فى جميع الأقطار الاسلامية ومنها مصر ، وكان العلماء والطلاب المغاربة الذين اهتموا بهذه الدراسات كثيرون جدا ، نذكر منهم مكى ابن أبى طالب بن محمد بن مختار القيسى المقرىء ، وأصله من القيروان سمع بمصر من أبى الطيب بن غلبون ، وقرأ عليه القرآن وعلى ابنه طاهر ، وقد جاء مكى بن أبى طالب إلى مصر وهو ابن ثلاث عشرة سنة فى سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م تلقى علوم القراءات على الفقيه المصرى أبى الطيب بن غلبون مدة ثلاث عشرة سنة ثم عاد الى القيروان حيث توفى سنة ٤٣٧هـ / ١٠١٦م [١] .

كما رحل إلى مصر لتلقى العلم بها أحمد بن على أبو جعفر الازدى القيروانى ، قرأ على أبى الطيب بن غلبون ، وتوفى بالقيروان سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م [٢]، ونذكر من هؤلاء العلماء المغاربة موسى بن أبى حاج الغفجومى الفاسى وأصله من فاس ، تفقه بالقيروان على الشيخ أبى الحسن القابسى ، وعلى بن احمد اللواتى السوسى ، ثم رحل إلى المشرق ، وأخذ بمصر القراءات على أبى الحسن عبد الكريم بن أحمد بن أبى جدار [٣] وشاهد مجلس القاضى أبى بكر بن الطيب ، وكان أبو عمران الفاسى من أحفظ الناس وأعلمهم ، وكان يقرىء القرآن بالسبعة ويجودها ، وتوفى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م [٤] .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ٢/٦٣١، ٦٣٣ .
(٢) ابن الجزرى : طبقات القراء ١ / ٩١.
(٣) الدباغ : معالم الايمان ٣ / ١٦٠.
(٤) ابن بشكوال : الصلة ٢/٦١١ ، ٦١٢.

ومن هؤلاء العلماء سليمان بن أحمد الطنجي وأصله من طنجة ، ارتحل إلى المشرق، وتحقق بعلم القراءات ، وشارك أبا الطيب بن غلبون المقرىء ، وقرأ معه على شيوخ عدة ، وقدم الأندلس فأقام بالمريّة ، وقرىء عليه وانتفع به دهراً ، وكانت وفاته قبل سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م (١)، كما رحل إلى مصر أبو القاسم يوسف بن على بن جبارة الهذلى البسكرى المولود سنة ٤٠٤هـ/١٠١٢م ، فقد كان له علو كعب فى علوم القراءات ، وذاع صيته فى الآفاق وكان يقول عن نفسه « لا أعلم أحدا من هذه الأمة ، رحل فى القراءات رحلتى » ، واستدعاه نظام الملك إلى الاقراء بمدينة نيسابور إلى أن توفى سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م ، وقد ترك لنا مؤلفات كثيرة منها كتاب الكامل فى القراءات (٢).

وهناك من العلماء المغاربة من طاب لهم المقام فى مصر واستوطنوها ، وتركوا فى مصر تلاميذ أخذوا عنهم علومهم ، كما تأثروا هم بعلماء مصر منهم الحسن بن خلف ابن عبد الله بن بليمة القيروانى نزيل الاسكندرية ، ومصنف كتاب تلخيص العبارات فى القراءات ، وعنى بالقراءات وتقدم فيها ، وتصدر للاقراء مدة ثم توفى بالاسكندرية فى سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م (٣) ، ومثل عبد الرحمن بن أبى بكر عتيق بن خلف ، صاحب كتاب التجويد فى القراءات ، انتهت إليه رياسة الاقراء بالاسكندرية علوّا ومعرفة ، وقال عنه سليمان بن عبد العزيز الأندلسى : « مارأيت أحداً أعلم بالقراءات منه لا بالمشرق ولا المغرب، وتوفى فى ذى القعدة سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م(٤).

واذا تحدثنا عن علماء القراءات المغاربة الذين رحلوا إلى مصر واستقروا بها ، واستفادوا من علمائها يجب ألا يفوتنا ذكر أبى العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ٢/٦٣١، ٦٣٣، عفيفى محمود ابراهيم : مظاهر الحضارة / ٢٨٥
(٢) ابن الجزرى : طبقات القراء ١ / ٩١ .
(٣) الدباغ : معالم الايمان ٣ / ١٦٠ .
(٤) ابن بشكوال : الصلة ٢/٦١١ ، ٦١٢ .

هشام بن الخطيئة اللخمى الفاسى ، يقوله عنه السيوطى[1] : « كان رأسا فى القراءات السبع ومن مشاهير الصلحاء وأعيانهم ، ولد بفاس سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ، وانتقل إلى الديار المصرية ، فقرأ على ابن الفحام وقرأ الفقه والعربية ، وسكن مصر ، وتصدر بها للاقراء ، وتوفى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م ، ودفن بالقرافة .

وأما عثمان بن على بن عمر السرقوسى الصقلى ، يروى ياقوت[2] عن الحافظ السلفى «أنه كان من العلم بمكان نحواً ولغة ، وقرأ القرآن على إبن الفحام وغيره ، وله تواليف فى القرآن والنحو والعروض ، وصارت له فى جامع مصر حلقة للاقراء ، وقرأ علىّ كثيرا ، وعلى من كنت أقرأ عليه كأبى صادق وابن بركات الفراء الموصلى، وآخرين » .

ونستطيع من هذه اللمحة التى أسلفناها أن نتبين أن الفاطميين قد أفسحوا صدورهم لهؤلاء العلماء المغاربة ، وسمحوا لهم بالتحلق فى المساجد ، وأغدقوا عليهم الهبات ، كما لقى فقهاء المغرب وطلابه كل الترحيب والعون والاحترام من قبل علماء مصر ، الأمر الذى ساعد على ازدياد الرحلة إلى مصر وأتاح لبعضهم الاستقرار فى مصر ، مما يدل على عمق الصلات الثقافية بين مصر ودول المغرب فى عصر الدولة الفاطمية .

الحديث :

نشطت رواية الحديث فى مصر كما كان عليه الأمر فى البلاد الاسلامية ، وكثرت الرحلة فى طلبه ، وكانت مصر من أهم مراكز الرواية منذ دخول الاسلام إليها ، ومن أشهر المحدثين الذين كانوا فى مصر الفاطمية أبو بكر محمد بن حسن المصرى ، نزيل تنيس ، فقد سمع من النسائى وأبا على وروى عنه الدار قطنى وغيره ، وتوفى

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ٤٥٣/١ .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١٣٠/١٢ .

سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م[1] .

وتكشف لنا كتب الطبقات عن تفوق علم الحديث فى مصر فى عصر الدولة الفاطمية تفوقا عظيما ، مما حمل الطلاب المغاربة على أن يشدوا الرحلة إلى مصر نذكر منهم أبا الحسن على بن أحمد بن خلف المعافرى المعروف بابن القابسى الفقيه ، رحل إلى المشرق سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م، ثم عاد إلى مصر فأقام بها يسمع الحديث فسمع بالاسكندرية من أبى الحسن على بن جعفر الثانيانى ، وسمع بمصر ومكة من جماعة كثيرين ، ثم عاد إلى القيروان سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م، وسمع من طائفة من العلماء منهم أبو عمران الفاسى ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وأبو القاسم اللبيدى وأبو على حسن بن خلدون وتوفى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢م ، وترك لنا تصانيف كثيرة منها الممهد بلغ فيه إلى ستين جزءاً ، وتوفى ولم يكمله ، وهو مبوب على أبواب الفقه جمع فيه بين الحديث والأثر والفقه ، وله كتاب الملخص ، ورسالة فى الاعتقادات ، ورسالة أحمية الحصون وكتاب المناسك ، والرسالة المفصله لأحوال المعلمين والمتعلمين [2] .

أما محمد بن تميم بن أبى العرب التميمى القيروانى ولد سنة (٣٣٧هـ/٩٤٦م)، وكان من أهل الفضل والثقة واسع الرواية ، وكان من أهل الصدق والتحرى فيما ينقله، روى الحديث عن أبيه وعن غيره ، رحل إلى مصر والتقى بكبار علمائها ، وتوفى سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م[3] .

ونذكر من هؤلاء العلماء المغاربة أبا القاسم عبد الرحمن بن على بن محمد الكنانى المعروف بابن الكاتب ، سمع من القابسى ، وكان أحد الفقهاء المستنبطين والعلماء

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ٣٥٢/١.

(٢) ابن الدباغ : معالم الايمان ١٣٥/٣.

* تم نشر الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين ، تحقيق الدكتور احمد فؤاد الأهوانى، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٥م.

(٣) ابن بشكوال : الصلة ٥٩٩/٢، ٦٠٠.

الراسـ ين ، ورحل إلى المشرق وحج ، وسأله الطائى بمصر عن فروق أجوبة فى مسائل مشتبهة من المذهب ، فقال الطائى : « وقد كان أعضل جوابها كل من لقيت من علماء العراق ، فأجابنى أبو القاسم فيها ارتجالا » وتوفى سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م (١) .

أما عثمان بن أبى بكر بن حمود الصفاقسى من أكثر المبرزين فى علم الحديث وأصله من صفاقس ، كانت له رحلة بالمشرق وأخذ عن علمائها ومحدثيها ، وكتب عن أبى النعيم أحمد بن عبد الله الحافظ وهو أحد المحدثين مائة الف حديث بخطه، وكان حافظاً للحديث وطرقه وأسماء رجاله ورواته، وكانت له روايه واسعة، ومعه كتب كثيرة من روايته بالعراق والشام والحجاز ومصر ، وتوفى أثناء عودته من القسطنطينية لسفارة المعز بن باديس سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م(٢).

ومن آئمة هؤلاء الأعلام الرحالة الفقيه الكبير أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى، ولد بمدينة طرطوشة سنة ٤٥١هـ/١٠٥٩م ، واليها ينسب، ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م فى الخامسة والعشرين من عمره أولاً لأداء فريضة الحج ، ثم لتلقى العلم الاسلامى فى المشرق، فرحل الى مكة ومنها الى بغداد والبصرة واقام بالشام فترة ودرس بها ، ثم رحل منها الى مصر ، واقام بالقاهرة، واستقر بالاسكندرية (٣) ، وفيها عاصر الطرطوشى محنة مصر على يد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى عندما قتل نزار بن المستنصر الفاطمى، وما صاحبها من عدم اقامة الشعائر الدينية، ومنها توقف صلاه الجمعة خوفاً من الفتن ، ولم يمض وقت غير طويل بالاسكندرية حتى ذاع صيته ، فقصده طلاب العلم يتتلمذون على يديه ، بيد أن الوزير الأفضل لم

---

(١) الدباغ : معالم الايمان ١٥٥/٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ٤٠٨/٢، ٤٠٩ .

(٣) راجع الطرطوشى : سراج الملوك / ٣٢، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٧٩/١، ٤٨٠، جمال الدين الشيال : اعلام الاسكندرية /٨٨، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية /٢٢٣ .

يتركه وشأنه، بل أخرجه من الاسكندرية وألزمه الاقامة فى الفسطاط، ومنع الناس من الأخذ عنه ، وهكذا حتى تولى الوزارة المأمون البطائحى فأكرم الشيخ الطرطوشى وعظمه ، وسمح له بالعودة إلى مدينة الاسكندرية ، حيث استأنف نشاطه العلمى ، ثم صنف للبطائحى كتاباً فى السياسة والحكم أسماه «سراج الملوك» (١) وهو من أهم مؤلفات الطرطوشى يذكر فيه : « فان العلم عصمة الملوك والأمراء ومعقل السلاطين والوزراء، لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته .. »(٢) .

استمر الطرطوشى فى أداء رسالته العلمية ، فبدأ بالتدريس على مذهب مالك ، وكان يقول : « ان سألنى الله تعالى عن المقام فى الاسكندرية لما كانت عليه فى أيام الشيعة العبيدية ... أقول له : « وجدت قوما ضلالا ، فكنت سبب هدايتهم »(٣).

هذا وقد تزوج الشيخ الطرطوشى بالاسكندرية من سيدة ذات مال فتحسنت أحواله، وبنت له داراً كبيرة، فاتخذ الدور العلوى منها سكناً لأسرته ، وأباح قاعدتها وسفلها للطلبة، فجعلها مدرسة، ولازم التدريس وتفقه عنده جماعة من المصريين والمغاربة ، يصفه السيوطى (٤) بقوله : « وكان إماماً عالما زاهداً ورعاً متقشفاً متنقلاً له تصانيف كثيرة .. » .

ويصفه الضبى (٥) بقوله « وكان أوحد زمانه علماً وورعاً وزهداً، لم يتشبث من

---

(١) الضبى : بغية الملتمس /١٣٥ ، انظر : الموسوعة المصرية، مادة الطرطوشى، المجلد الأول، الجزء الثالث ، /١٠٠٧

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك /٣٢ .

(٣) ابن رشيد : رحلة ابن رشيد/١٤٧.

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ١/٤٥٢.

(٥) الضبى : بغية الملتمس /١٣٥، ١٣٦، المقرى : نفح الطيب٢/٨٥، ٨٨.

الدنيا بشيء إلى أن توفى ،، وتوفى الطرطوشى بالاسكندرية فى سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦-١١٢٧م [١] .

كما رحل إلى مصر فى طلب الحديث الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربى المعافرى المعروف بابن العربى، رحل مع أبيه إلى المشرق فى سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، وتوجها قاصدين ديار مصر التى كانت طريقهم عليها ، وممن لقيهما فى مصر وأخذ عنهما أبو الحسن بن شرف ، ومهدى الوراق، وأبو الحسن بن داود الفارسى [٢] ، وقد لقى ابن العربى أبا حامد محمد الغزالى (٤٥٠-٥٠٥هـ) فى بغداد ، حيث كان الغزالى يدرّس فى النظامية، وفى مجالسه العامة، وفى سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨ كان والد بن العربى قد أثرت فية الشيخوخة ، وعاد إلى الاسكندرية حيث توفى والده ، ودفن فى الثغر [٣] ، والتقى ابن العربى بالطرطوشى وتفقه عنده ولقى جماعة من المحدثين، فكتب عنهم واستفاد مدهم وأفادهم، ثم عاد إلى الأندلس بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق [٤].

ويوضح لنا أبو بكر بن العربى[٥] السبب فى خروجه إلى المشرق فى قوله : « وقد كنت مع غزارة السبيبة، ونضرة الشبيبة أحرص على طلب العلم فى الافاق.. وأرى أن التمكن من ذلك فى جنب ذهاب الجاه ، وبعد الأهل بتغيير الحال ربح فى التجارة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦/ ١٠٠.

(٢) القاضى أبى بكر بن العربى : العواصم من القواصم / ١٠ ،١٣ ، المقرى : نفح الطيب ٢/٢٥، ٢٦.

(٣) نفس المصدر /١٢، ١٩.

(٤) ابن بشكوال : الصلة ٢/٥٩٠، ٥٩١.

(٥) إحسان عباس : رحلة ابن العربى إلى المشرق، كما صورها « قانون التأويل »، الجزء الثانى، العدد ٤٩٣، مجلة الأبحاث الأمريكية كانون الأول ١٩٦٨، الجامعة الأمريكية فى بيروت ، /٧٣، ٧٤.

ونجح فى المطلب.. ولقد كنت يوماً مع بعض المعلمين فجلس الينا أبى رحمه الله يطالع ما انتهى إليه علمى.. فدخل علينا أحد السماسرة وعلى يديه رزمة كتب تأليف السمنانى والباجى ، فسمعت جميعهم يقول : « هذه كتب عظيمة وعلوم جليلة جلبها الباجى من المشرق ، فصعدت هذه الكلمة كبدى ، وقرعت خدى، وجعلوا يوردون فى ذكره ويصدرون، ويحكمون أن فقهاء بلادنا لا يفهمون عنه ولا يعقلون.. ونذرت فى نفسى طية لئن ملكت أمرى لأهاجرن إلى هذه المقامات، ولا فدن على أولئك الرجالات ، ولأتمرسن بما لديهم من المعاقد والمقالات» .

ولعل ذلك يصور لنا تلهف المغاربة لطلب العلم بالمشرق، ومن الطبيعى أن مصر كانت مرحلة ضرورية فى هذه الرحلة بفضل مراكزها الثقافية المتعددة وعلمائها المبرزين، كما نستشف من قول ابن العربى ، المكانة العلمية لعلماء المشرق ، ونظرة المغاربة اليهم باعتزاز واجلال مما حمل ابن العربى على عقد النية والتطلع للرحلة إلى المشرق.

أما القاضى عياض بن موسى بن عياض اليحصبى - من أهل سبتة - فقد تألق نجمه فى أوائل القرن السادس الهجرى، وأصبح من أعلام مدرسة سبتة وجلة فقهائها، رحل إلى المشرق وأخذ عن القاضى أبى على حسين بن محمد الصدفى كثيراً وعن غيره، وعنى بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم ، وجمع من الحديث كثيرا[١]، يصفه الضبى[٢] بأنه « فقيه محدث عارف أديب »، فقد كان القاضى عياض إمام وقته فى الحديث وعلومه، عالماً بالتفسير ، فقيهاً أصولياً، عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب[٣] ،

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٥، ٣/١، ابن فرحون : الديباج المذهب ، ٤٦/١، ٥١، ابن بشكوال : الصلة ٤٥٣/٢ .

(٢) الضبى : بغية الملتمس /٤٢٢.

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ٤٦/١.

وله تواليف كثيرة منها كتاب الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، وتوفى بمراكش سنه ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م (١).

دراسة مذاهب أهل السنة :

ونعرض هنا لموضوع تباينت فيه أقوال المؤرخين منذ العصر الفاطمى إلى الآن، فقد ذهب أكثر المؤرخين إلى أن الفاطميين كانوا شديدى التعصب لمذهبهم الفاطمى، وتطرفوا فى عصبيتهم حتى أنهم أكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم رهبة لا رغبة، وأنهم فى سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب أهل السنة، بل أفنوهم تقتيلاً وتشريداً، يقرر ذلك السيوطى بقوله (٢) « فى القرن الرابع الهجرى ملكت العبيديون مصر ، وافنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة (الشافعية والمالكية والحنفية) قتلاً ونفياً وتشريداً» ..

ومثله ابن العربى (٣) الذى زار مصر فى آخر سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م فى عهد المستنصر بالله الفاطمى يؤكد أن علماء أهل السنة قليلى الظهور ، حتى أنه كان يذهب إلى القرافة قريباً من قبر الامام الشافعى ليلقى فيها شيخه مسند مصر القاضى أبا الحسن على بن الحسن بن الحسين بن محمد الخلعى الشافعى (٤٠٥ - ٤٩٢هـ) .

كذلك يروى المقريزى (٤) أنه فى سنة ٣٨١هـ/٩٩١ - ٩٩٢م فى أثناء حكم الخليفة العزيز بالله « ضرب رجل بمصر وطيف به فى المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس ».

---

(١) الضبى : بغية الملتمس /٤٢٢.
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ٤٨٠/١
(٣) ابن العربى : القاضى أبو بكر : العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، /١٣.
(٤) المقريزى : الخطط ٣٤١/٢.

واذا ما ناقشنا أقوال هؤلاء المؤرخين نجد أن ماذكره السيوطى يتنافى مع قوله عن أبى بكر النعالى المتوفى سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م انه كان امام المالكية بمصر ، وكانت حلقتة تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها (١) ، وفى موضع أخر من كتابه حسن المحاضرة يذكر أن عبد الجليل بن مخلوف الفقيه المالكى أفتى بمصر أربعين سنة، ومات بها سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م (٢)، وكذلك مايزخر به هذا الكتاب من تراجم لعلماء السنة تبرهن على أن مذاهب أهل السنة أيام الفاطميين عاشت جنباً لجنب مع المذهب الفاطمى، هذا فضلاً عن أن السيوطى نفسه كان شديد البغض للفاطميين مما يشكك فى روايته.

وأما ماذهب إليه ابن العربى ، فمن المعروف أن ابن العربى من السنيين الذين يكرهون الفاطميين كرهاً عظيماً، الأمر الذى أدى إلى المبالغة فى وصفه لاضطهاد علماء السنة فى مصر، والمتصفح لكتاب العواصم من القواصم يتبين إلى أى حد كراهيته للفاطميين.

وأما ماذكره المقريزى عن الرجل الذى ضرب وشهر به نقول أنه ليس بسبب كتاب الموطأ الذى وجد عنده، فمن المحتمل أن هذا الرجل تعرض للدعوة بالسب والثلب ، وكاجراء من اجراءات أمن الدولة إذا أجيز لنا استخدام هذا المصطلح الحديث، وخاصة أن الدولة فى أوج عهدها .

وعلى الرغم من أن الفاطميين كانوا يقلبون ظهر المجن لأصحاب مالك، والضرب على أيديهم أحياناً، وخاصة فى العصر الفاطمى الأول، فانهم لم يمنعوا أهل السنة من اظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، مع مافى هذا من مخالفة لمعتقدهم وهذه حقيقة تاريخية تظهر فى سجل أصدره الخليفة الحاكم بأمر الله، يعتبر بحق وثيقة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ١/٤٥١ .

(٢) نفس المصدر ١/٤٥١ .

هامة فى الكشف عن غايات السياسة الفاطمية ، وأصولها المذهبية، حيث نص فيه على اقامة المصريين لمذهبهم وألا يتبعوا المذهب الفاطمى نقله المقريزى [1] : «وقرىء سجل فيه يصوم الصائمون على حسابهم، ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون .. وصلاة الضحى والتراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ، يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون، ولا يمنع من التربيع عليها المربعون، يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون.. لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده» .

يضاف إلى ذلك ماأشار اليه القلقشندى [2] عن سياسة الفاطميين تجاه رعاياهم بأنهم : « كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة، ويمكنونهم من اظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ومذاهب مالك والشافعى وأحمد ظاهرة الشعار فى مملكتهم ».

كذلك يذكر ابن سعيد المغربى أنه فى عصر الخليفة المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) عينوا على رأس القضاة فقيهاً شافعياً هو أبو عبد الله محمد بن سلام القضاعى [3] ، ويبدو أن كثيراً من القضاة الفرعيين فى الاسكندرية وغيرها كانوا شافعيين أو مالكيين[4]، وهكذا ينفى سجل الحاكم وسياسة الفاطميين فى حكم الرعية وولاية القضاء تهمة اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة .

ولعل رفق المذهب الشيعى بمعاملة من حولة من أصحاب المذاهب دفع برحلة العلماء والطلاب الوافدين من المغرب إلى مصر ، حيث وجدوا فيها لهم مستقراً آمناً ومقاماً طيباً، نذكر من هؤلاء الرحالة أبى جعفر أحمد بن نصر الداودى الأسدى ، فقد

---

(١) المقريزى : الخطط ٢/ ٢٨٧ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/ ٥٢٠ .
(٣) ابن سعيد : النجوم الزاهرة /٣٦٧ .
(٤) شوقى ضيف : عصر الدول والامارات / ٧٩ .

ذكر القاضى عياض أنه كان من أئمه المالكية بالمغرب والمتسمين فى العلم، المجيدين للتأليف، وأهله من المسيلة وقيل من بسكرة، كان بطرابلس وبها أملى كتابه فى شرح الموطأ، ثم انتقل إلى تلمسان ، وكان فقيهاً فاضلاً متفنناً مجيداً وتوفى بتلمسان سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م (١) .

كمارحل إلي مصر عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الغافقى الجوهري ، فقيه كثير الحديث من شيوخ الفسطاط وكبار فقهاء المالكية وشيوخ السنة بمصر ، توفي سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م (٢) ، ونذكر أيضاً من الفقهاء المغاربة الذين رحلوا إلي مصر عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأموي المعروف بالأصيلي وهو من كبار أصحاب الحديث والفقه ، دخل القيروان وسمع بها ، ثم رحل منها إلي مصر ومكة فسمع من أبي القاسم حمزة بن محمد بن محمد بن علي وأبي محمد الحسن بن رشيق ، وكان متفنناً للفقه والحديث ، الف كتاباً في الدلائل علي المسائل ، وتوفي سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠١م (٣) .

ومن بين هؤلاء الفقهاء المغاربة أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخولانى ، رحل إلى مصر سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م، فلقى أبا بكر عتيق بن موسى الحاتمى المصرى، وأبا بكر محمد بن أبا بكر النعالى وأبا القاسم عبد الرحمن بن محمد الجوهرى وغيرهم وكلهم أجازوه إجازة عامة (٤) ، ومن هؤلاء الفقهاء أيضاً أبو عمران موسى بن عيس بن أبى حاج الفاسى، فقد رحل إلى مصر وتفقه علية جماعة كثيرة(٥) .

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك ، ٦٢٢/١ .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ٢/ ٤٧٠ .

(٣) الضبى : بغية الملتمس / ٣٤٠ .

(٤) الدباغ : معالم الايمان ١٦٧/٣ .

(٥) نفس المصدر ٣/ ١٦٠.

وإذا تحدثنا عن الفقه يجب ألا يفوتنا ذكر عبد الله بن الوليد بن سعيد أبا محمد الأنصارى الفقيه المالكى ، أخذ عن أبى محمد بن أبى زيد وحلق بمصر وسكنها وتوفى بالشام سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م(١)، كما رحل إلى مصر أبو عبد الله محمد بن عبد الله المالكى وابنه أبو بكر المالكى صاحب كتاب رياض النفوس المشهور بكتاب المالكى فى طبقات علماء إفريقية وزهادها (٢).

وكما كان المشرق الاسلامى هدفاً للرحلات المغربية ، كان المغرب والأندلس بدورهما هدفاً لرحلات عدد كبير من العلماء المشارقة نذكر منهم أحمد بن على بن هاشم القرشى المصرى الذى رحل إلى الأندلس مجاهداً وتوفى سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٤م(٣) ، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن على بن محمد بن أحمد القرشى العامرى المصرى رحل عن مصر سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧م وكانت له رواية واسعة (٤) ، وكذلك الحسين بن الحسن بن أحمد بن الفتح الدمياطى الواعظ وزيد بن حبيب بن سلامة القضاعى الاسكندرانى، وكانت له رواية واسعة عن شيوخ مصر والشام والحجاز واليمن وكان شافعى المذهب (٥) ، وعبد الرحمن بن محمد بن أبى يزيد خالد بن يزيد السندى المصرى النسابة ، وكان حافظاً للحديث وأسماء الرجال والأخبار ، توفى بمصر سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م (٦).

هذه أمثلة قليلة لعلماء مصريين كثيرين نزحوا إلى المغرب وتنقلوا بين مراكزه الثقافية المختلفة والتحموا باخوانهم المغاربة وتأثروا وأثروا ، وأيًّا كان الأمر فهذه الصلات الثقافية وهذه الرحلات هى رافد خصب من روافد تكوين الثقافة المغربية ،

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة١/٤٥١.
(٢) الدباغ : معالم الايمان ٣/١٧٣، ١٩٠.
(٣) ابن بشكوال : الصلة ١/٨٦.
(٤) نفس المصدر ، ١/١٠٥ .
(٥) نفس المصدر ، ١/ ٨٦.
(٦) نفس المصدر ، ٢/٣٥٣ .

فقد تأثرت المراكز الثقافية فى المغرب بالمراكز الثقافية فى مصر ، فانتقلت إلى القيروان قراءة نافع للقرآن التى انتشرت فى مصر على يد عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش الذى تولى رئاسة الاقراء بمصر حتى القرن الثانى الهجرى، وأبى يعقوب بن عمر بن يسار انتقلت هذه القراءة بدراسة الفقيه المغربى محمد بن خيرون، هذه القراءة عن الفقيهين المصريين، ونقلها الى القيروان فانتشرت فى أنحاء المغرب(١) كما اعتمد اقطاب المذهب المالكى فى القيروان فى وضع مؤلفاتهما على آراء فقهاء المالكية فى مصر (٢) .

ثانياً " العلوم اللغوية وآدابها :

وأما فى مجال علوم اللغة العربية، فقد ذكرت لنا كتب الطبقات وغيرها من كتب اللغة عددا غير قليل من هؤلاء الرحالة المغاربة الذين رحلوا إلى مصر ودرسوا على علمائها ، ومن أشهر هؤلاء العلماء محمد بن جعفر القزاز التميمى ، شيخ اللغة ومسند الأدب فى افريقية، رحل إلى المشرق فى صدر الدولة الفاطمية ، وروى عن أساطين اللغة والأدب فى عصره ، وقد أورد لنا تلميذه ابن رشيق سنده فى رواية اللغة وأخبار الشعراء فى غير ما موضع من كتاب « العمدة » (٣) ، ويروى أن الخليفة المعز لدين الله كلف هذا العالم النحوى بتأليف كتاب فى النحو يجمع فيه سائر الحروف، وقد أنجز القزاز هذا المصنف الذى بلغ ألف صفحة ورفع منه نسخه إلى المعز فقرأة وأعجب به(٤) ، وللقزاز مؤلفات عديدة منها كتاب « الجامع فى اللغة » وكتاب « الضاد والظاء » وكتاب العثرات فى اللغة، وقد توفى بمدينة القيروان سنة ٤١٢هـ/١٠٢٧م

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ٢/١٥٥ .
(٢) حورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب /٣١٨ .
(٣) ابن رشيق : العمدة١/٢١١، انظر : عفيفى محمود : مظاهر الحضارة فى بلاد المغرب /٣٠٠.
(٤) السيوطى : بغية الوعاة١/ ٧١.

عن عمر يناهز التسعين عاماً [١].

ومن بين هؤلاء العلماء عبد العزيز بن أحمد بن مغلس القيسى، كان من العلم بمكان باللغة العربية ، مشاراً إليه فيها، رحل إلى مصر فقرأ على أبى يعقوب يوسف ابن يعقوب بن خرزاذ، استوطن مصر وتوفى بها سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م [٢]، وكذلك على بن جعفر بن على السعدى المعروف بابن القطاع اللغوى النحوى الذى نبغ فى النحو وعلوم اللغة، رحل إلى مصر فى حدود سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، ولقيه المصريون بالحفاوة وبالغوا فى إكرامه، وخصه الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بالرعاية ، وجعله مؤدباً لولده فى العلوم العربية وفنون الأدب [٣] ، وأقام حياته فى التأليف والبحث ومن مؤلفاته الدرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة ، اشتمل على مائة وسبعين شاعراً، وكتاب الأسماء فى اللغة وتوفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م بالقاهرة[٤] .

ولا يفوتنا ذكر على بن عبد الجبار بن سلامة بن عيذون الهذلى اللغوى من تونس والمولود بها سنه ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م، وكان إماماً فى اللغة وتوفى بالاسكندرية سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م[٥] .

وأما الشعر والأدب فقد بلغ فى مصر - فى فترة البحث - مبلغاً عظيماً من الرقى والازدهار بفضل تشجيع الخلفاء الفاطميين للشعراء واغداقهم الهبات والعطايا، وكانوا يجرون عليهم الأرزاق، هذا فضلاً عن أن الخلفاء الفاطميين كانوا يتقنون الأدب والشعر ، فقد كان تميم بن الخليفة المعز لدين الله (٣٣٧ - ٣٧٤ هـ / ٩٤٨ - ٩٨٤م)

---

(١) القفطى : انباه الرواه ٣/٨٤، ٨٦، ٨٧.

(٢) ابن بشكوال : الصلة ٢/٣٦٩، ٣٧٠.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ١٢/٢٧٩، ٢٨٠ .

(٤) العماد الأصفهانى : خريدة القصر ١/٥١، انظر الحاشية نفس الصفحة، وكذلك محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية /١١٨ .

(٥) القفطى : انباه الرواه ٢/٢٩٢، ٢٩٣.

من الشعراء البارزين فى عصره ، وقد أفاض الرواة فى ذكر فضله ومهاراته الشعرية، ووصف بأنه من « .. أميز أبناء المعز » (١)، وكان الخليفة العزيز بالله يقرض الشعر ، ويروى عنه بعض الأشعار الجيدة فى رثاء أحد أبنائه توفى فى العيد (٢) ، كل ذلك هيأ المناخ الملائم لتصبح مصر كعبة القصاد من الشعراء ، وإذا ذكرنا فحول الشعراء المغاربة فلا يفوتنا ذكر الشاعر المغربى محمد بن هانىء الأندلسى ، الذى طالما غالى فى مديح الخليفة المعز (٣)، ولقد ناط المعز بابن هانىء الآمال الكبار ، وقدر أنه يحاكى الشعراء العباسيين ويبدهم، ويويد هذا القول أنه لما بلغت المعز وفاة ابن هانىء وهو بمصر أسف أسفاً شديداً وقال: « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، فلم يقدر لنا ذلك » (٤) ، ويبدوأن ابن هانىء أصبح شيعياً متحمساً لهذا المذهب استدراراً لكرم الفاطميين لاحباً فى عقائدهم (٥).

ومن الشعراء المغاربة الذين رحلوا إلى مصر على بن النعمان القيروانى ، قال عنه السيوطى (٦) نقلاً عن ابن خلدون «كان شيعياً غالياً ، شاعراً مجوداً »، توفى سنة ٣٧٤هـ / ٩٧٤م ، وكذلك أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعى ، من قلعة بنى حماد بالمغرب ، ذكره ابن الزبير فى مجموعه وقال « كان جيد الشعر وارى زناد الفكر » ، رحل إلى الاسكندرية ومصر وأقام بها زماناً، ثما عاد إلى المغرب (٧).

---

(١) راجع ترجمة تميم بن المعز فى الثعالبى : يتيمة الدهر ٦٨٦/١,٦٩٧، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٩٧/١، ابن تغرى بردى : النجوم ١٣٣/٤، السيوطى : حسن المحاضرة ٥٥٨/١ .

(٢) الثعالبى : يتيمة الدهر ٤٩٤/١، ابن تغرى بردى : النجوم ١٢١/٤.

(٣) الضبى : بغية الملتمس / ١٤٠ .

(٤) ابن خلكان : وفيات ٤٢٢/٤، ترجمة محمد بن هانىء ، أنظر : حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله / ٢٢٦، ٢٢٧ .

(٥) حسن إبراهيم حسن وطه احمد شرف : المعز لدين الله / ٢٢٦، ٢٢٧.

(٦) السيوطى : حسن المحاضرة ٥٥٨/١.

(٧) العماد الأصفهانى : خريدة القصر ٤٢٤/١.

وممن وفد على مصر أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، وكان أمية عالماً فى فنون مختلفة، شاعراً فحلاً وأديباً ممتازاً بجانب علومه الفلسفية، يصفه العماد الأصفهانى (١) بقوله : « .. كان أوحد زمانه ، وأفضل أقرانه متبحراً فى العلوم، وأفضل فضائله انشاءالمنثور والمنظوم.. وكل شعره منقح »، وطابت له الاقامة فى مصر فى ثغر الاسكندرية، ونذكر أيضاً أبا عبد الله محمد بن عبد الصمد بن بشير التنوخى الشاعر وهو من معاصرى أمية بن أبى الصلت ، وأحد شعراء الأمير على بن يحيى بن تميم الصنهاجى، يجمع بين رقة المعنى وجودة الصياغة (٢) ،وكذلك عبد العزيز أحمد بن السيد بن مغلس القيسى، كان شاعراً مجيداً، استوطن مصر وتوفى بها سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م(٣)، ومن بين هؤلاء الشعراء المغاربة الذين رحلوا إلى مصر أبو الحسن على بن الحسن الطوبى، ذكر أنه « امام البلغاء وامام الشعراء ، ومؤلف دفاتر، ومصنف جواهر ومقلد دواوين ومعتمد سلاطين »، سافر إلى المشرق، وكان فى خدمة الأمير الزيرى المعز بن باديس (٤).

يتضح لنا مما سبق كيف انتقلت رواية الأخبار الأدبية والأشعار من جهابذة المشرق إلى أبناء المغرب ، ومن خلال رحلات المغاربة إلى مصر يبدو جلياً أن الروابط الثقافية لم تنقطع بين مصر ودول المغرب سواء بانفصال إفريقية عن مصر أو بكراهية المرابطين والموحدين المغايرين لهم فى المذهب ، بل ظل انتقال الناس من التجار والحجاج والعلماء، الأمر الذى ترتب عليه اثراء الحياة الفكرية فى مصر ، والى وجود نوع من وحدة الفكر والثقافة بين مصر ودول المغرب ، كما أن كثيراً من التأثيرات المشرقية فى المغرب، ارتبطت بدخول العرب الهلالية، وقد استقرت هذه

---

(١) العماد الأصفهانى : خريدة القصر ٢٢٣/١ .
(٢) نفس المصدر ٣٥٣/١ .
(٣) نفس المصدر ٣٨٤/١ .
(٤) نفس المصدر ٧٥/١ .

التأثيرات لفترة طويلة فى أرض المغرب بحيث أسهمت اسهاماً كبيراً فى تمشرقه فى العصر موضوع الدراسة، وعملت على المدى البعيد فى عملية تعريب البلاد على المستوى العرقى واللغوى بالشكل النهائى الذى آلت إليه حديثاً.

ثالثاً : العلوم العقلية :

التاريخ والجغرافيا :

عنى المغاربة بدراسة التاريخ ، ورحل منهم إلى المشرق عدد غير قليل، نذكر منهم محمد بن تميم بن أبى العرب التميمى القيروانى ويكنى أبا العرب ، كان من أهل الفضل والثقة واسع الرواية والتحرى فيما ينقله، حج سنة ٣٧١هـ/٩٨١م ولقى بالمشرق جلة من العلماء بالحجاز والشام ومصر والقيروان[(١)] .

يقول عنه الدباغ [(٢)] « وأبو العرب امام عصره، وواحد دهره ، دأب فى طلب العلم، وبرع فيه براعة فاق فيها من تقدمه من رجال افريقية، والف كتباً مفيدة كثيرة .. وهو رافع لواء التاريخ بافريقية ».

ومن مؤرخى الدولة الفاطمية اشتهر أبو حنيفة النعمان [(٣)](٣٦٣هـ/٩٧٣-٩٧٤م)، الذى وضع كتاب شرح الأخبار ، وكتاب افتتاح الدعوة الزاهرة الذى يتحدث فيه عن بداية الدعوة الفاطمية على يد أبى عبد الله الداعى، وقد اقتبس منه المقريزى وغيره من المؤرخين، وبصدد ذكر مؤلفات النعمان التاريخية يجب ألا يفوتنا ذكر كتاب مختصر الأثار ، وأما كتابه المجالس والمسايرات فهو خير ماألف فى وصف حياة

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ٢/ ٥٩٩، ٥٦٠ .

(٢) الدباغ : معالم الإيمان ٣/٣٦، ١٥٨ .

(٣) انظر : القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٢،٢ ٤، رسالة افتتاح الدعوة، المقدمة، تحقيق وداد القاضى، دار الثقافة بيروت / ١٨ ، ٩١ ، الكندى : الولاة والقضاة/٤٩٤، ٤٩٥، راجع : عماد الدين ادريس : عيون الأخبار ، السبع السادس /٤٦ - ٤٩ .

الخلفاء الفاطميين فى الدور المغربى، ولا نستطيع أن نجد مرجعاً آخر تناول الحياة الاجتماعية الفاطمية فى عهد المعز خاصة، فقد أمدنا هذا المؤلف بوثائق ذات قيمة تاريخية كبيرة عن نظام الحكم فى عهد المعز، مما جعلنا نقف على كثير من الحقائق التى خفيت على غيره ممن تعرض لهذا الموضوع .

ومن المؤرخين المغاربة نذكر أبا عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقى(١) الفريانى الافريقى الذى توفى فى مصر سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م فى أيام العزيز بالله ، وكان خصيصاً به وله عليه رزق واقطاعات .

صنف العتقى تاريخا ذكر فيه أخبار بنى أمية وبنى العباس وشيئاً من محاسنهم وجميل أفعالهم، فاتفق أن اطلع الوزير ابن كلس على شىء منه فأخبر به الخليفة العزيز فى أحد شهور سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فوبخة الخليفة على ذلك، وأمر بأخذ اقطاعه، وأمره بلزوم داره فلزمها حتى مات (٢) ، وعنوان هذا التاريخ « التاريخ الجامع إلى أيام العزيز»(٣) .

ومن المؤرخين المغاربة أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكى ، وهو صاحب رياض النفوس المعروف بكتاب المالكى فى طبقات علماء إفريقية وزهادها، وقد توفى هذا المؤرخ بعد خراب القيروان بمدة (٤) ، ولا يفوتنا ذكر محمد بن الوراق القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م الذى وضع كتاباً عن مسالك افريقية وممالكها،

---

(١) العتقى بضم العين المهملة وفتح التاء المثناة من فوق ثم قاف نسبة إلى العتيقين والعتقاء، جمع من قبائل شتى من حجر حمير وكنانة مصر (المقريزى : المقفى الكبير ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٢١٤٤، ومصور بدار الكتب المصرية برقم ٥٣٧٢ تاريخ ، ورقة ٥٩) .

(٢) القفطى : أخبار العلماء /١٨٧ .

(٣) نفس المصدر ،/ ١٨٧.

(٤) الدباغ : معالم الايمان ١٩٠/٣.

وقد اعتمد عليه البكرى فى كتابه المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب، والمقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم (١) ، وكذلك المؤرخ أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن الاجدابى من مدينة القيروان ، وكان عالماً فاضلاً عارفاً بالتاريخ توفى سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤(٢)م.

ولا يفوتنا ذكر واحداً من أعلام المؤرخين المغاربة ، ابراهيم بن القاسم ، المعروف بالكاتب الرقيق القيروانى، فهو مؤرخ افريقية والدول التى كانت بالقيروان (٣) ، وقد نقل عنه كثيراً ابن عذارى فى كتابه البيان المغرب .

وأما الطبيب القيروانى أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبى خالد والمعروف بابن الجزار فقد كانت له عناية بالتاريخ إلى جانب الطب، وترك لنا مؤلفات عديدة فى التاريخ منها التعريف بصحيح التاريخ، وقد شاهد القفطى فى بلدته قفط هذا الكتاب(٤)، وان دل ذلك على شيء فانما يدل على اتساع نطاق انتشار كتب المغاربة فى المدن المصرية، ومن بين كتب ابن الجزار « أخبار الدولة الفاطمية » (٥).

وأما فى مجال الجغرافيا فنذكر من هؤلاء الرحالة المغاربة أبا عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحموي الحسني المعروف بالشريف الادريسي ، ولد بسبتة سنة ٤٩٣هـ / ١١٠٠م، ولقد دفعه ولعه بالرحلة والتجوال إلي زيارة العديد من بلدان شمال افريقيا وآسيا الصغري ، ومما تجدر الاشارة إليه أن الادريسي رحل إلي مصر والشام ، ويبدو أن اقامته كانت طويلة ، لأننا نراه في أبيات له من الشعر يشتكي

---

(١) ابن النديم : الفهرست (طبعة رضاتجدد/ طهران) /٢٢٥، ٢٢٦ .
(٢) الدباغ : معالم الايمان ٣/١٣٢.
(٣) ابن خلدون : المقدمة /٥.
(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء / ٤٨٢ .
(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء/٤٨٢، ياقوت : معجم الأدباء ٢/٢٣٦ .

من رجوعه إلي المغرب خائب الأمل غير ظافر بما كان يرجوه في الشرق من التقدير اللائق به ، ومن المرجح أنه كان ينوي الاقامة على الدوام بأحد أقطار الشرق بالشام مثلاً أو بمصر(١) .

التحق الادريسى ببلاط الملك روجار النورمندى ملك صقلية وكلفه روجار بوضع مصور جغرافي للمعمورة ، وصنع أول كرة أرضية من الفضة الخالصة فى وزن أربعمائة رطل، رسم عليها جميع أنحاء الأرض رسماً غائراً ، ثم شرح ذلك مفصلاً فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الافاق» ، هذا العمل الموسوعى الذى استغرق خمس وعشرين سنة من البحث والسفر ، وتوفى الادريسى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٦م فى صقلية ودفن فى مدينة بلرم (٢).

العلوم الفلسفية :

نقصد بالعلوم الفلسفية جميع العلوم التى كانت تشتمل عليها الفلسفة فى القرون الوسطى من رياضيات وموسيقى وطب وتنجيم وطبيعيات ومنطق إلى غير ذلك من هذه العلوم التى كان يحذقها فلاسفة هذه العصور، والعقائد الفاطمية تعتمد قبل كل شيء على العلم ، وتمييز الإلهيات من الطبيعيات (٣) ، وخير تعبير عن هذا نجده فى رسائل اخوان الصفا، ومنها نقتبس هذه العبارة : «.. وينبغى لاخواننا أيّدهم الله أن لا يعادوا علماً من العلوم ، أو يهجروا كتاباً من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعها »(٤) ، فلا

---

(١) نقولا زيادة : الرحالة العرب (القاهرة ١٩٥٦) ، /٥٧,٥٦ .

(٢) مصطفى محمد كامل : الشريف الادريسى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ١٩٦٤، /٣٦,٣٥ .

(٣) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية /٩٦ .

(٤) برنارد لويس : أصول الاسماعيلية/ ١٥٣,١٥٢ .

A.S. T ritton : Muslim Theology, London, 1947,P. 31-32.

غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر فى العصر الفاطمى ويرعاها الفاطميون، بل كان من الخلفاء الفاطميين من أتقن هذه العلوم ، وبرز فيها ولاسيما رصد الكواكب ، فالمؤرخون يذكرون أن المعز لدين الله والعزيز والحاكم بأمر الله والحافظ كانوا يرصدون النجوم لا ستقراء ماوراءها من أحداث، وأن اهتمام الأئمة بهذه العلوم وسيلة لادعائهم معرفة الغيب ، ويصف ابن حماد (١) الحاكم بأمر الله بقوله : « وكان صاحب نجوم ورصد له الزيج الحاكمى المعروف » .. ويضيف ابن حماد نقلاً عن أبى الحسن على بن محمد بن عثمان التميمى القلعى أنه رأى بمصر الآلة التى رصد بها مرفوعة على برجين وهي على هيئة الاسطرلاب .

ويذكر القاضى النعمان (٢) أن اهتمام الأئمة الفاطميين بعلم التنجيم لم يكن وسيلة لادعائهم الغيب يتجلى ذلك من قوله: « ذكر الامام المعز لدين الله يوماً وأنا بين يديه النجامة والمنجمين، فقال : من نظر فى النجامة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار ، وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره .. فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله، والقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ .. » وهذا قول ينفى تماماً ، كما يبرىء الفاطميين من زعم ادعائهم الغيب .

ومن المنجمين المغاربة الذين رحلوا إلى مصر أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن العتقى وكان منجم الخليفة المعز لدين الله (٣) ، ونذكر أيضاً أبا محمد عبد الله ابن اسحاق التبان المتوفى سنة (٣٧١هـ/٩٨١م) ، وكان بارعاً فى علم النجوم ، وفى غيره من أفرع العلوم الأخرى(٤)، أما أبو الحسن بن أبى الرجال الشيبانى مربى الأمير

(١) ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد/٩٥ : عيون الأخبار ٢٣١/٦ .
(٢) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٤٣٩، ادريس عماد الدين : عيون الأخبار/ ٢٩٦ .
(٣) القفطى : تاريخ العلماء /١٨٧ .
(٤) الدباغ : معالم الايمان ٩١/٣، ٩٢ .

المعز بن باديس، فقد كان عالماً فلكياً منجماً ، وأديباً شاعراً ومن مصنفاتة كتاب «البارع فى أحكام النجوم » وكتاب « كفاية الطالب فى الأحكام الفلكانية » [1].

ومن بين من عنى بعلم النجوم المهدى بن تومرت، فقد كان أوحد عصره فى علم خط الرمل ، فقد وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفور[2] من بعض خزائن بنى العباس، وقد اختار تلميذه عبد المؤمن بن على ليكون خليفتة طبقاً لنتائج التنجيم ، فقد عرفه بالعلامات التى كانت عنده [3] .

ونذكر أبا القاسم مسلمة بن أحمد (ت ٣٩٨هـ/١٠٠٧م) فقد كان ضليعاً بعلم الأفلاك وحركات النجوم ، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب [4] .

وأما فى مجال الطب فقد نبغ فى المغرب عدد غير قليل واهتموا بهذه الدراسات وكان لبعضهم علو كعب فيها منهم أحمد بن ابراهيم بن أبى خالد المعروف بابن الجزار، فهو طبيب ابن طبيب وعمه طبيب يدعى أبو بكر [5] ، وتتلمذ ابن الجزار على يد الطبيب المصرى اسحاق بن سليمان [6] ، وتوفى ابن الجزار سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م، وقد ترك ثروة هائلة من الكتب الطبية يقدرها ابن أبى أصيبعة بخمسة وعشرين قنطاراً[7] ومن أشهرها كتاب فى علاج الأمراض ويعرف بزاد المسافر يقع فى مجلدين هذا فضلا عن كتاب الأدوية المفردة ويعرف باعتماد ، وكتاب فى الأدوية

---

(١) رابح بونار : المغرب العربى /٢٩٨، ٣٠٠ .

(٢) الجفر فى اللغة : جلد يتخذ من الماعز ، وكانوا يكتبون عليه ، تزعم الشيعة أن الامام جعفر الصادق قد كتب لهم فى جفر من جلد الماعز كل ما يحتاجون إليه ، وكل ما هو كائن أو سيكون إلى يوم القيامة . (المراكشى : المعجب /٢٤٧، حاشية رقم «١») .

(٣) المراكشى : المعجب /٢٤٧ .

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء /٤٨٢ .

(٥) نفس المصدر /٤٨١ .

(٦) حورية عبده سلام : علاقات مصر ببلاد المغرب / ٣٠٠ .

(٧) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء/ ٤٨١ .

المركبة، وكتاب العدة لطول المدة، وهو أكبر كتاب وجد له فى الطب ، وذكر القفطى[١] أنه رأى بقفط كتاباً كبيراً فى الطب لابن الجزار اسمه « قوت المقيم» وكان عشرين مجلداً.

ونذكر كذلك أبا جعفر يوسف بن أحمد بن حسداى، وكان من الفضلاء فى صناعة الطب، وله عناية بالغة فى الأطلاع على كتب أبقراط وجالينوس، وكان قد رحل من الأندلس إلى مصر ، واشتهر ذكره بها فى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله.

وعمل ابن حسداى فى خدمة المأمون البطائحى، ولابن حسداى كثير من المؤلفات الطبية نذكر منها ، الشرح المأمونى لكتاب الايمان لابقراط، المعروف بعهده إلى الأطباء، وكتاب الاجمال فى المنطق، وشرح كتاب الاجمال [٢] .

وأما الأديب الحكيم أمية بن أبى الصلت ، فقد كان أوحد زمانه ، وأفضل أقرانه[٣]، ومن أكابر الفضلاء فى صناعة الطب يصفه ابن أبى أصيبعة [٤] بقوله : « قد بلغ فى صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء » .

استقر أمية بن أبى الصلت بالاسكندرية ، وذاع صيته ، وصنف كتباً كثيرة منها رسالة العمل بالاسطرلاب، وكتاب الوجيز فى علم الهيئة ، وكتاب الأدوية المفردة، وكان له تلاميذ بمصر نذكر منهم أبا عبد الله الشامى ، وسليمان بن الغياض الاسكندرانى [٥] ، ويذكر أمية بن أبى الصلت أنه أدرك العالم المصرى أبو الوفا المبشر ابن فانك، تلميذ الحسن بن الهيثم، وأخذ عن ابن فانك شيئاً كثيراً من المنطق[٦] .

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء /٤٨٢ .
(٢) نفس المصدر /٤٩٩ .
(٣) العماد الأصفهانى : خريدة القصر ٢٢٣/١ .
(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء/ ٥٠١ .
(٥) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية /١١٢.
(٦) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء / ٥٦٠ـ ٥٦١ .

ولم يقتصر الأمر فى رحلة العلماء والطلاب المغاربة لاغتراف هذه العلوم فى مصر فحسب، بل منهم من كان مهتماً بالتنقيب عن الآثار الفرعونية، فيذكر ناصر خسرو [1] فى حوادث سنة ٤٤١هـ/١٠٤٩م ، أنه شاهد فى مصر رجالاً من المغرب ومصر والشام تجشموا مشاق الرحلة، وأنفقوا المال الكثير فى تلال مصر ومحاجرها للبحث عن الدفائن والكنوز الفرعونية .

وصفوة القول أن المشرق الإسلامى بصفة عامة ومصر بصفة خاصة كان منبعاً خصباً للثقافة فقد بلغت مصر ذروة حضارتها فى زمن خلافة الفاطميين الذين حكموها أكثر من مائتى عام، ورغم كل مابذله الفاطميون فى سبيل نشر مذهبهم فى مصر ، فقد ظلت الفسطاط والاسكندرية من أكبر المراكز السنية التى كان يتردد عليها كبار الشيوخ والعلماء والطلاب المغاربة، وماشغلوه من مكانةفى الحياة التعليمية والفقهية المصرية عموماً والسكندرية خصوصاً، ومن هؤلاء العلماء من طاب له المقام فى مصر ، ومنهم من عاد إلى موطنه حاملاً معه علوم المشرق كى تؤثر بدورها على الحركة الفكرية والأدبية بالمغرب ، وأدت كثرة تردد العلماء المغاربة إلى مصر إلى وجود نوع من وحدة الفكر والثقافة بين مصر ودول المغرب وربطت بينهما بأواصر وثيقة، حتى أصبحنا لا نفرق بين كتب المشارقة وكتب المغاربة إلا عن طريق المؤلفين أنفسهم .

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة/ ٦٩ .

الفصل الرابع

الصلات الاجتماعية والتأثيرات المتبادلة

أولاً : الهجرات المغربية إلي مصر وتأثيراتها الإجتماعية.

* القبائل المعزية.
* الجاليات المغربية فى المدن المصرية .

ثانياً :الهجرات المصرية إلي المغرب وتأثيراتها الإجتماعية .

* هجرة بنى هلال

ثالثاً : بعض مظاهر الحياة الإجتماعية والتأثيرات المتبادلة .

* الأعياد والاحتفالات والمواكب

أولا: الهجرات المغربية إلي مصر وتأثيراتها الإجتماعية:

القبائل المعزية :

تعتبر القبائل المعزية التى شكلت جيش جوهر ، والامدادات التى قدمت بقيادة سعادة بن حيان، ثم فى صحبة الخليفة المعز لدين الله من أهم الهجرات البشرية الوافدة إلى مصر من بلاد المغرب ، التى أضافت عنصراً جديداً إلى عناصر البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى.

لما تم لجوهر فتح مصر فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، شرع فى بناء عاصمة جديدة لمصر الفاطمية، وعسكر جوهر بجيشه فى الموضع الذى أنشأ فيه مدينة القاهرة وهو السهل الرملى الواقع فى شمال شرق الفسطاط، وكان هذا السهل خالياً من البناء إلا بضعة مبان تتعلق ببستان أو حدائق كافور، وديرا مسيحياً يسمى دير العظام، وحصنا صغيرا يسمى قصر الشوك [١] وفى مساء ذلك اليوم وضع جوهر تخطيط مدينة القاهرة، واختط موقع القصر الذى قرر أن يستقبل فيه مولاه المعز، ولما فرغ جوهر من بناء القصر أقام حوله سوراً خارجياً من الطوب اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة ، وقد أبدى المقريزى دهشته من سمك هذا السور، وقال إن سمكه كان كافياً لأن يمر فوقه فارسان جنباً إلى جنب [٢] ، وسمى

---

(١) المقريزى : الخطط ٣٥٩/١، على مبارك : الخطط التوفيقية ٦/١

Creswell. K. AC. : The foundation of Cairo, B ulletin of the Faculty of Arts, Egyptian University, 1933 ,Vol.,1, PP,258 - 281,

(٢) المقريزى : الخطط ٣٧٧/١، راجع : كرسويل : تأسيس القاهرة، ٣٠٥، حاشية رقم ٢،١، أحمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى /٢٥١ .

جوهر المدينة كلها باسم المنصورية تيمناً باسم مدينة المنصورية التى أنشأها الخليفة الفاطمى الثالث المنصور بالله (٣٣٤-٣٤١هـ/٩٤٦-٩٥٣م) خارج مدينة القيروان (١) ،وظلت هذه التسمية قائمة ومستخدمة زهاء أربع سنوات،حتى جاء المعز لدين الله من بلاد المغرب فسماها بالقاهرة، وقد اختار اسم القاهرة ، وهو لا يزال فى بلاد المغرب ، وقبل أن يتحرك جوهر بالجيش نحو مصر ، فيذكر المقريزى أن الخليفة المعز خطب فى القوات الفاطمية الزاحفة إلى مصر قائلاً (٢) : « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا ... » .

ومن المرجح تسميتها اولا بالمنصورية ايام جوهر، ثم بالقاهرة ايام المعز تفاؤلاً بأنها ستقهر الخلافة العباسية المعادية (٣) ، فالتسمية هى تسمية عربية فاطمية على غير ماروى بعض المؤرخين من قصص خيالية أو اعتقد بعض الباحثين من أن هناك سبباً أو آخر لاطلاق اسم القاهرة على العاصمة الجديدة (٤) .

---

(١) المقريزى : الخطط/١/٣٧٧.

(٢) المقريزى : الخطط، ٣٧٨/١، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة٤١/٤، ادريس عماد الدين : عيون الأخبار ١٣٩/٦ .

(٣) يبدو أن جوهر كانت لديه آوامر من المعز بأن يبنى مدينة تكون علاقتها بالفسطاط كعلاقة المنصورية بالقيروان، والدليل على ذلك ما ذكره البكرى أن بابين من أبواب المنصورية (صبره) كان يطلق على أحدهما باب زويلة والثانى باب الفتوح ، وقد أطلق هذان الاسمان على بابين من أبواب سور القاهرة. (البكرى : المغرب / ٢٤، ٢٥، كرسويل : تأسيس القاهرة /٣٠٦) .

(٤) يذكر المقريزى قصة خيالية حول تسمية القاهرة بهذا الاسم مفادها أن جوهر لما أراد بناء القاهرة، أحضر المنجمين، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس فاختاروا طالعاً سعيداً، وجعلوا بدائر السور قوائم من خشب، بين كل قائمتين حبل فيه أجراس، وقالوا للعمال « اذا تحركت الأجراس ارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة »، فتحركت الأجراس وظن العمال أن المنجمين حركوها، وكان كوكب المريخ فى الطالع وهو المسمى عند المنجمين بقاهر الفلك، فسموها القاهرة » [المقريزى : الخطط ٣٧٧/١، كرسويل : تأسيس القاهرة /٣٠٧] (-)

وهكذا كان بناء القاهرة لتكون رابع الحواضر الاسلامية فى مصر بعد الفسطاط والعسكر والقطائع ، وكان الهدف الأساسى لبناء القاهرة أن تكون مركزاً للدولة الفاطمية تشتمل على قصورهم ودواوين حكومتهم وثكنات جندهم ، وحصنا ومعقلا من الأخطار الخارجية التى يمكن أن تتعرض لها الدولة وخاصة من جانب القرامطة(١) ، ويبدو أن القاهرة نشأت مدينة حربية خاصة قاصرة على سكنى الخلفاء الفاطميين وحرمهم وجندهم وحاشيتهم(٢) .

اختطت كل قبيلة من القبائل المغربية التى شكلت جيش جوهر خطة لها حول القصر الذى وضع أساسه جوهر فى مدينة القاهرة ، فأصبح لزويله (٣) خطة وحارة تعرف باسمهم ، فكانت حارة زويلة من أكبر الحارات حتى تتلاءم مع كثرة عددهم(٤) ، كما سمى باسمهم أحد أبواب القاهرة الذى يعرف اليوم باسم «بوابة

(=) وهذه القصة خيالية ، ومما ينفيها نفياً قاطعاً أن المؤرخ المسعودى الذى توفى قبل انشاء القاهرة سنة ٣٤٦هـ ، ذكر مثل هذه القصة، نسبها إلى الاسكندر عند بنائه الاسكندرية .

(المسعودى، أبو الحسن على بن الحسن [ت٣٤٦هـ]) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٨٣ ، ٢١٥/١ ، احمد مختارى العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى /٢٥٣) .

(١) المقريزى : الخطط ٣٦١/١ .

(٢) نفس المصدر ٣٤٨/١ ، احمد مختار العبادى : فى التاريخ العباسى والفاطمى / ٢٥٣ .

(٣) يذكر البكرى والمراكشى أن زويلة ضاحية من ضواحى المهدية بناها عبيد الله المهدى عندما بنى المهدية ، وكانت متصلة بالمهدية ، واسكن زويلة هذه سائر الناس من الرعية والسودان ، وغيرهم من الجند ، وجعل بها الأسواق (البكرى : المغرب / ٣٠ ، المراكشى : المعجب / ٤٣٤، المقريزى : المقفى الكبير ، ترجمة «المهدى عبيد الله» / ٨٤ ، ٨٥ ، تحقيق محمد اليعلاوى) بينما يذكر الحميرى أن زويلة مدينة كبيرة قديمة فى الصحراء بقرب بلاد كانم من السودان ، ومنها يدخل إلى بلاد السودان ، ومنها يخرج الرقيق إلى بلاد إفريقية ، وغيرها من البلاد (الروض المعطار / ٢٩٥ ، ٢٩٦) ، الأمر الذى يشكك فى وجود قبيلة مغربية تحمل اسم زويلة ، ومن المرجح أن اسم زويلة التى تسمت بها الحارة والباب أطلق على أولئك الجند الذين قدموا مع جوهر وفى صحبة الخليفة المعز لدين الله من مدينة زويلة المتصلة بالمهدية .

(٤) المراكشى : المعجب /٤٣٤ ، المقريزى : الخطط ٤/٢ ، عبد الرحمن زكى : القاهرة تاريخها وآثارها /١٨ ، حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله /٢١٦ .

المتولى، (١) ، واختط أهل برقة حارة تعرف بحارة البرقية فى جهة الدرّاسة اليوم (٢)، وقد بلغ بعض البرقية شأواً كبيراً فى أواخر العصر الفاطمى ، منهم ضرغام صاحب الباب الذى وزر للخليفة العاضد (٥٥٥ ـ ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ ـ ١١٧١م) ، ونافس شاور ابن مجير السعدى(٣) .

على أن أهم القبائل المغربية التى كانت تشكل عصب جيش جوهر قبيلة كتامة، اختطت هذه القبيلة حارة كتامة ، وكانت مجاورة لحارة البرقية(٤)، وزاد عدد أفراد هذه القبيلة عند قدوم الخليفة المعز لدين الله سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م فقد اصطحب معه أكابر المغاربة إذ كان يثق فى شيوخ كتامة(٥) ، وكانت حارة كتامة تشمل منطقة واسعة بعضها داخل مدينة القاهرة وبعضها الآخر فى ظاهرها خارج باب الخلق(٦) .

ومما لا شك فيه أن الخليفة المعز كان يعتمد عليهم بصورة واضحة ، ويأخذ رأيهم فى كل ما يتعلق بأمور الدولة ، وكان يقول فيهم : «هم خاصتنا دون الخاصة ، وأحب الينا من الأهل والقرابة .. ، والله لو لم يكن منهم إلا ماكان فى هذا البعث من أنا تقدمنا إليهم فى أمر فما خالفوه .. والله ليسبقن من تقدمهم ، وليسبقن من تأخر منهم، فبارك الله فيهم وأحسن جزاءهم ؟ وأنتم والله عُدتنا ، وذخيرتنا لما نحتاج إليه

(١) المراكشي : المعجب /٤٣٤ ، حاشية رقم ٣ ، المقريزى : الخطط ١/ ٣٨٠ ، الموسوعة المصرية، تاريخ وأثار مصر الاسلامية / ٧٧٤ .
(٢) المقريزى : الخطط ١٢/٢ ، انظر : حسن ابراهيم وطه احمد شرف : المعز لدين الله / ٢١٦ .
(٣) ابن أيبك الداودارى ، أبو بكر عبد الله (من علماء أواسط القرن الثامن الهجرى) : الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية، القاهرة ١٩٦١، ١٣٩/٦ .
(٤) المقريزى : الخطط ١٢/٢ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٣٤/٤ وما بعدها ، انظر : لقبال موسى بن علاوة : دور قبيلة كتامة فى تاريخ الدولة الفاطمية ، رسالة دكتوراه ، جامعة عين شمس / ١٩٧٢ ، /٥٣٣ .
(٥) المقريزى : الخطط ١٢/٢ .
(٦) ابن دقماق : الانتصار ٣٧/٥ ، انظر : لقبال موسى : دور قبيلة كتامة / ٥٣٣ .

وكنزنا الذى نعول عليه ، ان استغنينا عنكم كفيتمونا مؤنة أنفسكم ، وان احتجنا إليكم أصبناكم ..»[1] .

ولا غرو فى ذلك فعلى أكتاف قبيلة كتامة قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، ومن خيرة شبابها كانت طلائع جيش جوهر ، ويذكر المقريزى أن هؤلاء المغاربة كانوا شديدى الولاء للدولة الفاطمية ، ويتخذون من المذهب الشيعى مذهباً لهم[2] .

وإلى جانب قبيلة كتامة قبائل مغربية أخرى ، اختطت حارات لها فى القاهرة، وعرفت باسمها مثل الجودرية، وهى احدى طوائف الجند المغاربة فى أيام الحاكم بأمر الله، وكان عددهم أربعمائة، وتنسب لمن كان يشرف على شؤونهم فى المغرب وهو الاستاذ جوذر، الذى نسب إليه كاتب سيرته أبو على منصور الجوذرى[3] ، واختطت طائفة من المغاربة الذين قدموا مع حملة جوهر حارة عرفت بالباطلية، وعن سبب تسميتها يذكر المقريزى أنهم تأخروا عن موعد تقسيم العطاء ، ولم يصبهم شيء فقالوا : « رحنا نحن فى الباطل » فسموا الباطلية [4]، ومكانها اليوم جنوب شرقى الجامع الأزهر[5] ، وكذلك قبيلة بنى سوس التى تنسب إليهم حارة بنى سوس[6]،

---

(١) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٢١٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ٣٥٢/١ ، انظر : على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى /٤٦١ .

(٣) ناصر خسرو : سفر نامه /٥٧ ، انظر : حاشية رقم ٣ نفس الصفحة ، المقريزى : الخطط ٥/٢، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٥١/٤ ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ١٩٦/١ ، حاشية رقم (١) .

(٤) المقريزى : الخطط ٨/٢، راجع : ناصر خسرو : سفر نامه/٥٧، ابن دقماق : الانتصار ٣٧/٥، القلقشندى : صبح الأعشى ٣٥٧/٣-٣٥٨، مؤلف مجهول : شرح اللمعة، ورقة ٦ .

(٥) ناصر خسرو : سفر نامه/ ٥٧، حاشية رقم ٧، عبد الرحمن زكى : القاهرة تاريخها /٤١، حاشية رقم٢.

(٦) المقريزى : الخطط ١٦/٢.

وقبيلة المصامدة، وهم طائفة من جند الخلفاء الفاطميين، اختطت حارتها فى وزارة المأمون البطائحى ، وخلافة الآمر بأحكام الله (٤٩٥-٥٢٣هـ/١١٠١-١١٣٠م)(١)، ويعتقد أحد الباحثين أن الحارة الوزيرية أغلب عناصرها من المغاربة الذين أهداهم الخليفة العزيز بالله إلى وزيره يعقوب بن كلس بعد أن رضى عنه، وأرجعه إلى منصبه (٢)، وقبيلة الشعرية واليهم ينسب باب الشعرية (٣) ، وكذلك باب سعادة الذى ينسب لسعادة بن حيان غلام المعز لدين الله ، الذى قدم من المغرب بعد بناء القاهرة، ونزل بالجيزة، وخرج جوهر للقائه ، وسار سعادة الى القاهرة ودخل اليها من هذا الباب الذى عرف باسمه (٤) .

وهكذا اتخذ جوهر من القاهرة سكناً وحصناً خصصه للمغاربة أنصار الفاطميين، يتجنب بذلك ما قد يقع بين هؤلاء المغاربة والمصريين من خلاف، أضف إلى ذلك أن مركز جوهر فى مصر لم يكن قد توطد بعد ، لأنه كان يخشى ثورة المصريين عليه ، كما أن سكناهم في هذة المدينة الجديدة يتيح الفرصة للمغاربة لاقامة شعائرهم الدينية في أمن ودعة من غير أن يتعرض لهم أهل السنة بسوء .

ويجمع المؤرخون علي أن المغاربة كانوا هم المسئولين عن أعمال الشغب والاضطرابات التى فى مصر فى بداية الفتح الفاطمى ، وخصوصاً عندماأخذ بعضهم فى التحرش بأهل البلاد لاختلافهم فى المذهب من ناحية، ولاغتصابهم ماكان لهم من حقوق سياسية ، وشعورهم بمساندة حكام الفاطميين لهم من ناحية ،

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه/٥٢، المقريزى : الخطط ٢/ ٢٠.

(٢) لقبال موسى : دور قبيلة كتامة /٥٣٦.

(٣) المقريزى : الخطط ١/ ٣٨٣، ومما تجدر الاشارة إليه أنه لا يوجد اسم لقبيلة بربرية بهذا الاسم فى المصادر التاريخية المعتمدة فى أنساب البربر وقبائلهم، فلعلهم عشيرة ضمن قبائل مزاته وزيارة وهوارة من أحلاف لواته الذين نزلوا بالمنوفية .

(٤) المقريزى : الخطط ١/ ٣٨٣، مؤلف مجهول : شرح اللمعة ، ورقة ٧ .

أخـرى[1] ، وفى سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م اعتـدى المغاربة على أهل البلاد ، وأخـذوا فى السلب والنهب، فنشب القتال بين المغاربة والمصريين ولزم الأمر ارسال قوة بقيادة سعادة بن حيان لفض النزاع، وعوض الناس عما نهب منهم [2] .

لم تنته أعمال الشغب والتخريب التى كان يمارسها المغاربة، بل كانت تظهر من وقت لآخـر ، واشتـد عيثـهم بعد قدوم الخليفة المعز [3]، ومـثـال ذلك مـاحـدث فى الاحتفال بغديرخم [4] ، ١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م حيث قام المغاربة بأعمال السلب والنهب فى بعض جهات القرافة والمعافر بالفسطاط، ونزلوا فى الدور وأخرجوا الناس منها، وشرعوا فى السكنى فى المدينة، وكان المعز أمرهم أن يسكنوا فى أطراف المدينة، فخرج أهل مصر شاكين إلى المعز ما أصابهم، الأمر الذى جعل المعز يفكر فى وضع حـد لهذه الاضطرابات، فأصدر أوامره إلى المغاربة بالخروج من مـدينة مصر، والتحول إلى الخندق الكائن على مقربة من عين شمس[5]، كما أصدر المعز أوامره بألا يتعرض مغربي شيعي لمصري سني ، كما جعل لهم واليا وقاضيا للنظر

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية / ٦٢١ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ١/١٣١ (طبعة ١٩٦٧).
(٣) نفس المصدر ، ١/١٤٥ .
(٤) غدير خم : بئر مـاء بين مكة والمدينة، ويؤرخـون لذلك بعودة الرسول من حجـة الوداع سنة ١٠هـ، ويرى الشيعة أن الرسول صلى الله عليه وسلم نزل بغدير خم، وأخذ بيد على بن أبى طالب وقال : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، .... » واعتبر الشيعة هذا اليوم عيداً لهم فـهو يمثل اليوم الذى وصف فيه الرسول صلى الله عليـه وسلم علي بن أبي طالب بأنه وليّه وإذن فمن حق على وأهل بيته ولاية المسلمين، وبدأ الاحتفال بهذا العيد معز الدولة بن بويه سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م، ثم احتفل به الفاطميون بمصر فى ١٨ ذى الحجة ٣٦٢هـ/٩٧٢م .
(راجع القاضى النعمان : المجالس والمسايرات ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، المقريزى : الخطط١/٣٨٨ ، وعن موقع بئر خم راجع : الهمدانى : صفة جزيرة العرب/ ٢٣٣).
(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ١/١٤٥ ، وعن موقع الخندق يذكر المقريزى أنه يجاور الحسينية (الخطط ٢/٢٢ ، ويرجح البعض أنه الأن فيما يسمى حى الدمرداش . (لقبال : دور كتامة/ ٥٣٤) .

في هذا الفريق من الجند المغاربة الذين أنزلهم بالقرب من عين شمس (١) .

أما بالنسبة للموظفين المغاربة ، فقد اختط جوهر لكل جماعة منهم حارة خاصه بهم داخل مدينة القاهرة ، حيث كانت القاهرة قاصرة علي سكني الخلفاء الفاطميين وحرمهم وجندهم وحاشيتهم ، ولم تزل القاهرة دار خلافة ، ومنزل ملك ، ومعقل قتال، لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره وخواصه الذين شرفهم بقرية فقط ، (٢) ، أما العامة فلم يكن مسموحاً لهم بالاقامة في القاهرة اقامة دائمة ، ولكن كان عليهم ان يغادروها قبل دخول الليل ، ويتوجهون الي منازلهم بمصر (٣) ، حيث كانت مصر (الفسطاط) مدينة عامة الناس والتجار واهل البلاد ، وبها الاسواق والحياة التجارية والصناعية (٤) .

يتضح مما سبق ذكره أن اندماج المغاربة مع المصريين يكاد يكون معدوما ، نتيجة للاختلاف المذهبي بين هؤلاء الرعايا السنيين والمغاربة الشيعيين من ناحية، ومن ناحية أخري رغبة الخليفة المعز في ابقاء الجند المغاربة وحدة لا تفكك فيها الأمر الذى أدى إلى كثرة التنافر والاحتكاك بين المصريين والمغاربة .

وفى خلافة الحاكم بأمر الله زادت شوكة المغاربة بأن تقدم الكتاميون إلى الخليفة بعزل عيسى بن نسطورس من الوزارة واسنادها الى زعيمهم أبى محمد الحسن بن عمار بن أبى الحسين الذى كان شيخ كتامة سيدها(٥)، وهددوا الخليفة بالقتل إذا لم ينصاع لمطلبهم ، ولم يجد الحاكم بأمر الله بدأ من الاذعان لمطلبهم ، فأسند مهام

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر/ ١٦٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ٤٧٨/٣ .
(٢) المقريزى : الخطط ٣٤٨/١، ٣٦٣ .
(٣) نفس المصدر ٢٠/٢ ، انظر : سعاد ماهر القاهرة القديمة وأحياؤها /٢٢، ٢٣ .
(٤) ناصر خسرو : سفر نامه/٦١ ، ٦٢ .
(٥) ابن منجب الصيرفى : الاشارة / ٥٦، المقريزى : المقفى الكبير ٣٧١ .

الوزارة إلى ابن عمار سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م [١] وخلع عليه لقب أمين الدولة «أنت أمينى على دولتى ورجالى» ، وبذلك يكون أول من لقب فى الدولة الفاطمية [٢] .

سيطر هذا الوزير على شئون البلاد دون الحاكم ، واستبد بالأمر مستغلا صغر سن الخليفة الحاكم بأمر الله ، وعمل على رفع الكتاميين إلى أعلى المناصب ، وأغدق عليهم الأموال ، وأعطاهم الخيول وبالغ فى محاباتهم [٣] ، فزاد طغيانهم، واستهتارهم بالشعب المصرى « فكثر عيثهم ، وامتدت أيديهم إلى الحرام فى الطرقات ، وسلبوا الناس ثيابهم ، فضج الناس منهم واستغاثوا إليه (ابن عمار) بشكايتهم فلم يبد منه كبير نكير »[٤] .

لم ينته الأمر عند هذا الحد فحسب ، بل زاد تعالى الكتاميين على العناصر الجديدة فى الجيش الفاطمى من الأتراك والديلم، الأمر الذى جعل الأتراك يلتفون حول القائد برجوان[٥] ، الذى كان ينافس ابن عمار [٦] مما أدى إلى احتدام الصراع بين الأتراك والمغاربة، وخشى الحاكم بأمر الله من مغبة الأمر ، فعمل على اقصاء ابن عمار ، واحلال برجوان محله ، وما لبث برجوان أن أساء السيرة ، وبسط يداه فى الرعية بالجور والظلم ، واستخف بقول الحاكم بأمر الله فضاق الحاكم به ذرعاً وقرر

---

(١) يحيى بن سعيد : تاريخ يحيى، /١٨٠ ، ١٨١ ابن الصيرفى : الاشارة /٥٦ ، ابن ظافر : أخبار الدول /٤٣، ٦٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ٣٦/٢ ، المقفى الكبير /٣٧٢ .

(٣) ابن ميسر : أخبار مصر ١٧٩ ، المقريزى : الخطط ٣٦/٢، المقفى الكبير ، ٣٧٤ .

(٤) المقريزى : الخطط ٣٦/٢ .

(٥) الأستاذ أبو الفتوح برجوان الخادم ، كان خصياً أبيض من الصقالبة، نشأ فى بلاط العزيز بالله، وكانت السلطة فى أول عهد الحاكم بعد صرف ابن عمار فى يده ، إلى أن انقلب عليه الحاكم وقتله على يد ريدان الصقلبى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٣٩٠هـ وإليه تنسب حارة برجوان فى القاهرة بجهة الخرنفش، (لمقريزى : الخطط ٣/٢ ، ١٤).

(٦) المقريزى : الخطط ١٤/٢ .

التخلص منه ، وأوعز إلى ريدان الصقلبى - صاحب المظلة - بقوله : «إنى قد عزمت على قتل هذا العبد السوء برجوان ، لأنه قد استصغرنى واستصبأنى»(١) ، وما لبث أن قتل برجوان فى سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩م ، كما قتل ابن عمار فى نفس السنة فى اصطبل الطارمة(٢) ، وقام الخليفة الحاكم بحركة تطهير واسعة راح ضحيتها الكثير من شيوخ كتامة وسادتها ، مما حمل الكتاميون ازاء الوضع المتردى فى صفوفهم أن يخرجوا إلى باب الخليفة الحاكم كاشفين رؤوسهم مستغيثين به طالبين العفو ، فأمنهم وكتب لهم سجلاً بما التمسوه ، وقرئ فى القصر وفى جوامع القاهرة(٣) .

ومهما يكن من أمر فإن مقتل ابن عمار ، وحركة التطهير التى راح ضحيتها الكثير من الكتاميين ، كل ذلك أدى إلى ضعف شأن الكتاميين، وفقدهم للكثير من النفوذ والامتيازات التى كانوا يتمتعون بها ، مما حمل أميرهم ابن دواس الذى وطن نفسه على كره الحاكم، أن يستجيب لأخته ست الملك فى تنفيذ مؤامرة اغتيال الحاكم دون تردد (٤) ، وما لبثت ست الملك أن تخلصت من ابن دواس ، وبقيت جثته ملقاة فى العراء ثلاثة أيام والمنادى يعلن « هذا جزاء من غدر مواليه »، ثم سلمت إلى أهله وعبيده فدفنوها (٥) .

---

(١) ادريس عماد الدين : عيون الأخبار ٢٥٣/٦ ، وراجع ابن الصيرفى : الاشارة /٥٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٤٨/٤ .

(٢) ابن الصيرفى : الاشارة /٥٦ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٣٦/٢، المقفى الكبير /٣٧٧ ، اصطبل الطارمة كان واقعاً فى طرف ميدان المشهد الحسينى الشرقى اليوم . (ابن الصيرفى : الاشارة /٥٦ ، حاشية رقم ٢) .

(٣) راجع سجل الخليفة الحاكم للكتاميين فى عيون الأخبار ٢٥٧/٦ - ٢٥٨ ، ومؤرخ فى سنة ٣٩٧هـ .

(٤) المقريزى : المقفى الكبير /٤١٥ ، ٤١٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ١٩٠/٤ - ١٩٢ ، مؤلف مجهول : شرح اللمعة ، ورقة ٩ .

(٥) ابن عذارى : البيان ٣٩١/١ ، النويرى : نهاية الارب /٢٦ ورقة ٦٠ ، ٦١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ١١٦/٢ ، ١٢٥ ، مؤلف مجهول : شرح اللمعة ، ورقة ٩ .

وأما عن الوضع الطبقى لعنصر المغاربة فى المجتمع المصرى يذكر المقريزى أنهم أخذوا فى الانكماش كعنصر من عناصر المجتمع، وأصبحوا فى عهد الظاهر والمستنصر بعد ذلك عنصراً ضعيفاً ، وصاروا من جملة الرعية بعد ما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها ، (١) .

على أن الوثائق التاريخية المعاصرة للدولة الفاطمية تشير إلى غير ذلك، فيذكر ناصر خسرو وهو شاهد عيان أثناء مشاهدته لاحتفال فتح الخليج ، عن ظهور فرقة من الجند المغاربة ، كانت من أقوى فرق الجيش الفاطمى التى شاهدها فى الاحتفال الذى جرى فى عصر المستنصر بالله (٢)، كما يشير أحد السجلات المستنصرية إلى سفارة محمد بن تميم الكتامى إلى على بن محمد الصليحى مبعوثاً من قبل المستنصر بالله (٣)، وكان توبة بن ميسرة الكتامى نديم المستنصر بالله ومغنيه الخاص(٤)، ويشير سجل تولية المستعلى بالله إلى عنصر المغاربة والمشارقة (٥)، وهناك كذالك أبو الفضل عباس بن يحيى ين تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى الذى تولى الوزارة فى عهد الخليفة الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩هـ/١١٤٩ - ١١٥٤م) ، بعد أن كان والياً للغربية(٦).

يتضح مما سبق أن المغاربة ظلوا عنصراً مرموقاً فى المجتمع المصرى طوال العصر الفاطمى تقريباً ، وان ضعف أمرهم لعدة عوامل منها حركة التطهير التى قضى فيها على الكثير من زعمائهم والهزات العنيفة التى تعرضت لها الدولة الفاطمية، وسيطرة الوزراء على مقاليد الحكم هذا فضلاً عن منافسة المشارقة والسودان لهم ، ومع كل فقد ظل دورهم فى الأحداث واضحاً وإن كان غير ذى قبل .

---

(١) المقريزى : الخطط ٢/ ١٢ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامه/٥٢ .

(٣) السجلات المستنصرية ، سجل ١٨٢/٥٦.

(٤) لقبال موسى : دور قبيلة كتامه /٥٢٨ .

(٥) ابن الصيرفى : الاشارة ، /١١٨ .

(٦) المقريزى : الخطط ٢/ ٣٠، محمد حمدى المناوى : الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى /٢٨٥.

الجاليات المغربية فى المدن المصرية :

وهناك عدد كبير من الفقهاء والتجار المغاربة سكنوا فى الفسطاط، نذكر منهم عبد العزيز بن أحمد بن مغلس القيسى، كان من علماء اللغة العربية، استوطن مصر ، وتوفى بها سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م(١) ، وعلى بن جعفر بن على السعدى المعروف بابن القطاع الذى خصه الأفضل بن بدر الجمالى بالرعاية ، وجعله مؤدباً لولده (٢) ، ونذكر كذلك محمد بن عبد الملك بن محمد السراج أحد أئمة العربية، الذى كانت له حلقة فى جامع مصر لاقراء النحو، وطاب له المقام فى مصر وتوفى بها سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م(٣) ، وأبا العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الخطيئة اللخمى الفاسى، سكن مصر وتصدر بها للاقراء ، وتوفى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م، ودفن بالقرافة (٤) . ويشير ابن دقماق على أن بعض حارات ودروب وأزقة مدينة الفسطاط قد حملت أسماء من سكن بها من المغاربة، مثل دار وحارة ابن عشرات الكتامى(٥) ، ومسجد توبة بن ميسرة الكتامى، وكان يقع فى القرافة الكبرى من ضواحى الفسطاط(٦) ، ودور بنى ينوط الكتاميين(٧) كما كان جامع أحمد بن طولون مأوى للوافدين من المغاربة يسكنونه ويحلقُون فيه، وتجرى عليهم الارزاق فى كل شهر(٨) .

وأما بالنسبة لمدينة الاسكندرية ، فقد استقر بها عدد كبير من المغاربة تأثروا بالحياة المصرية وأثروا فيها، وتركوا بصماتهم فى المجتمع السكندرى فى شتى مناحى

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ٢/٣٦٩ ، ٣٧٠ .
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١٢/ ٢٧٩ .
(٣) المقرى : نفح الطيب ٣/٧
(٤) السيوطى : حسن المحاضره ١/٤٥٣ .
(٥) ابن دقماق : الانتصار ٤/٩
(٦) المقريزى : الخطط ٢/٤٤٨ .
(٧) ابن دقماق : الانتصار ٤/٢٨ .
(٨) ابن جبير : رحلة ابن جبير / ٥٢ ، ٥٣ .

الحياة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، الحسن بن خلف بن عبد الله بن بليمة القيرواني، توفى بالاسكندرية فى سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م [١] ، وعلى بن عبد الجبار بن سلامة بن عيذون الهزلى، وكان إماماً فى اللغة وتوفى بالاسكندرية سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م [٢].

أما أبو بكر الطرطوشى فيعتبر من أبرز شيوخ الاسكندرية وأعلامها فى العصر الفاطمى ، استقر فى الاسكندرية وتزوج من سيدة من نفس المدينة [٣] ، وأصبحت له مدرسة يؤمها الطلاب ورجال العلم، ولم تلبث هذه المدرسة أن تحولت فى القرن السابع الهجرى (١٣م) إلى مدرسة للتصوف ، بعد أن ذاعت شهرتها فى الحديث والفقه[٤].

ومما يذكر أن الاسكندرية انفردت بوجود جالية دائمة من فقراء المغاربة الذين يأخذون معونة عينية، يقول ابن جبير [٥] : « ومن هذه المقاصد ايضاً ان السلطان عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان فى كل يوم ، بالغاً مابلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانا أميناً من قبله ، فقد ينتهى فى اليوم إلى ألفى خبزة أو أزيد ، بحسب القلة والكثرة، وهكذا دائماً، ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين لذلك» ، ويبدو أن هذه الطائفة من فقراء المغاربة هم من طلبة العلم والقادمين فى طريقهم إلى آداء فريضة الحج الذين يتراوح عددهم نحو الف شخص كما يفهم من النص السابق ولم يقتصر الأمر على هذه المعونة فحسب، بل أمر بتعيين حمامات يستحمون بها عند الحاجة، ونصب لهم مارستانا لعلاجهم، ووكل بهم أطباء

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ١/٤٩٤ .
(٢) القفطى : انباه الرواه ٢/٢٩٢، ٢٩٣.
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ١/٢١٢، ٢١٣.
(٤) ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية / ٣٥٤ .
(٥) ابن جبير : رحلة ابن جبير /٤٦.

يتفقدون أحوالهم (١)، ولعل فى وجود سوق المغاربة قائماً بقلب المدينة، واستمراره إلى عهد قريب كأشهر أسواق الاسكندرية، دلالة واضحة على اتساع قطاع المغاربة فى مدينة الاسكندرية (٢).

وتشير الشواهد الوثائقية لسجلات الجنيزة أن أشهر تجار مصر وأنشطهم كانوا مغاربة، وهنالك أكثر من أربعمائة خطاب ووثيقة خاصة بالتجار المغاربة تحمل أسماء الفاسى والتاهرتى والطرابلسى (٣) ، طاب لكثير منهم الاستقرار فى مصر ولم يستقروا فقط فى الفسطاط والاسكندرية ، أو فى مدينتى بوصير وتنيس، ولكن فى قرى كثيرة فى الريف المصرى (٤) ، كما احتفظت بعض نواحى الدلتا بأسماء من نزل بها من هؤلاء المغاربة مثل منية الكتامى التى كانت من أعمال كورة السمنودية، ولاتزال موجودة إلى اليوم بمركز طلخا(٥) ، وكانت تقدر مساحة هذه الناحية بسبعمائة وثمانين فداناً ، وكان دخلها يوازى ثلاثة آلاف ومائتى دينار، وكان هذا الاقطاع أكبر من طلخا مساحة ودخلا(٦)، كما توجد منية الكتامى بمركز بسيون الحالى وتعرف باسم كتامة الغابة(٧)، ويرجح أحد الباحثين أن تكون منية لوزة ، التى كانت تابعة لزمام مركز طلخا ، وكانت مساحتها تقدر بألف وخمسمائة وثمانية وستين فداناً، قد عرفت باسم فرع لوزة، وهى من فروع كتامة الشهيرة (٨) .

وكذلك منية بجاية ، وربما حرفت إلى بجانه بمركز دكرنس(٩)، وطنبدى

---

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير /٤٦ .
(٢) سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المغربى /٢٠٩ .
(٣) Goitein: A Mediterranean Society, V, I, P 20 .
(٤) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى /٢٢٩ .
(٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين /١٨٧ ، حاشية رقم (٥)، ابن دقماق : الانتصار ٥/٩٥.
(٦) ابن دقماق : الانتصار ٥/٩٤، ٩٥، لقبال موسى : دور كتامة/٥٣٥
(٧) ابن مماتى : قوانين الدواوين/١٨٥ ، انظر : حاشية رقم ٥/١٨٧ .
(٨)لقبال موسى : دور قبيلة كتامة/ ٣٥٣ .
(٩) ابن مماتى : قوانين الدواوين / ١٨٠ .

بالمنوفية، وهى فرع من فروع قبيلة لواته [١]، واقترنت طنبدى باسم القرية إشنى فى قوانين ابن مماتى [٢]، ومازالت تحتفظ باسمها طنبدى حتى اليوم، إحدى قرى مركز شبين الكوم ، وكذلك منى واهلة بالمنوفية، وبنو واهلة من فروع قبيلة لواتة[٣].

هناك أيضاً قرية عرفت بمنية القائد فضل منسوبة إلى منشئها القائد فضل بن صالح الذى قضى على ثورة أبى ركوة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، ولازالت تعرف حتى الأن باسم منية القائد، أوميت القائد ، إحدى قرى مركز العياط محافظة الجيزة[٤] .

كذلك كان عدد الجالية المغربية فى الصعيد كبيراً ، كما ورد فى قول العبدرى[٥] الذى زار مصر فى أواخر القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى: «..وقد سمعت ممن جال فى صعيد مصر وريفها أن أهلها لا بأس بهم ،.. ومع ماذكرت فقد كان المغاربة ينيفون على أهل البلاد كثرة لطيب الأرض وسمعتها، وكثرة أرزاقها، وربما تقاتلوا مع أهل الموضع فغلبوهم ، وقد فشا على لسان الصغير منهم والكبير أن مغربياً يملكهم لا محالة، ويتحدث بهذا عامتهم وخاصتهم ..» .

فقد تواجدت أعداد كبيرة من المغاربة فى مدينة قوص التى بلغت درجة عظيمة من الازدهار فى ذلك الوقت، حافلة بأسواقها ومرافقها ، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار، وصفها ابن جبير [٦] بقوله : « .. محط للرحال، ومجتمع الرفاق،

---

(١) المقريزى : البيان والاعراب /٥٤ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين /٩٥ .

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين/١٨٨ ، راجع المقريزى حيث يذكر فى بيانه أن بنى واهلة بطن من بطون قبيلة لوائه البربرية. (البيان والاعراب/٥٣).

(٤) محمد أمين صالح : تاريخ الجيزة فى العصر الاسلامى، القاهرة ١٩٩١، ٨٣/ .

(٥) العبدرى، ابو عبد الله محمد بن محد العبدرى الحيحى : الرحلة المغربية، الرباط ١٩٦٨، ١٤٨/.

(٦) ابن جبير : رحلة ابن جبير /٦١، الحميرى : الروض المعطار/ ٤٨٤، ٤٨٥، انظر : عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الاحمر / ١٠٤ .

وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ، ومن يتصل بهم، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب، واليها انقلابهم فى صدرهم من الحج .. » .

وأما ثغر عيذاب، فقد بلغ فى منتصف القرن الخامس الهجرى (١١م) أوج ازدهاره بفضل تحول طرق التجارة الشرقية من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر ، وتحول طريق الحج لجميع بلدان شمال افريقيا والأندلس من صحراء سيناء إلى هذا الثغر، لقعود الخلفاء الفاطميين عن خفارة تلك الطريق ابان الاضطرابات التى تعرضت لها الدولة الفاطمية، وظل حجاج مصر والمغرب ما يزيد على مائتى سنة (٤٥٠ ـ ٦٦٠هـ/ ١٠٥٨ ـ ١٢٥٨م) ، لا يتجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب [١]، وصارت عيذاب « من أحفل مراسى الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، زائد على مراكب الحجاج الصادرة والواردة » [٢] .

وإذا كان هذا شأن المراكز التجارية فى الصعيد، وما تعج به من حركة تجارية استقطبت الكثير من المغاربة للعمل والاقامة فيها، فان الكثير من القرى فى صعيد مصر حملت لنا أسماء القبائل المغربية التى نزلتها نذكر منها :

قرية بنى شهلان بالبهنساوية ، نسبة إلى شهلان أحد فروع قبيلة لواتة البربرية[٣]، وقرية أهريت التى صارت ضمن الشيخ فضل التابعة لمركز بنى مزار [٤] ، وقرية بنى على بالبهنساوية [٥] ، وقرية نويرة دلاص[٦] التابعة لمركز بوش محافظة بنى سويف، كذلك بنى نزار (مركز بنى مزار الحالى) ، وكلها من فروع قبيلة لواتة المغربية الشهيرة [٧] .

---

(١) المقريزى : الخطط١/٢٠٢ .

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير /٦٣، الحميرى : الروض المعطار/٤٢٤,٤٢٣ .

(٣) المقريزى : البيان والاعراب /٥٤.

(٤) نفس المصدر /٥٤.

(٥) نفس المصدر/ ٥٥، انظر : الحاشية رقم ٩١ .

(٦) نفس المصدر /٥٥

(٧) نفس المصدر /٥٥

أما قبيلة هوارة المغربية، فيذكر المقريزى (١) أن أصل ديارهم من أخر عمل سرت إلى طرابلس ، ثم قدم منهم طوائف إلى مصر ، واستقرت باقليم البحيرة فى العصر الفاطمى، من الاسكندرية غرباً إلى العقبة الكبيرة من برقة، ثم مالبثت أن نزحت هوارة إلى الصعيد (٢)، ولم يجدوا مشقة كبيرة فى السيطرة على البقاع التى استوطنوها، « وعظم أمرهم، واشتد بأسهم »، وحدث لهوارة ماحدث لسائر القبائل المغربية المهاجرة، فاستقرت طوائف منهم واشتغلوا بالزراعة (٣)، ولا تزال أسر من هذه القبيلة تسكن إلى يومنا هذا فى صعيد مصر فى قرى تحمل أسماء فروع من قبيلتهم، ولا سيما فى أسيوط وما حولها، وسوهاج وفى نجع حمادى ، نذكر منها : أولاد مؤمن فى طما، والدناجلة بأبى تيج ، والبلازد (البلايزه حالياً)، وساحل سلين نسبة إلى سلين أو أسلين بطن من الهوارة(٤) .

وهناك من القرى من تسمى باسم القبيلة نفسها مثل قرية مزاتة شرق التابعة لمركز دار السلام، ومزاتة غرب التابعة لمركز جرجا.

كان من الطبيعى أن يترك المغاربة بصماتهم فى المجتمع المصرى بصفة عامة ، والسكندرى بصفة خاصة، نلاحظ أن أهل الاسكندرية مازالوا يستخدمون فى لهجتهم المحلية نون الجمع بالنسبة للمفرد المتكلم، نسوق على سبيل المثال لا الحصر : « نأكل

---

(١) نفس المصدر /٥٨ .

* ظلت قبيلة هوارة بالبحيرة إلى بداية عصر السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) حيث أنزلهم قبل أن يتولى السلطنة بسنتين فى منطقة الصعيد الأعلى، وأقطع اسماعيل بن مازن شيخ هوارة ناحية جرجا وما حولها ، وكانت خراباً فعمرها. (المقريزى : البيان والاعراب/ ٥٦ـ ٥٨، راجع : عبد المجيد عابدين : دراسات فى تاريخ العروبة فى وادى النيل، ملحق بكتاب البيان والاعراب ، ١٣٤ ـ ١٣٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/ ١٥٦ .

(٢) المقريزى : البيان/ ٥٨، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ١٢/١٥٦ .

(٣) نفس المصدر /٥٨ .

(٤) عبد المجيد عابدين : دراسات فى تاريخ العروبة/ ١٣٦ .

ونشرب ونلعب ونروح .. » بدلاً من آكل وأشرب وألعب وأروح [١] .

ويبدو أن هذا الأسلوب فى الحديث كان شائعاً بين أهل المغرب منذ زمن بعيد، وقد حفظ لنا ابن الآبار الحوار الذى دار بين أبى المقارع حسن بن نافذ آخر الولاة الأغالبة على إقليم طبنه ، وبين أبى عبد الله الشيعى قائد جيوش الفاطميين، أنه عندما سأله الشيعى عما سيفعله اذا لم يستجب لشروطه فى الإستسلام أجاب أبو المقارع [٢] بقوله : « نكونوا ، كما قال الشاعر :

وأثبت فى مستنقع الموت رجله وقال لها   من تحت أخصمك الحشر

ومما تجدر الاشارة إليه أن المغاربة كانوا دائماً مميزين بأسمائهم التى تشير بوضوح إلى الأصل البربرى، منها الأسماء التى تنتهى بحرفى (ون) مثل عبدون وعلون وفضلون ، وخلدون، وحمدون، وحكمون ، وحيون، وسعدون، وسهلون ،وزيدون، كذلك هناك عدد من الاسماء الشائعة على وزن « فعول » مثل عبود، حسون، خلوف، علوش[٣]، وكان من الطبيعى أن تعرف هذه الأسماء طريقها إلى المجتمع المصرى كتأثيرت مغربية.

احتفظت بعض المدن المصرية بأسواق تحمل اسماء مغربية مثل سويقة المغاربة وسوق بربر بالفسطاط [٤] ، وسوق المغاربة بالاسكندرية، وهو من أشهر أسواقها، ولا يزال يعرف بهذا الاسم حتى عهد قريب، وكان يقوم فى قلب المدينة [٥] ، وفى هذه

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المغربى فى المجتمع السكندرى /٢٠٩ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ٣٨٦/٢ ويؤكد مؤنس أن لفظ « نكونوا » كما هى بالنص (حاشية رقم ٢ نفس الصفحة) نقلاً عن احمد عبد اللطيف حنفى : الدور السياسى والحضارى للجاليات المغربية فى مصر الاسلامية ، رسالة ماجستير جامعة طنطا ١٩٨٧ ،/٤٠٥ .

(٣) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى/٢٤٨، ويشير جواتين أن « علوش » معناه الحمل فى اللغة الدارجة المحلية. (نفس الصفحة) .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ٢٦/٤، ١٠٥,٣٢ .

(٥) سعد زغلول : الاثر المغربى /٢٠٩ .

الاسواق كانت تباع أنواع الثياب والفرش المغربية من البرانس المخططة أو البيضاء ذات غطاء الرأس المدبب أو بغيره، وهو ما يعرف فى العامية المغربية بالقب (١) ، والملاحف والأخفاف الفاسية المطرزة، والبسط الصوفية ،والشاشيات المغربية (٢)، والمعروفة بهذا الاسم إلى الآن فى القرى المصرية، والمناديل التى كان ينعم بها الخليفة على الغلمان فى احتفال الخليج (٣) ، ويتجلى الأثر المغربى فى مدينة الاسكندرية فى وجود « زنقة الستات » وهى ما تعنى الشارع فى اللهجة المغربية .

وقد بلغ التأثير المغربى على الحياة الاجتماعية بمصر إلى حد أن الخلفاء الفاطميين كانوا يتزيوا ببعض الملابس التى تعود لأصول مغربية ، يتضح ذلك مما ذكره ناصر خسرو عن الخليفة المستنصر عندما شاهده فى الاحتفال بفتح الخليج « .. وقد ارتدى قميصاً أبيض عليه فوطة فضفاضة كالتى تلبس فى بلاد المغرب .. » (٤) ، ويبدو أن السراويل التى تشتهر بها الاسكندرية مقتبسة من لباس البربر، حيث يذكر أحد الباحثين أن السراويل من لباس البربر (٥) .

هذا الى جانب بعض أنواع الطعام المعروفة والتى يستخدم العجين فى صنعها وأشهر هذه المأكولات «الكوسكوسى» وهو طعام تام سريع الهضم يغنى أكله عن غيره ، وهو

---

(١) ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية /٢٥١ .

(٢) الشاشية : ما يلبس على الرأس من قماش الشاش المعروف وتوضع قبل لف العمامة ، وقد تلبس على الرأس بدون عمامة أو ما يدار حول العمامة . (ابن القطان : نظم الجمان /٤١، راجع : Dozy, vet., P. 240 ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ٥٢/٢، عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى / ٢٨٩ ، حاشية رقم ٤٥).

(٣) المقريزى : الخطط ١/ ٤٧٢ .

(٤) ناصر خسرو : سفر نامه/٥٤، ويأتى ذكر الفوط المغربية فى احدى وثائق الجنيزة ضمن واردات مصر من بلاد المغرب (Goitein: Letters of Medieval, P. 241)
وذكر الادريسى أن الفوط من لباس البربر (صفة المغرب /٣٨).

(٥) حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق /٤٢ .

الأساسى فى أكل البربر[1]، ولا يزال هذا الطعام الذى تفنن البربر فى طهيه معروفاً الى اليوم فى بعض نواحى المغرب العربى مثل وادى ميزاب بجنوب الجزائر وفى مصر أيضاً [2] ، ومن الأطعمة المغربية «المروزية» التى كان يراعى خلالها طهى الدجاج بعض تقطيعة ومزجه بالتوابل وعين البقر المشبع بالخل والزيت وإضافة بعض العناب واللوز المقشر، وهذه الوجبة كانت توصف بأنها « أطعمة إفريقية والبلاد المصرية » [3] .

ومن الأطعمة المغربية الشائعة « الزلابية » وتصنع من الدقيق بعد عجنه وتخميره، ثم تقلى بزيت السيرج ، وتؤكل بالعسل أو السكر، وهى معروفة إلى الآن فى بلاد المغرب ومصر[4] ، إلى جانب المحمصة التى تصنع على شكل حبات كروية صغيرة أقل حجما من حبات الحمص [4]، وكذلك « الدويدة » وهو بمثابة الكنافة عند المصريين ولكن الدويدة أضخم وهى ما تعرف « بالشعيرية » [6] وكان المتخصصون فى بيع كل ذلك رجالاً ونساءً من المغاربة [7] .

وبالاضافة إلى ما سبق هناك بعض المنجمين من أصول مغربية يشتغلون بفتح «الكتاب والمندل » ويتنبأون بالمستقبل من ذلك ما عرف عن أبى القاسم مسلمة بن

---

(١) مؤلف مجهول : كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس فى عصر الموحدين، نشر وتحقيق امبروزيو أويثى ميراندا، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، المجلدان التاسع والعاشر، مدريد ٦١ـ١٩٦٢، /١٨١ ، حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق/٤٣ .

(٢) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ١/٤٥, ٤٦ .

(٣) مؤلف مجهول : كتاب الطبيخ /٧٧، ويبدو أن المروزية طعام فارسى نقل إلى المغرب ومنها إلى مصر ، فيذكر ابن أبى دينار أن المروزية نسبة إلى مدينة مروز ببلاد العجم، وأن أهل إفريقية يأكلونها عقب الصوم وفى الأعياد . (المؤنس /٢٨٨) .

(٤) مؤلف مجهول : كتاب الطبيخ / ٢١٦، حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق /٤٣ .

(٥) سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المغربى ٢١٠ .

(٦) ابن أبى دينار : المؤنس /٢٨٩ .

(٧) سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المغربى/ ٢١٠ .

القاسم القرطبى الذى كان بمصر قبل سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م من أنه كان صاحب رقى ونيرنجات (١) ، واشتهر هؤلاء المنجمون بالكذب وقيلت فيهم الأمثال « افتح الكتاب مغربى كذاب » إلا أنهم كانت لهم فى قلوب المصريين هيبة ورهبة ، ومازال هؤلاء موجودون فى المغرب إلى الآن بصفةخاصة فى مدينة مراكش ،حيث يتجمع العدد الكبير منهم فى ساحة الفنا التى تعتبر من أهم ميادين المدينة (٢) ، كما عرف عن المغاربة اهتمامهم بالبحث عن مخابيءالكنوز ، وشاهد ناصر خسرو بعض المغاربة فى مصر ، وقد تجشموا مشاق السفر، وانفقوا المال الكثير فى تلال مصر ومحاجرها للبحث عن الدفائن والكنوز الفرعونية (٣) .

على أن أهم الآثار الملموسة التى تركها المغاربة فى مصر ، وظلت شاهدة على الصلات الاجتماعية بين البلدين بعض أضرحة أولياء الله الصالحين المنتشرة فى بقاع متفرقة من أنحاء مصر والتى تضم فى ثراها رجالاً من أقطاب الفكر الصوفى المغاربة الذين نزحوا إلى مصر، نذكر منهم أبا الحسن الشاذلى (ت ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، وقبره بحميثرا بالقرب من عيذاب على البحر الاحمر (٤)، يقول ابن رشيد السبتى(٥) : « ..إن آراءه الصوفية لم تجد لها أمانا إلا فى الديار الشرقية، فاتخذها مقراً له، وهناك زادت طريقته وشهرته » ، ونذكر كذلك أبا العباس المرسى (ت٦٨٥هـ/١٢٨٧م) وضريحه بالاسكندرية (٦) ، حتى لا تكاد تذكر الاسكندرية إلا بذكر قطبها أبو العباس المرسى (٧) ، ولايفوتنا ذكر شيخ طنطا المغربى السيد

---

(١) ابن الفرضى : تاريخ العلماء ١٢٨/٢ ، ١٣٠ ، انظر : احمد عبد اللطيف حنفى : الدور السياسى /٤٠٦ .

(٢) ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية /٢٥١ .

(٣) ناصر خسرو : سفر نامه /٦٩ .

(٤)جمال الدين الشيال : اعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي / ١٧١، ١٧٣ .

(٥) ابن رشيد السبتي : رحلة ابن رشيد /٨٥ .

(٦) عن أبي العباس المرسي ، راجع : المقري : نفح الطيب ٢ / ٣٨٩ ، ٣٩٣ ، جمال الدين الشيال: أعلام الاسكندرية / ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٧) ابتسام مرعي : العلاقات بين الخلافة الموحدية / ٣٥٩ .

البدوى (ت ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م) [١] .

إلى جانب هذه الأضرحة، نجد الأثر الأندلسى فى زخرفة بعض مساجد مشايخ الاسكندرية ، أو فى بعض مفردات عمارتها ، كما هو الحال فى مسجد أبى العباس المرسى أو جامع سيدى جابر أو سيدى بشر [٢] .

وصفوة القول أن ضخامة حجم الجالية المغربية واستقرارها فى ريف ومدن مصر، وتملك بعض أفرادها للكثير من الدور والضياع ، والأعطيات الممنوحة لهم من قبل الخلفاء ، إن دل على شيء انما يدل على المكانة الاجتماعية المتميزة التى عاشها هؤلاء المغاربة ، ولعل انتشارهم فى ربوع مصر أدي إلى اختلاطهم مع المصريين عن طريق علاقات الحياة اليومية ، والاحتكاك المباشر ، والمنفعة المتبادلة ، ومن ثم امتزجوا بالمصريين امتزاجاً عميقاً ذابت فيه خصائصهم البربرية الخشنة وتحولوا إلى خلايا حية في كيان المجتمع المصرى الذى ارتبط بهم على مر العصور .

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ١/ ٢٤٠ ، العماد الأصفهاني : خريدة القصر ٢/ ٣٤٠ .
(٢) سعد زغلول عبد الحميد : الأثر المغربي / ٢١١ .

ثانياً : الهجرات المصرية إلى المغرب وتأثيراتها الإجتماعية :

الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب :

يطلق على هجرة بنى هلال إلى بلاد المغرب الغزوة الهلالية أو تغريبة بنى هلال ، والشائع لدى المؤرخين أن الهجرة الهلالية بكل ما تبعها من تأثيرات عرقية وسياسية واقتصادية أو حضارية ، إنما بدأت بسبب قطع العلاقات السياسية والمذهبية بين الخلافة الفاطمية فى القاهرة ، وبين نوابها الزيريين فى افريقية فى عهد المعز بن باديس (١)، وحول الوقائع التاريخية لتغريبة بنى هلال نسجت الأسطورة التى اصبحت تحمل اسم احد ابطالهم، أو اسم القبيلة ، وهى تختلف عن وقائع التاريخ اختلافاً بيناً ، فهى اشبه بالصدى البعيد لحوادث التاريخ مثلها فى ذلك مثل كل الملاحم الشعبية (٢) حيث اختلط فيها الخيال بحقائق تاريخية وعادات اجتماعية ومعلومات جغرافية كانت شائعة فى ذلك العصر(٣) .

---

(١) عن الهجرة الهلالية راجع : السجلات المستنصرية ، السجل الخامس /٤٣ ، ٤٤ ، ابن الأثير : الكامل ٥٦٦/٩ وما بعدها ، النويرى : نهاية الارب ٢١٠/٢٤ ، ٢١١ ، ابن عذارى : البيان ٤١٩/١ وما بعدها ، ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول ، ٣١/ وما بعدها ، انظر الفصل الأول .

(٢) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس /١٤٩ .

(٣) أحمد ممّو : التحولات فى أقاصيص بنى هلال ، مجلة التراث الشعبى ، العدد الحادى عشر ، بغداد ١٩٧٧، ١٢/ ، ١٣ .

وبدراسة مجموعة من القصص الشعبى للسيرة الهلالية فى مصر وبلاد المغرب ، نلمس منها الصلة التى تربط بين هذه الأقاصيص ذات الصبغة الأسطورية فى شكلها العام وتدور السيرة الهلالية فى مصر عن أبى زيد الهلالى ومغامراته (عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى ، القاهرة ١٩٥٦) ، وعن السيرة الهلالية فى تونس راجع : عبد الرحمن قيقة من أقاصيص بنى هلال ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ ،وذكر عبد الرحمن قيقة ضمن هذه الروايات ترجمة معربة عن الشلحة (اللغة البربرية) لحكاية بنى هلال من قرية تمزرت بالجنوب التونسى ، كما قام (الفريد بل) بجمع روايات عن السيرة الهلالية بالجزائر منها حكاية ذياب الهلالى من بنى شقرن وعنابة :

ALFRED BEL: La Dijazya, in Journal asiatque, XIX - XX, 1902 - 1903

زحفت القبائل الهلالية من الصعيد إلى بلاد المغرب ، بعد أن أذن لهم الوزير اليازورى بالمسير إلى المغرب الذى أعطى لهم بدلاً من المعز بن باديس المتهم بالعصيان والخروج على الخلافة الفاطمية ، مع تملك كل ما يستطيعون فتحه ووعدهم بالمدد (١) .

وضمت هذه الهجرة جماعات هلال بن عامر وأهمها : جشم والأثبج وزغبة ورياح وربيعة وعدى (٢) ، واصطحب المهاجرون فرسانهم وقطيعهم وكان يحمل كل منهم ديناراً وزياً مشرقياً (٣) ، وقدرت أعداد أول موجة من الهجرة الهلالية بخمسين الف مقاتل (٤) ، ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه والدليل على ذلك أبيات من الشعر قالها على بن رزق الرياحى أحد شعراء بنى هلال فى وصف هزيمة المعز بن باديس على يد جند الهلالية فى موقعة حيدران(٥) :

وان ابن باديس لأحزم مالك	ولكن لعمرى مالديه رجال
ثلاثة آلاف لنا غلبت له	ثلاثين الفاً ان ذا لنكال

ومهما يكن من أمر فقد حققت الهجرة الهلالية نجاحاً كبيراً ، إذ سرعان ما اجتاحت مدينة برقة سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١ م ، حيث وجدوها بلاداً طيبة كثيرة المرعى ، خالية من الأهل ، بسبب هجرة زناتة منها أمام ضغط صنهاجة (٦)، ومالبث الهلاليون أن

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥٦٦/٩ ، النويرى : نهاية الأرب ٢١٠/٢٤ ، ٢١١ ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول / ٣١

(٢) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الأول /٣١ ، وما بعدها ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الاسلامى ، كتاب الشعب ، عدد ١٣٨ ، القاهرة ١٩٦١م ،/ ١٢٣ .

(٣) التجانى : رحلة التجانى /٢٠

(٤)جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق / ٢٢٣.

(٥)التجانى : رحلة التجانى ٢١٠ وقارن ابن الأثير : الكامل ٥٦٨/٩، ابن خلدون العبر، المجلد السادس، القسم الأول/ ٣٢حيث تختلف الأبيات بعض الشيىء .

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥٦٧/٩، النويرى : نهاية الأرب ٢١١/٢٤ .

كتبوا لاخوانهم فى مصر يرغبونهم فى البلاد ، واستغلت الدولة الفاطمية هذه الفرصة ، فبعد أن كانت الدولة تدفع لكل رجل يعبر النيل إلى المغرب ديناراً ، صارت تأخذ منهم ضريبة مقدارها دينارين ، فاستعادت ما كان أخذ منها أضعافا (١) .

اقتسم العرب بلاد إفريقية، فاستقرت زغبة ورياح فى برقة وطرابلس، كما استقر بنو هلال وسليم فى منطقة تونس وماليها غرباً ، فكان لسليم الشرق ولهلال الغرب (٢)، ومن المرجح أن بنى هلال كانوا الطرف الأقوى فى حلف القبائل العربية ، ولهذا كان لهم فضل التقدم نحو الغرب يتبعهم الآخرون ممن ساروا فى أثرهم من سليم وغيرهم، وهم الذين كان القسم الشرقى من البلاد من نصيبهم، وهكذا وصفت رواية ابن خلدون قبائل بنى هلال التى اندفعت غربا مكتسحة برقة وطرابلس وهى : دياب وعوف وزغبة ،كأنها الجراد المنتشر لا يمرون على شىء إلا أتوا عليه (٣).

استحوذ الهلاليون على جميع الأرياف وسكنوها وفرضوا على كل مدينة غرامات وتكاليف باهظة، وتعددت مواطن استقرارهم فى جميع أنحاء هذه البلاد ، وامتزجت قبائلهم بقبائل البربر ، وصاهرتها ، ونتج عن ذلك أجيالاً أقوى شكيمة وأشد مراساً من أجدادهم (٤).

---

(١)السلاوى : الاستقصا ١٦٦/٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس، القسم الأول /٣١، وقارن المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢١٨/٢ حيث يجعل تقسيم البلاد حسب خطة الخليفة المستنصر الذى جعل لمؤنس القيروان وباجة ولزغبة طرابلس وقابس وللحسن بن مرة ولاية قسنطينة، انظر : سعد زغلول : تاريخ المغرب /٤٢٣.

(٣) ابن خلدون : العبر، المجلد السادس، القسم الأول/٣١، السلاوى : الاستقصا ١٦٦/٢، انظر سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ٤٢٣/٣ .

Mas Latrie, Relations et commerce, P. 25 .

(٤) عبد الحميد يونس : الهلالية / ٨٠ .

ويعطينا الحسن بن الوزان (١) الصورة التى كان عليها التوزيع الاقليمى للهجرة الهلالية فى بلاد إفريقية والمغرب، فيذكر أثبج ويقسمها إلى ثلاثة فروع : دلج والمنتفق وصبيح، وكان استقرارهم بجبال أوراس الشرقية(٢)، وأما بنو هلال، فينقسمون إلى أربعة فروع : بنو عامر ورياح وسفيان وغصين ، ومواطنهم مابين بونه وقسنطينة(٣)، وتسكن رياح صحارى ليبيا(٤) ، وبنو سليم مواطنهم برقة وجهات طرابلس(٥) ، ومن القبائل التى وفدت فى ركاب الهجرة الهلالية قبيلة المعقل، بيد أنهم لم يتوغلوا فى قلب بلاد البربر لقلة عددهم، واكتفوا بالبقاء على حدود صحراء إفريقية والمغرب الأوسط(٦).

بعد أن تمكنت القبائل الهلالية من القضاء على ملك بنى زيرى بافريقية وهددوا الدولة الحمادية، تطلعوا إلى المغرب الأوسط والأقصى ، بيد أن قيام دولة المرابطين وحاميتها القوية المستقرة فى تلمسان، جنب المغرب الأوسط والأقصى - إلى حين - مصير افريقية والقبائل العربية(٧).

ويصف ابن خلدون(٨) وهو المصدر الرئيسى لتاريخ الهلالية من عرب هلال وسليم فى بلاد المغرب هذه الهجرة بقوله : « وافريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو

---

(١) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا /٥٩ .
(٢) مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية فى المغرب ، رسالة ماجستير جامعة الاسكندرية ١٩٧٥،/١٧٨ .
(٣) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا /٥٩.
(٤) نفس المصدر /٦١ .
(٥) مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية/ ١٨٣ .
(٦) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق/٢٣١ .
G. Marcais: Les Arabes en Berbérie, 584-603 .
(٧) Ibid., P. 166.
(٨)ابن خلدون : المقدمة/١٥٠ .

سليم منذ أوائل المائة الخامسة ، وتمرسوا بها لثلا ثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعاث بسائطه خرابا كلها ».

ويسرف ابن خلدون(١) فى تفصيل ما أنزله الهلاليون فى افريقية والمغرب من عيث وخراب الأمر الذى حمله أن يقول : « ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ، والسبب فى ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا وجبلة، وكان عندهم ملذوذاً ... وطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس، وأن رزقهم فى ظلال رماحهم، وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه »

وأما الادريسى(٢) فعند ذكره مدينة القيروان، يصور هجوم بنى هلال عليها وكأنه نقمة من الله، يتضح هذا من قوله: « فسلط الله سبحانه عليها، العرب وتوالت الحوائج عليها حتى لم يبق منها إلا أطلال دارسة وآثار طامسة » وفى موضع أخر يقول : « عرب لا خلاق لهم ولا يحفظون فى أحد من الناس إلاً ولاذمة » .

بينما يعزى المراكشى(٣)الخراب الذى لحق بكل مناحى الحياة فى افريقية والمغرب إلى بنى هلال، واستغل المستشرقون هذه المبالغات التى وردت فى المصادر العربية حتى ذهب ماس لاترى(٤)" Mas Latrie " بقذف عرب بنى هلال بأشنع التهم ووصفهم باللصوصية، ونهج نهجه «جورج مارسيه »(٥) ، الذى استند على أقوال ابن خلدون، وبالغ فى وصف الآثار المدمرة للهجرة الهلالية .

---

(١) نفس المصدر /١٤٩ .

(٢) الادريسى : صفة المغرب/ ١١٥،١١٠ .

(٣) المراكشى : المعجب /٤٤١ .

(٤) Mas Latrie: Relations et commerce, PP. 24, 25 .

(٥) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها / ٢٣٤ ، ٢٣٦ .

والحق أن بنى هلال ومن دخل معهم من العرب فى هذه الهجرة يختلفون كل الاختلاف عن عرب الأجيال الأولى التى قامت بالفتوح الاسلامية المجيدة، لأن هذه القبائل الهلالية لم تكن جيوشا نظامية، ذات هدف دينى أو قومى معنوى واضح، وانما كانوا بدواً، لأن طول اقامتهم فى البوادى، وتعاقب الدول عليهم، هذا فضلا عن اخراجهم من كل نطاق حضارى ، مما جعلهم يظلوا على بدويتهم ، فهم يتحركون ويتصرفون جماعياً، ويتعصبون لقبائلهم أكثر مما يتعصبون لأى شىء آخر(١)، ومما تجدر الاشارة إليه أن هذه القبائل كانت مضطرة لنهب المزروعات وأعمال السلب نظراً لنفاذ المؤن، التى كانت تحملها طول الرحلة، فكان من الطبيعى أن تنقض على ما تقابله عندما تصل إلى العمران، كما أن هذه الهجرة لم تكن شراً خالصاً، ولم تكن انقضاضاً ضارياً وهداماً كما صورها الكثيرون، بل كانت شراً تأتى عنه خير كثير وهو ما سنقف عليه فى هذه الدراسة .

وعلى الرغم من عيث بنى هلال وما نجم عن هجرتهم من أضرار لحقت بافريقية والمغرب إلا أن دورهم كان بارزاً فى الدفاع عن إفريقية ومدن الساحل ضد الغارات الصليبية متمثلة فى المدن الايطالية والنورمان، ويتضح ذلك بجلاء من مصدر معاصر لأخبار حملة المهدية وضاحيتها زويلةسنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وهى قصيدة باللغة اللاتينية، تعرف، بقصيدة نصر البيزيين ،(٢)

(Carmen in Victoriam Pisanorum) :

---

(١) حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب / ١٥٠ .

(٢) Cowdrey, H. E. J. :" The Mahdia campaign of 1087 " in English Historical Review, Vol, 362 Jan. 1977, P. 28 .

انظر : أمين الطيبى : بنو هلال ودروهم فى الجهاد فى افريقيا والاندلس ، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول ، ليبيا ١٩٨٥ ،/٩٧، ١٠٠ .

نظمها صاحبها وهو أحد رجال الدين فى خريف عام ١٠٨٧م ، أى بعد عودة الأسطوال المشارك فى حملة المهدية، وكلها تمجيد لما حققته الحملة من تقتيل للمسلمين فى جزيرة قوصرة والمهدية وزويلة ، وما ظفرت به من أسلاب وغنائم[١]، إلا أنه ما يهمنا فى هذا المقام ما تشتمل عليه القصيدة من تنويه واشادة بالدور البطولى الذى قامت به القبائل الهلالية فى التصدى للمغيرين على المهدية ، نقتبس بعضا من هذه النصوص[٢]: « بينما كان الروم ينظرون إلى وفرة الغنائم »

اذ بالقبائل العربية تدخل زويلة

كانوا مهره محنكين فى النظر إلى الوراء أثناء فرهم

احتل مائة الف من هؤلاء البواسل زويلة

وتدفق هؤلاء العرب نحو الساحل وملأوا الشاطىء

واوقعوا هزيمة ببقية البيزبين الذين كانوا يحرسون المرسى

ويصف التجانى[٣] الهزيمة التى لحقت بالنورمان فى جزيرة الأحاسى[٤] وقصر الديماص فى سنة ٥١٧هـ/١١٢٢م على يد القبائل الهلالية بقوله : « فتخطفتهم سيوف الأعراب فقتلوا عن آخرهم » .

لما أدرك سلاطين الموحدين القيمة القتالية لقبائل العرب الهلالية ، حرصوا على توجيهها للجهاد معهم فى الأندلس ، وقد أبلى أبناء هذه القبائل الهلالية بلاءاً حسنا،

---

(١) أمين الطيبى : بنو هلال ودورهم فى الجهاد /٩٩ .

(٢) Cowdrey: The Mahdia Campaign, P. 28

القصيدة تشتمل على اثناً عشر بيتاً باللغة اللاتينية أردفها الدكتور أمين الطيبى بترجمة عربية «انظر: أمين الطيبى : بنو هلال ودورهم فى الجهاد / ١٠٠ ، وملاحق الكتاب ».

(٣) التجانى : رحلة التجانى / ٣٣٦ .

(٤) جزيرة الأحاسى على بعد عشرة أميال من المهدية . التجانى : رحلة التجانى /٣٣٥ .

بهرت انتصاراتهم الألسن ، مما حدا بأبى العباس الجراوى شاعر الموحدين أن يشيد بدورهم[١] ، كما وجه أبو بكر بن الطفيل فى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م قصيدة شعرية يشحذ بها همم القبائل الهلالية إلى الغزوة الكبرى فى الأندلس[٢] .

ومهما يكن من أمر فإن مجرد تفكير زعماء الأندلس باستصراخ القبائل الهلالية لهو دليل فى حد ذاته أن أخبار كفايتهم القتالية ورغبتهم فى المشاركة فى الجهاد ضد الروم كانت قد ذاعت فى الأندلس بعد فترة قصيرة من وصولهم إلى المغرب، ومن هنا يبدو واضحاً دور القبائل الهلالية فى الدفاع عن المغرب والأندلس ضد هجمات وغارات النصارى التى اتخذت طابعاً صليبياً بل ليس من قبيل المبالغة إذا قلنا أن هذه القبائل عملت على تأخير ضياع الأندلس ولو إلى حين ، ولعل ذلك يضيف حسنة إلى ميزان حسنات هذه القبائل ويقلل من حدة وصف المؤرخين والكتاب لهذه الهجرة .

لقد كان لقدوم الهلاليين إلى المغرب آثار عميقة فى كافة دول المغرب ، نتيجة لما أحدثته هذه الهجرة من تجديد ظروف الحياة فى المجتمع المغربى ، فهى بمثابة الانقلاب الذى طرأ على البلاد [٣]، حيث ساعدت هذه الهجرة على انتشار استخدام اللغة العربية فى الريف البربرى، واتساع نطاق هذا الانتشار عما كان عليه منذ الفتح الاسلامى[٤] ، حتى ذهب الادريسى [٥] إلى القول : « ان قبائل العرب نزلت على

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة/١٧٢ .

بعراب خيل فوقهن أعـــــارب	من كل مقتحم على الأخطـــار
أكرم بـهن قبـائل اقلالـــهــا	فى الحرب يغنيها عن الاكثـار

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة/٤٢٥ ، المراكشى : المعجب /٢٩٤

اقيموا إلى العلياء هوج الرواحــل	وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهـل
بنى العم من عليا هلال بن عامر	وما جمعت من باسل وابن باسـل
فطيروا إليها بهلال بن عـامـــر	ثقالاً خفافاً بين حاف وناعـــل

(٣) Mas Latrie: Relations et commerce,P. 25 .

(٤) جورج مارسيه : بلاد المغرب / ٢٣٤ ، جوليان : تاريخ افريقيا /٩٧ .

(٥) الادريسى : صفة المغرب /٥٨ ، غوستاف لوبون : حضارة العرب /٢٥٧ .

قبائل البربر فنقلوهم إلى السنتهم بطول المجاورة لهم حتى صاروا جنساً واحداً ، .

كما حمل المهاجرون أشعارهم الموروثة عن أعراب الحجاز منذ أحقاب وأجيال (١)، وكان من الطبيعى أن يقتبس بربر إفريقية من الهلاليين طرائق الغناء والانشاد فكان من عادات البربر أنهم إذا صاغوا قصيدة من أى نوع كان فانهم يستنكفون من الانتساب إلى قول الشعر ، ويتحاشون من الانشاد بأنفسهم وينشده لهم بعض عبيدهم ذو الحناجر الشجية فى محافل الأعراس ومواكب الأفراح مصحوبين بعازفى الشبابات ودقاقى الطبول (٢)، كما عرف عن القبائل الهلالية اجادتهم للشعر فكان منهم شعراء عديدون ينظمون قصائد طويلة تتناول أغراضاً كثيرة (٣) ، وانتشرت الأغانى البسيطة التى تولد عنها الشعر الملحون، هذا إلى جانب انتشار الرقصات القوية مثل «الزقارة»، واستعمال الطبول الكبيرة التى جلبوها معهم (٤).

أدخل الهلاليون فى بلاد البربر أسلوب حياة غير مألوف لدى سكان البلاد من ذلك أن الخيمة لم تكن منتشرة بأرض المغرب، وانما كان عامة البربر يسكنون بالمداشر وكهوف الجبال(٥)، واستمر الحال على ذلك إلى أواسط المائة الخامسة ، فدخلت العرب أرض افريقية واستوطنوها بحللهم وخيامهم (٦) ، وكانت نساء الهلالية هى التى تقيم فى الخيام حسب مقتضيات الحياة البدوية، وقد لاحظ البكرى عشية الغزو الهلالى أن خيام الواصلية والزناتية الخوارج فى تاهرت كانت تشبه خيام بنى

(١) السلاوى : الاستقصا ١٦٦/٢، ١٦٧ .
(٢) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب /٢٤٨ .
(٣) الحسن بن الوازن : وصف افريقيا / ٧١ .
(٤) محمد بن عامر : الدولة الصنهاجية /٥٥، الصادق الرزقى : الأغانى التونسية/ ٣٤ .
(٥) المداشر : جمع مدشر وهو عبارة عن تجمع يضم بضعة بيوت للفلاحين لا تتجاوز العشرة ، وليس فيها مسجد أو سوق ، وهى كلمة مغربية استخدمها مؤرخوا المغرب ومنهم ابن خلدون . (الحسن بن الوزان : وصف افريقيا ، /٧٥، حاشية رقم ١٦١) .
(٦) السلاوى : الاستقصا ١٦٢/٢ .

هـلال[1] ، ويعتقد أحد الباحثين أن الخيام الهلالية كانت تختلف عن خيام البربر[2] ، ومن المرجح أن القبائل الهلالية توصلت إلى صناعة بعض أنواع الخيام من الجلد ، قبل هجرتها إلى المغرب ، إذ يروى الألوسى[3] أن من بيوتهم القشع ، وكانوا يتخذونه من الجلود ، والقشع هو الجلد اليابس، ولعل ذلك يؤكد أن القبائل الهلالية توصلت إلى صناعة بعض أنواع الخيام من الجلد قبل دخولها إلى بلاد المغرب ، ومن المرجح أن قبائل الطوارق تأثرت بالقبائل العربية من بنى هلال وسليم فى مساكنهم .

كما كان لدى عرب بنى هلال أعداداً كبيرة من الخيول العربية الأصيلة التى جلبوها معهم فى هجرتهم إلى افريقية ، وظهرت مهارتها فى الدفاع عن المهدية وزويلة سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م ضد حملة البيزيين، وأشار إليها الشاعر البيزى [4] بقوله : « ويحارب فرسانهم بسرعة تفوق سرعة الريح الشرقية .. ممتطين خيولاً ضامرة يوجهونها بأجسامهم » .

وإذا انتقلنا إلى الزى فإننا نجد أن الهلاليين جميعاً كانوا سواسية فى لبس المخيط، وربما القوا رداءً على ظهورهم والتفوا بازار [5]، وكانت العمائم لبس الرأس المألوف عندهم[6]، بينما كان لباس المغربى يتألف من قميص وسروال وجبة من الصوف يتحزم عليها بازار ملون، ويغطى الرأس بعمامة وتسمى أيضاً لِفافة، يوضع فوقها الدوخلة التى تنزل على القفا[7]، ومما يجدر ذكره أن القبائل العربية الهلالية ظلت

---

(١) البكرى : المغرب فى تاريخ افريقية /٦٧ .

(٢) جورج مارسيه : بلاد المغرب /٢٣٧ .

(٣) قال متمم بن نويره يرثى أخاه مالكاً :

ولا برماً تهدى النســـاء لعرســه   إذ القشع من برد الشتاء تقعقعـــا

انظر : الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ٣/٣٩٣، ٣٩٤ .

(٤) Cowdrey: The Mahdia Campaign of 1087, P. 28 .

(٥) الألوسى : بلوغ الأرب ٣/٤٠٦ .

(٦) عبد الحميد يونس : الهلالية /٩٧، مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية/ ٢١٨ .

(٧) حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق /٤٢ .

محافظة على إرتداء زيها العربى وإن كانت قد تأثرت بالبربر فى لبس البرانس يتضح ذلك من وصف ابن صاحب الصلاة[1] للملابس المهداة إلى العرب فى المناسبات الخاصة سواء عند قدومهم للمبايعة أو التهنئة فيلعم عليهم « بالكسوة التامة من العمائم والغفاير والبرانس والأكسية بأن حصل لكل فارس غفارة وعمامة وكساء وقبطية[2] وشقة » .

وأما لباس المرأة الهلالية فيتألف من قميص أسود عريض الكمين، يضعن فوقه خماراً من نفس اللون أو من لون أزرق، ويضعن فى آذانهم أقراطاً من فضة على شكل حلقات، هذا فضلاً عن وضع النقاب على عيونهم وهو عبارة عن قطعة قماش صغيرة مثقوبة تجاه العينين، ويضعن كذلك فى سيقانهم خلاخيل منقوشة، طبقاً لعادة البربر[3]، وعن زى المرأة البربرية فكان يتألف من رداء مصنوع من القطن أو الحرير على حسب رتبتها ، وتجعل فوقه غلالة تشدها بمئزر، وتتزين بأصناف الحلى من أساور مرصعة وخلاخيل منقوشة ومعصفرات إلى غير ذلك ، فاذا خرجت من منزلها تضرب على وجهها بالمعجر متأثرة فى ذلك بالمرأة الهلالية [4].

وكان من عادة القبائل الهلالية ، عندما ينفرون لحروبهم ينطلقون إليها بصحبة نسائهم كى يستمدوا من وجودهن الشجاعة، وتأثر المجتمع المغربى بهذه العادة وظلت باقية إلى الآن فى الاحتفالات التى تقام فى جنوب الجزائر ، ويكون فيها تمثيل للمعارك الحربية، حيث يحارب الرجال بعضهم بعضاً وهم فوق خيولهم فى حين تظل النساء معتكفات ضمن البواصير فوق الجمال [5] .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة / ٢٩١ .

(٢) قبطية : هى الثوب الأبيض الرقيق المصنوع من الكتان ، وأما الغفارة فهى كساء يلبس فوق آخر (انظر : ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة/ ٢٩١، ٤٣٧، ٤٥٠) .

(٣) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا /٧٣ .

(٤) حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق/ ٤٣ .

(٥) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا/٧٤، انظر : حاشية رقم ١٥٩ ، نفس الصفحة ، وقارن جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها /٢٣٨ .

ومن العادات الطريفة للمرأة المغربية أنها تخضب وجهها وصدرها وذراعيها ويديها حتى نهاية الأصابع ، وذلك قبل الذهاب لرؤية زوجها ، ويذكر الحسن بن الوزان أن هذه العادة قد انتقلت إلى عرب بنى هلال بعد أن جاءوا الى إفريقية ، ولم تكن معروفة لديهم قبل ذلك ، كما أن هذه العادة قاصرة على الريف البربرى ، وغير مألوفة عند سكان المدن ووجهاء البربر [١] .

وأما عن الطعام فكان من جملة ما اقتبسته القبائل الهلالية المنتصبة بافريقية من سكان البلاد « الكسكسى »، وهو الأساس فى أكل البربر ، أخذه الهلاليون لأنه لم يكن عندهم كثرة تنوع فى أكلهم الذى يمكن حصره فى (الثريد) ، والعصيد، والبسيس[٢] هذا بالاضافة إلى الحليب والتمر [٣] .

وقد تهيأ للقبائل الهلالية بحكم سعة إنتشارها، أن تنقل معها أسلوب الانتقال الموسمى للرعاة وقطيعهم من الصحراء إلى المناطق القريبة من الساحل والأكثر خصوبة من الساحل فى الصيف[٤] ، ولعل مما يضطرهم إلى الانتقال كثرة مالديهم من الحيوانات التى تحتاج إلى مرعى دائم متغير ، وانتشرت هذه العادة فى بلاد البربر بعد أن كانت قاصرة على بعض القبائل الجبلية من صنهاجة[٥] .

وصفوة القول أن انتشار هذه القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطن استقرارها فى جميع أنحاء البلاد أدى إلى امتزاجها بقبائل البربر ، الأمر الذى أدى إلى تنوع حياتها الاجتماعية وتطور مفاهيم القبيلة العربية بالمغرب ، فيما يختص بالزواج والحلف والجوار والشعر والغناء والزى ، ومسكنهم وطعامهم ، وتأثر القبائل الهلالية بعادات وتقاليد البربر، بعد أن نقلوا إلى المجتمع المغربى الكثير من عاداتهم وتقاليدهم التى ظلت باقية إلى الآن .

---

(١) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا / ٧٤ .
(٢) حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق /٤٣ .
(٣) الحسن بن الوزان : وصف افريقيا / ٦٠، ٧٣ .
(٤) جورج مارسيه : بلاد المغرب /٢٣٦ ، جوليان : تاريخ افريقيا/ ٩٨ .
(٥) Terrasse (H.): Histoire du Maroc, Casablanca, 1949, T., I, P. 22, .

ثالثاً : بعض مظاهر الحياة الإجتماعية والتأثيرات المتبادلة :

الأعياد والاحتفالات والمواكب :

على الخلفاء الفاطميون منذ استقرارهم بمصر بكل مظاهر الترف والبذخ، نتيجة للثراء العريض الذى تمتعت به دولتهم ، وانعكس فى مظاهر احتفالهم بالأعياد والمواسم المختلفة وفى مواكبهم التى أسهب المؤرخون والرحالة فى وصفها، حتى صارت حياتهم كلها أعراساً وأعياداً (١) ، ولابن خلدون (٢)عبارة شهيرة فى ذلك يقول فيها : « ان الأمة اذا تغلبت وملكت ما بأيدى الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها، فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته » .

على أن الاحتفالات الدينية وغير الدينية بلغت درجة واضحة من المبالغة والاسراف والتأنق، ولعل مرد ذلك إلى وفرة المال والثراء وبخاصة فى العصر الفاطمى الأول، هذا فضلاً لما هو معروف عن الدولة الفاطمية من أنها دولة دعوة ودعاية ، فهى تدعو إلى مذهب معين فى بلاد وبين أناس ربما لا يتحمسون للأخذ بهذا المذهب، لذلك لا أقل من التوسع فى مظاهر الاحتفالات، لالهاء الرعية من أهل السنة عن أمور السياسة ، وما يقال من الطعن فى نسبهم وأحقيتهم فى الخلافة ، فأكثروا من الاحتفالات التى كانت تنثر فيها الأموال على العامة ، وتقام فيها الأسمطة الضخمة والمواكب المهيبة(٣) .

---

(١) المقريزى : الخطط ٢/٢٨٥ ، انظر : محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ،١٢٣، عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى فى عصر الدولة الفاطمية /١٢٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة /١٦٧ .

(٣) الموسوعة المصرية ، تاريخ وآثار مصر الاسلامية، مادة (احتفالات وأعياد) ،٧٠٣، راجع عبد المنعم ماجد : أصل حفلات الفاطميين فى مصر ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، المجلد الثانى،١٩٥٤، /٢٥٦ ، نظم الفاطميين ورسومهم : ٢/٤٢ .
Dozy: Supplement aux dictionnaires, Leyden 1881, I. P. 528, .

ومما يجدر ذكره أن حياة الخلفاء الفاطميين فى افريقية تختلف عنها فى مصر حيث التقشف والابتعاد عن مظاهر الترف، وينقل لنا المقريزى (١) وصفاً لحياة المعز لدين الله يوم أن استدعى شيوخ كتامة ليشاهدوا حياته العادية فى يوم شات فقال لهم: « يا اخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد .. أترى اخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المثقل، والديباج والحرير، والفنك والسمور ، والمسك والخمر والقباء ، كما يفعل أرباب الدنيا ، ثم رأيت أن انفذ اليكم فاحضرتكم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ، وانى لا أفضلكم فى أحوالكم ، .. وانى لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ... » .

يتضح من هذه الرواية إلى أى حد كانت حياة التقشف التى يحياها الخلفاء الفاطميون فى بلاد المغرب، لعل ذلك يرجع إلى أن البربر كانت فيهم غلظة وخشونة، هذا الى جانب القلاقل والثورات التى كادت تعصف بالدولة الفاطمية فى المغرب، مما جعل الخلفاء فى نضال مستمر ، ولم يكن لديهم الوقت الكافى لانشاء هذه الرسوم(٢) .

وفيما يلى سنعرض بإيجاز لبعض الأعياد والاحتفالات فى مصر والمغرب نذكر منها الاحتفالات برأس السنة الهجرية ،والاحتفال بالمولد النبوى ، الذى يتميز بكثرة ما يوزع فيه من الصدقات والأطعمة والحلوى، حيث كانت دار الفطرة تستعد للاحتفال بهذا اليوم باعداد كميات كبيرة من الحلوى اليابسة، يجرى توزيعها على رجال الدولة(٣) ، ويذكر المقريزى أن سوق الحلاويين كان من أوسع الأسواق بالقاهرة، وكان يصنع فى هذا السوق من السكر أمثال خيول وسباع وقطط وغيرها

---

(١) المقريزى : الخطط ٣٥٢/١ .

(٢) عبد المنعم ماجد : أصل حفلات الفاطميين فى مصر/ ٢٥٤ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ٤٩٨/٣ ، ٤٩٩، المقريزى : الخطط ٤٣٣/١ ، عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى/ ١٣٢ .

تسمى العلايق، ترفع بخيوط على الحوانيت يشترى منها الناس فى هذه المناسبات ؛ فلايبقى جليل ولافقير حتى يبتاع منها لأهله ، وتمتلىء أسواق البلدين مصر والقاهرة وأريافها من هذا الصنف(١) .

وهكذا نستطيع أن نرد هذه العادة الشعبية وصناعتها إلى عهد الدولة الفاطمية والتى ظلت باقية بيننا ولم تندثر حتى الآن .

وأما عن الاحتفال بالمولد النبوى فى بلاد المغرب ، فيذكر ابن أبى دينار أنه من أعيادهم المشهورة ومواسمهم المذكورة تعظيم ليلة المولد الشريف، ويزعم أن أول من أدخل الاحتفال بالمولد النبوى فى بلاد المغرب، السلطان أبو عنان المرينى، ثم اقتدى به بنو أبى حفص فى الديار التونسية (٢) ، ومن المرجح أن الموحدين احتفلوا بالمولد النبوى فى أواخر عهدهم ، فقد ذكر ابن عذارى أن المرتضى وهو الخليفة الموحدى الذى قتل سنة ٦٥٦هـ: « كان يقوم بليلة المولد خير قيام ويفيض فيه الخير والانعام ، وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفى لأنه لما الف كتابه « الدر المنظم فى مولد النبى المعظم » وبعث به إليه، وأشار بذلك الرأى عليه »(٣) .

ومهما يكن من أمر فان هذا الاحتفال كتقليد شرقى نقل متأخراً إلى بلاد المغرب، ولم يكن معمولاً به قبل ذلك(٤) .

وعن الاحتفال بشهر رمضان ، فقد عنى الفاطميون به عناية خاصة، واستعدوا له من قبل قدومه، فيقوم القاضى بالمرور على جوامع ومساجد القاهرة والفسطاط للنظر فى ما يلزمها من فرش واضاءة، وما تحتاج إليه من اصلاح قبل حلول هذا الشهر ، كما كان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يأمروا باغلاق جميع قاعات الخمارين ، وتختم حوانيتهم ويمنع بيع الخمر ابتداء من أول رجب حتى نهاية

---

(١) المقريزى : الخطط ٢/ ١٠٠ .

(٢) ابن أبى دينار : المؤنس / ٢٩٠ .

(٣) ابن عذارى : البيان ٣/٤٥٢، نقلاً عن ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية ، /٢٤٩، ٢٥٠ .

(٤) ابتسام مرعى : العلاقات بين الخلافة الموحدية /٢٤٩ .

شهر رمضان [١] ، وترسل الكتب إلى جميع البلاد التابعة للخلافة ، وبهذا تبدأ احتفالات هذا الشهر ، ويكون أولها ركوب الخليفة وبصحبته الوزير وحوله حرسه الخاص [٢] ، وثمة ظاهرة غريبة نلحظها عند الفاطميين ، وهى أن صيام شهر رمضان عند السنيين ينتهى بمجرد ظهور القمر سواء أكان شهر شعبان تسعة وعشرين يوماً أم ثلاثين ، بينما شهر رمضان عند أهل الشيعة ثلاثين يوماً «دائماً وزعموا أنه سر من أسرار النبوة» [٣] .

على أن الفاطميين بدءوا احتفالهم بعيد الفطر الذى هو عندهم «الموسم الكبير» منذ قدوم الخليفة المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م ، فيذكر ابن زولاق أن المعز ركب فى هذا العام لصلاة عيد الفطر إلى مصلى العيد التى تقع شرقى القصر الكبير بجوار باب النصر ، وقد بناها القائد جوهر لهذا الغرض[٤] ، وكان الخليفة الفاطمى يخترق هذا الطريق فى موكبه الضخم الذى يضم طوائف العسكر فى أبهى زينة ، وكان يشترك فى هذا الموكب الفيلة والزرافات والأسود المزينة بالأجلة من الحرير وعليها قباب الذهب[٥] .

وعلى الجانب الآخر فقد كان أمراء بنى زيرى يولون اهتماما بالغاً بالاحتفال بشهر رمضان واحياء لياليه ، وينقل لنا ابن عذارى الصورة التى كان عليها العيد فى إفريقية ، فيذكر أن الأمير باديس عندما خرج لصلاة العيد سنة ٣٨٧ هـ/٩٩٧م كان

(١) المقريزى : الخطط ، وراجع : عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى ، /١٣٧ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٥٠٥/٣ ، المقريزى : الخطط ، ٤٩١/١ .
Lane - Poole : "A History of Egypt in the Middle Ages, P.P. 141 - 142
(٣) المقريزى : الخطط ٤٩٢/١ ، انظر : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، /٦٥١ .
(٤) المقريزى : الخطط٤٥١/١ ، راجع : عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى ، /١٤١ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى٥٠٩/٣ ، المقريزى : الخطط ٤٥١/١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،١٧٧/٥ .

يرتدى ثياباً فخمة ، ويسير بين يديه فيل وزرافتان وجمل أبيض ناصع لم ير الناس مثله (١) ، وصار المعز على نفس النمط عندما يتقدمه خمسة عشر راية منسوجة بالذهب وصلته من القاهرة (٢).

وهكذا يبدو واضحا تأثر أمراء بنى زيرى بالخلفاء الفاطميين فى مظاهر بذخهم وترفهم وظهورهم بالأبهة أكثر من الأغالبة والفاطميين ، ولا غرو ، فقد أثبتت إفريقية على أنها مقاطعة فنية للمشرق ، متقبلة للرسوم الوافدة من القاهرة(٣) ، وكذلك كان خلفاء الموحدين يخرجون لصلاة العيد فى موكب من كبار رجال الدولة لتحية الخليفة وتهنئته(٤) .

كان عيد الأضحى يتشابه من حيث الموكب ، والصلاة والسماط مع عيد الفطر إلا أنه يختلف عنه فى بعض الرسوم الخاصة بالنحر ، وكان الخلفاء الفاطميون يرسلون الكتب بالبشارة بعيد الأضحى إلى الولايات والأقاليم الخاضعة لنفوذهم يصفون فيها مواكبهم وعظمة دولتهم وسلامتها من الفتن والاضطرابات(٥) ، وكان من الطبيعى أن يكون نصيب إفريقية من هذه الكتب وهى ولاية تدور فى فلك الخلافة الفاطمية .

وأما عن الأعياد والاحتفالات الشيعية الخاصة ، نذكر منها الاحتفال بذكرى مقتل الحسين فى مذبحة كربلاء فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ / ٦٨٠ م ، وهو ما

---

(١) ابن عذارى : البيان ٣٥٧/١ ، ابن أبى دينار : المؤنس، /٨٠ .

(٢) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق /٢١٣ .

(٣) جورج مارسيه : بلاد المغرب /٢١٦ ، وجوليان : تاريخ افريقيا ، /٩٢ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة / ٤٥٧ ، عفيفى محمود ابراهيم : مظاهر الحضارة فى بلاد المغرب ، /٢٥٢ .

(٥) راجع السجلات المستنصرية /٩٩ ، ١٠٠ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ٥١١/٣ وما بعدها ، المقريزى : الخطط ، ٤٣٨,٤٣٧/١ .

عرف بيوم عاشوراء [1] ، وكان هذا اليوم من الأيام الحزينة بالنسبة لأهل الشيعة فى مصر ، حيث يخرج الناس منذ بداية اليوم قاصدين الجامع الأزهر وقد لبسوا الحداد ، ويركب قاضى القضاة، ومعه الشهود وفى صحبتهم الأمراء والأعيان والقراء[2] ، وكان الخلفاء الفاطميون يحتجبون عن الظهور تعبيراً عن حزنهم وجزعهم [3] ، ويقام فى هذا اليوم سماط ضخم يطلق عليه سماط الحزن يتكون من العدس والمملوحات والمخللات والأجبان والألبان الساذجة ، وعسل النحل ، والخبز المتغير لونه بالقصد لأجل الحزن[4]، وكان تعبير الشيعة عن حزنهم فى تلك الذكرى يحمل الكثير من مظاهر المغالاة والفوضى والخروج عن المألوف وكانت تحدث نتيجة لذلك اضطرابات واعتداءات على أموال الناس وحرماتهم[5] .

ومن الأعياد الخاصة التى كان يحتفل بذكراها الفاطميون فى مصر عيد الغدير وهذا العيد يؤيد النظرية القائلة بأن على بن أبى طالب ولى عهد الرسول دون سواه ، وانه كان يجب أن يخلفه فى زعامة المسلمين[6] ، وقد بدأ الاحتفال بهذا العيد منذ دخول المعز لدين الله مصر ، فقد تجمع عدد كبير من أهل مصر والمغاربة من الشيعة للدعاء والاحتفال فابتهج المعز لذلك [7] ، وقد تطور الاحتفال بعيد الغدير فى أواخر

---

(١) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٣٩٧ ، المقريزى : الخطط ١/ ٤٣٠ ، ٤٣١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٣/٤٨٤ .

(٣) المقريزى : الخطط ٤٢٧/١ ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ، ١٢٩/٢، عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى ، /١٥٥ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة١٥٢/٥ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، /٦٥٥ .

(٥) المقريزى : الخطط ٤٣١/١ ، عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى ، /١٥٦ .

(٦) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، /٦٥١، راجع حاشية رقم ٢ نفس الصفحة .

(٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ١٦٨/١ ، الخطط ، ٣٨٩/١ .

عـهد الدولة الفاطمية ، فأصبح لـه رسوم مـحددة ، وركـوب خـاص يطلق عليه ركوب الغدير[١] .

أما ليالى الوقود فهى من الأعياد الشيعية الشهيرة التى كان يحتفل بها الفاطميون ، وهى الليالى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان ، وقد كانت تلك الأيام من الأيام المباركة عند الفاطميين حيث يحتفلون بها مثل احتفالهم بشهر رمضان [٢]، ويعتقد المقريزى أن أصل الاحتفال بليالى الوقود يرجع إلى عـهد عمر بن الخطاب ويستشهد بقول الفاكهى[٣] فى كتاب مكة : «أن عمر بن الخطاب كان يصيح فى أهل مكة ويقول يا أهل مكة اوقدوا ليلة هلال المحرم ، فأوضحوا فحاجكم لحاج بيت الله واحرسوهم ليلة هلال المحرم حتى يصبحوا ، وكان الأمر على ذلك بمكة فى هذه الليلة حتى كانت ولاية عبد الله بن محمد بن داود على مكة ، فأمر الناس أن يوقدوا ليلة هلال رجب، فيحرسوا عمار أهل اليمن ، ففعلوا ذلك فى ولايته ، ثم تركوه بعده» .

ومهما يكن من أمر فقد احتفل الفاطميون بهذه الليالى ، وكان من مظاهر الاحتفال بها خروج كميات كبيرة من الشمع من حواصل قصر الخليفة ، حيث يتم توزيعها على حاشية قاضى القضاة لتضاء فى الموكب الرسمى الذى يتقدمه[٤] .

ومما تجدر الاشارة إليه أن الفاطميين لم يحتفلوا بهذه الأعياد الشيعية أثناء وجودهم بالمغرب فالمصادر التى بين أيدينا وأرخت للدولة الفاطمية فى المغرب ، لم تذكر شيئاً من ذلك وخصوصا كتابى افتتاح الدعوة والمجالس والمسايرات اللهم إلا

---

(١) المقريزى : الخطط ٣٨٩/١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٤٩٧/٣ وما بعدها ، المقريزى : الخطط ٤٦٥/١ ، ٤٦٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ٤٦٦/١ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية /٦٥٨، حاشية رقم (١) .

(٤) المقريزى : الخطط ٤٦٦/١ .

إشارات عن القاء خطبة للنعمان بمناسبة ذكرى عاشوراء ، وفضائل هذا اليوم ، والاشادة بذكر مناقب الحسين بن على(١) ، وعلى الرغم من أن الاحتفال كان لا يتعدى القاء الخطب إلا أن جواب المعز إلى النعمان يدل على أن أهل السنة فى المغرب، وبصفة خاصة فى المناطق التى كانت تنضوى تحت نفوذ بنى أمية فى الأندلس . كانوا يسبغون على هذا اليوم البهجة والسرور ، الأمر الذى يتنافى والتقليد المتبع عند الشيعة يتضح ذلك من قول المعز(٢) : «يانعمان ما ذكرت إلا ماجاء عن الصادقين صحيحاً ، ويوم عاشوراء قد علمت تفضيل الجهال إياه ، .. وأنهم جعلوه يوم عيد وسرور لما سنه لهم الفسقة بنو أمية ، فصف تعظيمهم له من أى وجه كان مثل أن تقول : «فعظموا عباد الله هذا اليوم الذى عظمه الله ، واستنوا فى تعظيمكم إياه سنة نبيكم محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، لا أن تتخذوه يوم عيد وسرور كما اتخذه أعداء الله وأولياء الشيطان .. ، من أبناء مروان » ..

ومن هنا يبدو أن الاحتفال بعاشوراء لم يظهر كاملا أثناء وجود الفاطميين فى بلاد المغرب وانما بدا كخطوط باهته ، ولم يظهر ويتأكد إلا بعد رحيل الخليفة المعز إلى مصر ، ومن المرجح أن بنى زيرى كانوا يحتفلون بهذا اليوم فى بلاد المغرب على نفس الرسوم المعمول بها فى مصر ، ومما يدعم هذا الرأى ماذكره ابن الأثير عن مذبحة الشيعة فى عهد المعز بن باديس التى كانت فى شهر المحرم (٣) ، فالمحرم هو موسم مقتل الحسين فى عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة ويتجمعون فى مكان خاص بهم يعرف بحومة المقلى أو درب المقلى يرتدون ملابس الحداد وتتعالى أصواتهم

---

(١) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٣٩٧ .

(٢) نفس المصدر /٣٩٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٢٩٤/٩ ، وقارن ابن عذارى : البيان، ٣٩٥/١ ، انظر : الفصل الأول من الكتاب .

بالعويل والنحيب ، الأمر الذى أثار حفيظة أهل السنة ، وأدى إلى التصادم بين الطرفين ، انتهى بمذبحة الشيعة سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، يقول البكرى[١] (ت ٤٨٦هـ / ١٠٩٤م) عند ذكر المنستير : «.. وله في يوم عاشوراء موسم عظيم ، ومجمع كثير ..» ، هذا فضلاً عن أن قبيلة صنهاجة وعشائرها ، كانت تشكل نسبة كبيرة من قطاعات السكان فى إفريقية ، وتدين بمذهب الدولة الرسمى ، وهو المذهب الاسماعيلى[٢] ، كل ذلك يجعلنا نرجح أن الأعياد الشيعية التى كانت تقام فى مصر فى عصر الدولة الفاطمية انتقلت إلى إفريقية وبلاد المغرب ابان حكم الدولة الزيرية ، ولم يندثر رسمها ويبطل الاحتفال بها إلا بعد القطيعة بين مصر وإفريقية فى عهد المعز بن باديس ، وكان من الطبيعى أن يعود الاحتفال بعاشوراء على الصورة التى تتلاءم وفكر أهل السنة ، ويصبح هذا اليوم من أيام التوسعة ، ويحتفلون له غاية الاحتفال ، ويصرفون فيه أموالاً وافرة فى الأطعمة ، والفواكه ، «وقل أن تجد من لا يصرف شيئا..»[٣] .

ومن الأعياد القديمة التى احتفل بها سكان المغرب «عيد النيروز»[٤] وهذا العيد كان يبدأ مع بداية فصل الربيع ، وكان المعز يستنكر خروج أهل إفريقية للشرب والمجون فى هذا الفصل ، فقد اعتاد الناس الخروج فى الربيع عندما يخضر شجره ويتفتح زهره حاملين معهم الكثير من ألوان الأطعمة وخبائث الأشربة ، وآلات اللهو[٥] ، مما جعل المعز يستنكر عاداتهم ، ويطلب منهم الاستعاضة بالاعتبار والتفكر فى قدرة الله لقوله تعالى[٦] : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون» ولم يقل إن فيه التذاذاً للمتنزهين ،

---

(١) البكرى : المغرب /٣٦ .

(٢) حسن أحمد محمود : محنة الشيعة بافريقية /٩٥ ، ٩٦ .

(٣) ابن أبى دينار : المؤنس /٢٨٩ .

(٤) النيروز هو تعريب للكلمة الفارسية (نوروز آمدّ) أى اليوم الجديد (راجع :القلقشندى: صبح الأعشى ٤٠٨/٢) .

(٥) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٣٢٩ .

(٦) سورة الرعد الآية (٣) .

واستمتاعاً للآكلين على النظر إليه والشاربين (١) .

لما رحل الخليفة المعز لدين الله إلى مصر ، وجد الاحتفال بعيد النيروز ، وأراد أن يمنع الاحتفال به لما كان يجرى فيه من تعاطى الخمور علانية ، وما يصحب ذلك من مظاهر الانحلال والتهتك ، .. منع المعز من وقود النيران ليلة النوروز فى السكك ومن صب الماء يوم النوروز ،(٢) الا أن الاحتفال بالنيروز استمر فى عهد خلفاء المعز ، وكان من عادة الخليفة الآمر الركوب يوم النيروز إلى منظرة اللؤلؤة المطلة على الخليج ، وكان بها قصر من أعظم القصور ، فيجلس لمشاهدة مظاهر الاحتفال بالنيروز، ويتجمع أسفل المنظرة أهل الطرب والغناء والموسيقى ويحتشد حولهم الناس ، فيغنون ويطربون ، ويتراشون بالماء والخمر(٣) .

ويبدو أن عادة الاحتفال بالنيروز ظلت باقية فى بلاد المغرب ، ويصف ابن أبى دينار(٤) هذا اليوم بقوله : « ومن أيامهم المشهورة أول يوم من شهر مايو فانهم ينفقون فيه أموالاً لا تحصى .. ويكثرون من الرياحين .. ، ويباع فى هذا اليوم من النارنج والليمون الحلو بقدر ما بيع فى السنة كلها .. ويتجاوزون إلى المغانى وآلات الطرب لما لاحد له » .. ومن المرجح أن هذا العيد انتقل إلى إفريقية والمغرب من مصر فى وقت مبكر ، حيث يقول بعضهم هذا اليوم عيد لفرعون(٥) .

ومن الظواهر الاجتماعية التى تستحق التسجيل ظاهرة اختلاط الرجال بالنساء فى بلاد المغرب فى الأعياد ، لما دخل المهدى بن تومرت بجاية لقى بها الصبيان فى

---

(١) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات / ٣٢٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ٤٩٣/١ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، /٦٦١ .

(٣) نفس المصدر ٢٦٩/١ .

(٤) ابن أبى دينار : المؤنس /٢٩١ .

(٥) ابن أبى دينار : المؤنس /٢٩٢ .

زى النساء بالضفائر والأخراس ، والزينة وشواشى الخز ، ثم حضر عيداً فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين [١] .

وأما الاحتفالات الأسرية فنذكر منها الزواج ، وكان قيمة ما يمهره الخلفاء والأمراء كبيراً فيذكر المقريزى أن الخليفة الآمر عندما تزوج السيدة «علم الآمرية» سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١ م كتب صداقها ، وجعل المقدم أربعة عشر ألف دينار[٢] ، وكانت احتفالات الزواج ، على درجة كبيرة من الفخامة ، وتتميز بمظاهر الثراء ، فتوزع فيها الهبات الثمينة ، وتنثر خلالها الأموال على العامة[٣] .

كما اتسمت احتفالات الزواج ببلاد المغرب بالبذخ والمغالاة فى المهور إلى حد تجاوزت فيه مظاهر البذخ والاسراف التى كانت عند الفاطميين ،، وينقل لنا ابن عذارى[٤] صورة عن احتفالات الزواج فى عصر الدولة الزيرية بقوله : « وفى سنة ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢ م تعرّس المعز .. فكان له عرس ماتهيأ قط لأحد من ملوك الاسلام» .

وعن الاحتفالات بمناسبة زواج الأميرة أم العلو شقيقة المعز سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤م يذكر ابن عذارى أنه تم تزيين الديوان المعظم تمجيداً لها ، ودخل الناس خاصة وعامة ليشاهدوا صنوف الجوهر والاسلاك والأمتعة النفيسة ، وأوانى الذهب والفضة مالم يعمل مثله ولا سمع لأحد من الملوك قبله ، ويقول ابن الرقيق : «فبهر عيون الخلق حال ما عاينوه ، وأبهتهم عظيم ما شهدوه[٥] وحمل كل ذلك إلى مكان

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان /٤١ ، راجع : ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ، /١٧٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ٤٤٦/٢ .

(٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى /١٩٢ .

(٤) ابن عذارى : البيان ٣٩٠/١ ، الحبيب الجنحانى : القيروان ، /١٥٢ ، ١٥٣ .

(٥) ابن عذارى : البيان ٣٩٠/١ ، الحبيب الجنحانى : القيروان ، /٣٩٣ ، ٣٩٤ .

شيدت فيه المبانى والقباب والأخبية ، وكان مهر العروس محملاً على عشرة بغال ، وعلى ظهر كل بغل توجد جارية حسناء ، وكان جملة الأحمال ما يعادل مائة الف دينار نقداً ، وقد قوم بعض حذاق التجار هدايا الأميرة ، فقدرت بما يزيد على المليون دينار ، «وهذا مالم يرقط لامرأة قبلها بافريقية ، ثم زفت العروس ، ومضى بين يديها العبيد ، ووجوه رجال الدولة (١) .

ونستشف مما سبق بعض الملامح التى لم يشهد التاريخ مثيلا لها فى أى أسرة حاكمة فى المغرب ، كما نلاحظ تقليد أمراء بنى زيرى للخلفاء الفاطميين فى البذخ، وساعدهم الرخاء الاقتصادى لافريقية على اشباع هذا الميل (٢) .

وكان من الطبيعى أن تكون احتفالات الزواج فى الدولة الحمادية على جانب كبير من البذخ والاسراف وبالذات أمراء هذه الدولة ، فعند ما تم الصلح بين تميم بن المعز وابن عمه الناصر بن علناس سنة ٤٧٠ هـ/ ١٠٧٧م زوّجه إبنته «بلارة» ، وجهزها إليه من المهدية فى عساكر عظيمة ومال وأسباب ، وذخائر(٣) ، وبلغ مهر بلارة ثلاثين الف دينار ذهباً ، فأخذ والدها منه ديناراً واحداً ورد الباقى(٤) .

ومن بين الاحتفالات الفاطمية التى أرسى الخليفة المعز لدين الله قواعدها فى بلاد المغرب ، احتفالات الختان ، ففى سنة ٣٥١ هـ/٩٦٢ م كتب المعز لدين الله إلى عماله بالمغرب من برقة شرقا إلى سجلماسة غرباً ، ومن صقلية شمالاً إلى بوابات السوادان فى الصحراء جنوبا أن يسجلوا الأطفال الذين فى أعمالهم على اختلاف

---

(١) ابن عذارى : البيان /٣٩٤ ، جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى، /٢٤٥ .

(٢) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق /٢١٦ .

(٣) ابن عذارى : البيان ١/ ٤٣٠ .

(٤) عمر رضا كحاله : أعلام النساء ، بيروت ، ١٩٧٧، ١/ ١٤٠، عفيفى محمود ابراهيم : مظاهر الحضارة فى بلاد المغرب /٢٥٣ ، ٢٥٤ .

طبقاتهم وديانتهم ليختتنوا مع أولاده الثلاثة : عبد الله ونزار (العزيز) وعقيل(١) ، كما أصدر أوامره أيضا بارسال الأموال اللازمة للانفاق على عملية الختان وما يصاحبها من الخلع والهدايا على هؤلاء الصغار وأولياء أمورهم (٢) .

وكان من جملة ما انفق فى ذلك مما حمل إلى جزيرة صقلية وحدها من المال سوى الخلع والثياب خمسون حملاً من الدنانير ، كل حمل عشرة آلاف دينار(٣) ، كما أرسل مثل هذا المبلغ إلى كل عامل من عمال الدولة الفاطمية ، وابتدئ الختان فى أول ربيع الأول سنة ٣٥١ هـ الذى كان يوافق موسم الربيع حيث امتد من ٩ أبريل إلى ٨ مايو سنة ٩٦٢م ، وبدأ الختان بطهور أولاد الخليفة، ثم سمح لبقية الصبيان من سائر الطبقات ، واستغرق الاشراف على هذا الاحتفال الكثير من وقت المعز الذى كان يجلس لاستعراض صغار المتطهرين ، من وقت الضحى حيث يمرون بين يديه فيصيبون من الكساء والصلات جميعا حسب طبقاتهم ، وكان متوسط ما يعطى لكل صبى من أهل الحاضرة غير الكسوة من مائتى درهم إلى مائة وخمسين درهماً أما أقل ما أعطى لصبيان أهل البادية فهو عشرة دراهم(٤) .

وينقل لنا القاضى النعمان(٥) طريقة الاحتفال بالختان الجماعى كما شاهده بنفسه فى المنصورية عاصمة الدولة الفاطمية بالمغرب - بقوله : «.. والختانون فى السرادقات على الكراسى ، وبين أيديهم المنابر لجلوس الصبيان ، والقوم يمسكونهم فى حجورهم ، ويذرون الذرارات الممسكة للدم على ختاناتهم ، ويقفون فى البخور وماء الورد على رؤوسهم ، ويرشونهم على وجوههم لما يعتريهم من الروع ،

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ٢٦/ ورقة ٣٨ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ٩٤/١ ، ٩٥ (طبعة ١٩٦٧) .
(٢) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٥٥٦ .
(٣) الرشيد بن الزبير : الذخائر والتحف /١٢٤ ، ١٢٥ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ٩٥/١ .
(٤) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات /٥٥٧ .
(٥) نفس المصدر / ٥٥٧ .

والسند (١) بأصناف الملاعب قيام عليهم يلهونهم ويصحبون من طهر منهم يزفون به إلى منزله» .

وتشير الأرقام التى أوردها المؤرخون عن أعداد الأطفال الذين تم ختانهم فى هذا الشهر ، كان عدداً كبيراً ، حيث يتراوح المتوسط اليومى بالحاضرة ما بين خمسة آلاف وعشرة آلاف طفل(٢) ، وأما صقلية فختن من أهلها وحدها خمسة عشر الف صبى(٣) ، ويبدو أن هذه الأرقام مبالغاً فيها .

وهكذا بدأ الخليفة المعز لدين الله ارساء قواعد الاحتفالات والرسوم الفاطمية بهذا الاحتفال الشعبى الكبير الذى طال أمده شهراً كاملاً ، وكانت أيامه «أيام أعياد ومسرات وأفراح بكل وجه وجهة من مملكة أمير المؤمنين من بدو وحضر .. وكان أثر جميل لم يسبقه إليه (صع) أحد قبله(٤) » ويرجح أحد الباحثين أن مرامى المعز من ذلك العيد كانت أبعد من مظاهر الاحتفال التى صاحبته ، ويقصد منها كسب قلوب الرعية المغربية بالترغيب ، ومقدمة للحفاظ على وحدة الدولة عندما يتهيأ لها تحقيق أملها فى الهيمنة على المشرق بفتح مصر(٥) .

على أن حفلات الختان الجماعى التى استنها الخليفة المعز وأرسى قواعدها فى بلاد المغرب ، أصبحت تقليداً فى كثير من دول الاسلام والتى ورثتها الدولة الزيرية تركة أبويه ، ومن الطريف هنا أن المعز بن باديس ختن وهو أمير صغير فى ذى

---

(١) السند : لعلهم جماعة من الغز أو الغجر يقومون بالألعاب المضحكة وما شابهها من أمور الترفيه . (القاضى النعمان : المجالس /٥٥٧ ، حاشية رقم «١») .

(٢) القاضى النعمان : المجالس/٥٥٧ ، راجع : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب ، ٣/٢٤٤.

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ١/٩٥ .

(٤) القاضى النعمان : المجالس /٥٥٨ .

(٥) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب ٣/٢٤٤ ، ٢٤٥ .

الحجة سنة ٤٠٧ هـ / مايو ١٠١٦ م ، وختن معه من أبناء الضعفاء عدة كثيرة ، واعطوا الكساء والنفقه (١) ، ومن المرجح أن تلك العادة (عادة الختان الجماعى) قد انتقلت من بلاد المغرب مع الخلفاء الفاطميين إلى مصر ، حيث كانت رسائل التهانى بالختان فى العصر الفاطمى من التقاليد المتبعة ، وتشير إلى أن الختان من شروط الايمان الصحيح ، وما تفرضه الشريعة الاسلامية(٢) ، هذا فضلاً أن عادة الاحتفال بالختان الجماعى تتضح فى القرى المصرية حتى الآن وخاصة بين طبقات الأعيان وتقام الاحتفالات بهذه المناسبة ، ويبدو أن ما يجرى من الختان فى الموالد التى تقام فى احتفالات الطرق الصوفية امتداداً لهذه العادة التى استنها الخليفة المعز فى بلاد المغرب .

حرص الفاطميون على أن يسبغوا على مواكبهم مظاهر الأبهه والفخامة ، وكانت هذه المواكب تتبع رسوما دقيقة ، وكان من هذه المواكب ما يطلق عليه المواكب العظام وتشمل مواكب أول العام الهجرى ، وأول رمضان والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والأضحى ، وجبر الخليج(٣) ، وينقل المقريزى وصفاً شيقاً عن موكب الخليفة الظاهر فى شوال سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤م لصلاة الجمعة ، حيث ركب الخليفة فى عساكره وبين يديه فيل وزرافات وبنود مذهبه بالقصب والفضة ، والطبول تضرب ، والجنائب تقاد أمامه وجميع قواد الأتراك والمصطنعة فى السلاح ، وعليه ثوب خز بعمامة مثله ، وفى يده القضيب (٤) وعليه السيف والرمح ،

---

(١) الدويرى : نهاية الأرب (القسم الخاص بالمغرب) ، تحقيق مصطفى أبو ضيف / الرباط /٣٣٨ نقلاً عن د.سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ، ٣/٤١١ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ٩/٧٤ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ٣/٥٠ وما بعدها ، ابن تغرى بردى : النجوم ٤/٧٠ .

(٤) قضيب الملك من أهم شارات الخلافة ، وهو عود طوله شبر ونصف مرصع بالدرر والجوهر . (المقريزى : الخطط ٢/٢٨٠) .

وعلى رأسه المظلة المذهبة وبين يديه الخدم السودان ، وعليه أصناف المذهبات(١) .

وعن موكب الخليفه المستنصر فى الاحتفال بفتح الخليج (وفاء النيل) ، نكتفى بذكر ما قاله ناصر خسرو (٢) وهو شاهد عيان : « ... وهذا اليوم من أعظم الأعياد فى مصر » ، ويخرج الخليفة فى هذا اليوم فى موكب حافل ، وقد ارتدى ثوباً من حرير مرقوم بالذهب يقال له بدنة (٣) ، وحوله الأساتذة المحنكون ، ويسير فى ركاب الخليفة عشرة آلاف فارس على خيولهم سروج مذهبة وأطواق وألجمة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى والبوقلمون التى نسجت لهذا الغرض ، ويتبع هذا الموكب الخلافى جمال كثيرة عليها هوادج مزينة ، وبغال هوادجها مرصعة بالذهب والجواهر ، وموشاة باللؤلؤ ، كما تشارك فرق الجيش الفاطمى فى هذا الحفل الكبير(٤) ، هذا فضلاً عن الموظفين على اختلاف مراتبهم ، والشعراء والعلماء والأمراء من المغرب واليمن ، ومن كل حدب وصوب(٥) .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ٢/١٦١ .

(٢) ناصر خسرو : سفر نامه /٥٢ .

(٣) البدنة تكون فوق الملابس مثل العباءة ، ووصفها ناصر خسرو كما رآها على الخليفة المستنصر بأنها فضفاضة كالتى تلبس فى بلاد المغرب ، ويروى القلقشندى أن ولاة الأقاليم فى عهد الدولة الفاطمية كان يخلع عليهم عند التعيين «من خزانة الكسوة بالبدنة وهو النوع الذى يلبسه الخليفة فى فتح الخليج » (صبح الأعشى ٣/٤٩٤) ، ومن المستبعد أن تكون البدنة التى تخلع على والى الاقليم قيمتها عشرة آلاف دينار مثل بدنة الخليفة (عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى ٢٩١ ، حاشية رقم ٦٢) ، وكانت البدنة لباساً شعبياً فى القرن الرابع الهجرى ، ويصفها دوزى بأنها صديرى قصير بغير أكمام يصنع من الكتان أو الحرير (راجع أوراق البردى ٥/١٥٤) .
Dozy : Suppl., I, P, 58, Vet, P 51 .

(٤) ناصر خسرو : سفر نامه /٥٢ .

(٥) نفس المصدر / ٥٣ .

أما الخليفة المستنصر فكان شاباً كامل الجسم ، حليق شعر الرأس يركب على بغلة عارية من كل ما يزينها ، وقد ارتدى قميصاً أبيض عليه فوطة فضفاضة كالتى تلبس فى بلاد المغرب ، ويبدو واضحاً التأثير المغربى فى ملابس الخلفاء الفاطميين الذى نقله الخليفة المعز من بلاد المغرب ، وجرى عليه بقية الخلفاء فى زيهم ، ويستطرد ناصر خسرو فى وصف هيئة الخليفة المستنصر فيذكر أنه كان على رأسه عمامة من لون القميص ، ويمسك بيده سوطاً ثميناً ، ويسير إلى جانبه حامل المظلة راكباً حصانا ، وعلى رأسه عمامة مذهبة مرصعة ، ويحف به خصيان يطلقون البخور على جانبى الطريق ، حتى إذا وصل إلى السرادق المقام عند فم الخليج سجد له الناس إكباراً وإجلالاً [1] .

وينتهى الموكب الخلافى عند شاطئ النيل ، فيدخل إلى السرادق العظيم الذى يعرف بالقاتول[2] ، ويجلس على الحشية المعدة له فوق سرير الملك ، ويجلس الوزير على كرسى مخصص له ، ويقف كبار رجال الدولة فى صفين من سرير الملك إلى باب السرادق ، وقراء الحضرة يبدءون بتلاوة القرآن الكريم ، ثم يلقى الشعراء قصائدهم[3] ، وبعد ذلك يغادر الخليفة السرادق بصحبة الوزير إلى منظرة السكرة التى كانت تطل على الخليج ، بينما يبقى كبار رجال الدولة فى سرادقهم ويطل من المنظرة

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه . /٥٤ ، ٥٥ .

(٢) سميت الخيمة بالقاتول لأن فراشاً سقط من أعلى عمودها فمات فسميت بذلك . (المقريزى : الخطط ١/٤٧٧) .

(٣) ناصر خسرو : سفر نامه / ٥٣ ، المقريزى : الخطط ١/٤٧٨ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية /٦٦٩ ، عبد المنعم سلطان : المجتمع المصرى /١٨٧ ، ويذكر عمارة اليمنى فى ديوانه أشعاراً فى هذه المناسبة يمدح فيها الخليفة العاضد :

شرفت أمير المؤمنين مواسم ... أضحت تؤرخ باسمكم وتسطر

وأجلها يوم الخليج فانه ... من بينها يوم أغر مشهر

(راجع : النكت العصرية ١/٢٢٣)

أحد الأساتذة المحنكين إيذانا بايصال أمر الخليفة بفتح الخليج ، ومن ثم ينطلق الناس يعملون فى هذا السد بمعاولهم ، فينساب الماء ، ويهرع الناس إلى زوارقهم فرحين جزلين ، ومن الطريف أن ناصر خسرو يذكر أثناء مشاهدته لهذا الحفل الكبير أن أول زورق ينزل الخليج كان يحمل جماعة من الصم والبكم ، ويعلل ذلك بالتفاؤل ، وكان الخليفة يجرى عليهم صدقاته (١) .

وهكذا اتخذت الدولة الفاطمية من الأعياد والمواكب والأسمطة سبيلاً للدعاية ، واكتساب الناس ، ورغبة الخلفاء فى الظهور بمظهر الترف والعظمة من ناحية ، والقوة والرهبة لأعدائهم من ناحية أخرى ، وكانت أيام خير على الشعب المصرى «تتسع بها أحوال الرعية وتكثر نعمهم» (٢) .

أما عن المواكب فى بلاد المغرب ، فقد بالغ أمراء بنى زيرى فى رسمها ، وتعددت مناسباتها كتقليد للخلفاء الفاطميين من ناحية ، ومظهر من مظاهر القوة والارهاب من ناحية أخرى ، ويذكر ابن عذارى أن أبا الفتح المنصور بن بلكين خرج سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م فى العيد إلى مسجد رقادة على حصان سرجه مكلل بالدر والياقوت وهو يرتدى أحسن زى فى موكب يحفه خلق عظيم(٣) ، وتكررت هذه المواكب بانتظام فى عهد المنصور وخلفائه باديس والمعز ، وكانت مصحوبة باستعراضات بها من الغرابة والطرافة ما يؤثر فى خيال الشعب(٤) ، وعندما وصل

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه /٥٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ١/٤٩٠ .

(٣) ابن عذارى : البيان ١/٣٤٤ .

(٤) جورج مارسيه : بلاد المغرب / ٢١٣ .

الأمير باديس إلى مدينة المهدية قادماً من سوسة «لعبت المراكب بين يديه ورمى النفاطون بالنفط» (١) .

كان من عادة أمراء بنى زيرى أن يستقبلوا السفارات الرسمية للدولة الفاطمية فى مواكب جليلة ، تلك السفارات التى كانت تشتمل على الهدايا والسجلات والألقاب الشرفية ، فى سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م وصل إلى المهدية مركباً فيه هدية جليلة إلى نصير الدولة باديس وإلى ولى عهده عزيز الدولة منصور ، فخرج لاستقبالها المنصور بن باديس فى موكب حافل مع أهل القيروان على قصر الماء بالبنود والطبول(٢) .

لما توفت أم المعز بن باديس فى سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١م شيعت الجنازة فى موكب مهيب ، ووضع الجثمان فى داخل تابوت من العود الهندى مرصعاً بالجوهر وصفائح الذهب ، وسمر التابوت بمسامير الذهب ، وزنها الف مثقال ، وادرجت فى مائة وعشرين ثوباً ، ذر عليها المسك والكافور مالاحد له ، وقلد التابوت باحدى وعشرين سبحة من نفس الجوهر ، وأمر المعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر والف شاه فنحرت ووزعها على الناس ، وفرق فى مأتمها على النساء عشرة آلاف دينار ، وكان جملة ما أنفقه المعز مائة الف دينار لجنازة أمه (٣) .

---

(١) ابن أبى دينار : المؤنس / ٨٠ ، انظر : عفيفى محمود : مظاهر الحضارة فى بلاد المغرب / ٢٥٤
(٢) ابن عذارى : البيان ١/٣٧٣ .
(٣) ابن عذارى : البيان ١/٣٧٣ .

وفى سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م خـرج المعز بن باديس فى مـوكب مـهـيب ، وفى أحسن زى إلى ظاهر مدينة القيروان ، « وأخرجت السباع بين يديه فأفلت منها سبع ، فانهزم الناس أمامه ، ووقع بعضهم على بعض فمات منهم نحو المائتين » (١) .

يتضح من الوصف السابق مظاهر الترف والبذخ فى مواكب بنى زيرى التى إن دلت على شيئ فانما تدل على ضخامة الدولة وعلى الثراء العريض التى كانت تتمتع به الدولة الزيرية ، والتى لاتختلف إلا اختلافاً يسيراً عما كان الحال عليه فى مصر(٢)، يتجلى ذلك من قول ابن خلدون (٣) : « واستمر ملك المعز بافريقية والقيروان ، وكان أضخم ملك عرف للبربر بافريقية وأترفه » .

كان من الطبيعى أن يهتم أمراء الدولة المرابطية بالمواكب واستعراض الجيوش ، بعد أن أصبحـت الدولـة المرابطية قـوة يخشى جانبـهـا فى المجـتمع المغربى فى القـرن الخـامس الـهـجـرى ، فى سنـــة ٥٣٨ هـ/١١٤٣م قـام الأمـيـر المرابطى تاشفين بـن على باستعراض جيوشه التى تجمعت فى مدينة تلمسان ، وعجب الناس من كثـــرة عَـــددهم وعِـــددهم ، واحتفالهم فى الزينـــة حتى زعموا أنهم « لم يروا مثـل تلـك الجـيوش حسنـــا وجمـالا وعـدة وكمالا » (٤) .

كذلك كان خلفاء الموحدين يخرجون لصلاة العيد فى موكب كبير يضم كبار رجال الدولة ، وعند استعراض الجيوش كان يجلس الخليفة عبد المؤمن بن على فى مكان يطل على ساحة الاستعراض ويجعل العساكر تمر عليه قبيلة تلو قبيلة وكتيبة اثر كتيبة ، وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية ، هذا فضلا

---

(١) ابن عذارى البيان ٤٠٢/١ .
(٢) ارشيبالد لويس : القوى البحرية / ٣٢٩ ، جوليان : تاريخ افريقيا / ٩٢ .
(٣) ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ، القسم الثانى / ٣٢٤ .
(٤) مؤلف مجهول : الحلل الموشية / ١٣١ .

عن الطبول الكبيرة التى يخيل لسامعها إذا ضربت اهتزت لها الأرض(١) .

لما احتفل الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ / ١١٦٢ ـ ١١٨٤م) بمقدم أخيه أبى حفص بن عبد المؤمن فى مراكش ، خرج فى موكب حافل بعد أن جمع الكتائب ، وكسا العبيد بالثياب الملونة ، واصطفت الفرسان بالدروع والرجال بالدرق والرماح ، وجعل الرايات والعلامات خلف ركابه ، والطبول مع خاصة أصحابه ، وقد ظهر الخليفة وهو راكبا على جواده ووزيره ماشيا بجانبه ، وتجولت الخيل من فرسان العساكر بالجرى واللعب والدفاع بالحملات والكرات ، والطبول تضرب من صحوة النهار إلى آذان الظهر وأظهر الخليفة من ركوبه وفروسيته أمراً عجباً (٢) .

وهكذا يتضح الأثر المشرقى فى مواكب الموحدين سواء فى التأثيرات الهلالية مثل الكر والفر ، والطبول الكبيرة ، أو الفخامة التى أحاط الخلفاء بها أنفسهم كتقليد من تقاليد أمراء بنى زيرى وبنى حماد (٣) .

والتى انتقلت إليهم هذه المظاهر بدورها من القاهرة ، فالمعارك الحربية التى خاضها الموحدون وجعلت منهم حكاماً لافريقية والمغرب ، وضعت أمام أعينهم المبانى الفاطمية والصنهاجية ذات التأثيرات المشرقية ، وظهر واضحا أكثر من علامة لأثر القيروان والقاهرة فى مبانى الموحدين ، ثم تضاعف الاقتباس والتأثير المشرقى فى

---

(١) المراكشى : المعجب / ٣٠٣

(٢) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة / ٢٨٩ .

(٣) المراكشى : المعجب . ٣٠١ ، ٣٠٢
يذكر المراكشى أن عبد المؤمن بن على ركب إلى بجاية والأمير الحمادى يحيى بن العزيز يمشى بين يديه راجلاً ، وقد علاه الغبار ، فاستدعاه وذكّره بمتنزهاته وعبيده ، وسوء معاملتهم لعبد المؤمن ، وقال له : « ولتذكر وتنظر كيف تقلب الأيام بأهلها » .
(نفس المصدر والصفحات) .

بعض عاداتهم بفضل الهجرة الهلالية (١) .

وصفوة القول أن دول المغرب رغم أنها بربرية لحماً ودماً ألا أن كثيراً من التأثيرات المصرية عرفت طريقها إليها مما يؤكد عمق الصلات الاجتماعية بين مصر ودول المغرب .

(١) جورج مارسيه : بلاد المغرب / ٢١٦ .

الملاحق

ملحق رقم (١)

انفصال المعز بن باديس كما ورد في السجل الخامس من السجلات المستنصرية

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين

من عبد الله ووليه : معد أبى تميم المستنصر بالله أمير المؤمنين ، إلى سيف الامام ، المظفر فى الدين ، نظام المؤمنين على بن محمد الصليحى .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين وسلم تسليماً ....

.. وقد كان انتهى إليك من حضرة أمير المؤمنين خبر ابن باديس اللعين فى التياث أموره عليه لما أصبح جسم طاعته للدولة ملتاثاً ، وانتكاث مرائر سعادته لما ثبت عهدها ، فكان كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، وأن أمير المؤمنين رماه من كنانة رأيه بنبال أصابت مقاتله ، وضربه بنصال بتت مفاصله ، وأطلق نحوه من أعنة قبائل الرياحية والزغبية من منعه أن يبل ريقاً وسد لأنفاسه طريقا ، ورمى به فى أسر حصار لايكاد يكون منه طليقاً ، وملك جميع دياره التى كان بها يدل ، ونال منه النيل الذى هو على وشك بواره باذن الله تعالى يدل ، وسير الأمير ، أمين الدولة ومكينها ـ حسن بن على ـ بوصلهم إلى أعمال إفريقية ليؤلف بين قلوب العرب المقدم ذكرهم على الطاعة تأليفاً يذعن له جموحهم ، ويمنعهم من أن يتنازعوا فيفشلوا

وتذهب ريحهم ، ولتكون كلمتهم على استئصال الكفر للنعمة متفقة ، وآراؤهم فيما يؤدى إلى كشف الغمة بمكانه موفقه ، ولما كان فى هذا الوقت ورد كتاب إلى حضرة أمير المؤمنين بذكر تصبحه فى وجهته بوجه الاقبال ، وفوزه فى نهضته ببلوغ الآمال ، وأنه لم يذر غلاً فى الصدور إلا نزعه ، ولا شملا من صلاح الجمهور إلا جمعه ، وأن أصناف العرب دانت له دين الامم لربها ودارت على قضايا أمره ونهيه دور الرحى على قطبها ، وأنه سار فيهم بجيش يغض بهم البر ، وجحافل كأنهم فى صفحات البر والبحر وبنود أمير المؤمنين طلت على رأسه من النصر غماماً ، وطلعة أعلامه أرته من طوالع السعد ، حتى أحدقوا بحصن الخائن الذى لايكاد بأس الله يحصنه ، ولا من أخذه الأليم يؤمنه فأطل عليهم طلال من يجد فى قلبه من وقع سيف المنايا رجيفا ، ومن وقوع سهامها حفيفاً ، وخرج إليه ابن بلكين صهره على أخته وابن يلمو الذى هو فى مقدم قومه ، وابن حماد الذى هو صاحب قلعة كتامة مستأمنين ويعفو أمير المؤمنين لائذين وعلى بابه ترسل فى مثله صنهاجة وافدين ، ثم فتح حصن قابس ، وأقام على منابره الدعوة النبوية ، وصرف العين والورق على السكة المستنصرية ، وولى عليه ابن يلمو المذكور ، وسار بالباقين إلى الباب ، وأنه لم يبق فى حصون البحر وضواحى البر ، ألا ما ألقى الله إلى أمير المؤمنين مقاليده ، ومكن منه أنصاره وعبيده ، واطلع فيه من سعادة النداء بشعاره نجوماً ـ جعلها للشياطين رجوماً ، واستصحب من مشايخ تلك الأعمال قوماً رغبوا فى الشرف بالهجرة إلى الحضرة والمشافهة بالشكر والدعاء لما نجاهم الله تعالى منه من الغمرة ، وكشف عن وجوههم باضلال ذلك الخائن من الحيرة ، والتماس تدبير أمورهم مما يؤذن بتمام صلاحها ، وبعد أن كساهم الله برحمته رونقاً ، ونفى عن مشاربهم بحمد الله رنقاً فديارهم بالمسار مشمولة ، وعراصهم بالتهانى مأهولة ، وهو وارد قريب المسافة وصحبته خلق من الحجيج بذكر أنهم لايطئون للبدو والحضر الا موطئ الطاعة موطئاً ، ولا يصادقن إلا مذعنا ، ولصفقته معطياً ، وأنه خلف ابن باديس

اللعين محصوراً فى منفاه من الأرض ، محصولا على شفا جرف الأخذ والقبض ، قد فغر الردى له فمه ، ولن يبعد بعون الله أن يلتقمه ، وأمير المؤمنين يسأل الله جلت عظمته معونته على شكر نعمه التى عن القيام بواجب أقلها محصور ، ولسانه عن الوفاء بأيسره مقصور ، ويقول : « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، ان ربنا لغفور شكور» .

أعلمك أمير المؤنين نبأ هذه العارفة الطارئة لتنشره على المنابر ، وتذيعه فى البوادى والحواضر ، ان شاء الله تعالى . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب في شهر رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة

ـ السجلات المستنصرية ، السجل الخامس . / ٤٢ ، ٤٥ .

ملحق رقم (٢)

« غلاف مصحف أهداه الأمير الزيري المعز بن باديس للمسجد الجامع في القيروان وعليه خط بيده السطور الآتية :

« يقول عبد الله وحبيبه المعز لدينه : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (ﷺ) ، وأن أحسن الرجال بعد رسول الله هو أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على (رضى الله عنهم جميعاً) . ياالهى إلعن بنى عبيد أعداؤك وأعداء رسولك، ليجعلنا الله نستفيد من الحقد الذى نكنه لهم ، لقد أوقفت هذا المصحف لصالح المسجد الجامع فى القيروان بعمل مشكور ، فى نظر الله العظيم ، سبحان الله » .

المعز بن باديس

---

(١) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامى فى العصور الوسطى / ١٩٥

ملحق رقم (٣)

الوزير الأجل الأوحد المكين سيد الوزراء تاج الأصفياء قاضي القضاه وداعي الدعاه علم المجد خاصة أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري (١) .

« .. قرىء سجله بالوزارة وذلك في سابع محرم سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة، وخلع عليه الألقاب التي تقدم ذكرها ثم زيد فى نعوته « الناصر للدين غياث المسلمين » ، وجعل ذلك أول النعوت ، وعوض به « خاصة أمير المؤمنين » ، «خليل أمير المؤمنين» .

ونظر في الوزراة فنهض ، وكان يبدأ باسمه في عنوانات الكتب ، ووفاه ملوك الأطراف في المكاتبة حقه من الرئاسة ، ماخلا المعز بن باديس الصنهاجي ، فانه قصر به في المكاتبة عما كان يكاتب به من تقدمه من الوزراء ، فكان يكاتب كلا منهم بعبده فجعل يكاتبه بصنيعته ، فاستدعى نائبه وعتبه عنده عتبا جميلا ، فكاتبه النائب فما رجع ، فتوصل اليازوري إلي أخذ سكينة من دواته ، ودعي النائب فقال له: قد تلطفنا فى أخذ السكين ولو شئنا لتلطفنا في ذبحه بها ، ودفعها إليه فانفذها ، وكتب بذلك ، فأطلق لسانه فيه ، فدس إليه من أخذ نعله ، فلما وصلت أحضر النائب فأعلمه ما ينتهى إليه من جهله وقال : اكتب إلى هذا البربرى ، وقل له : إن عقلت وأحسنت أدبك ، وإلا جعلنا تأديبك بهذه ، فكتب إليه فجرى على عادته فى هجر القول .

فبعث إلى زغبة ورياح خلعاً سنية وانعاماً كثيراً ، وعقد بينهما صلحاً ، وحملهما على منابذته ، وأباحهما دياره ، فضيقوا خناقه إلى أن أشرف على التلاف وأعمل الحيلة حتى تخلص من القيروان ، ووصل إلى المهدية ، وأسلم حرمه وداره وغلمانه ، فقُتل الرجال وسُبى النسوان ، ونهب ما كان فى داره ، ووصل كثير من المنهوب من الأسلحة والعدد والألات والخيام إلى المعزية القاهرة » .

---

(١) ابن الصيرفى : القانون فى ديوان الرسائل والاشارة إلى من نال الوزارة /٧٣، ٧٧ .

ملحق رقم (٤)

قصيدة نصر البيزيين — Caremen in victoriam pisanorum

بينما كان الروم ينظرون إلى وفرة الغنائم — Et Cum starent ad videndum donorum potentiam

إذ بالقبائل العربية (الهلالية) تدخل زويلة — Ecce gentes Arrabites intrarunt Sibiliam

ويجرى مشاتها هنا وهناك بسرعة مذهلة

Leves multum supra modum cum discurrunt pedites

يحارب فرسانهم بسرعة تفوق سرعة الريح الشرقية

Euro vento Leviores cum bellantur equites

كانوا مهرة محنكين فى النظر إلى الوراء أثناء فرهم

Docti retro et astuti Fugando respicere

وهم أثناء فرهم أسرع من قتل أعدائهم

Valent melius in fuga hostes interficere,

Cowdrey, H.H.. E.J., " The Mahdia campaign of 1087 " , in English Histoorical Review , Vol, 362, jan. 1977, p. 28

الدكتور أمين الطيبى : بنو هلال ودورهم فى الجهاد فى افريقيا والأندلس ، مجلة البحوث التاريخية، السنة السابعة العدد الأول يناير ١٩٨٥ / ٩٩، ١٠٠

انهم أسرع من كافة البشر فى الالتفاف فى دوائر

Leviores super omnes gentes in giro volubilis

ممتطين خيولا ضامرة يوجهونها بأجسامهم

Macris equis insidentes corporibus ductiles

احتل مائة الف من هؤلاء البواسل زويلة

Et istorum tam valentium iam centena milia

المدينة التى أخلاها البيزيون

Urbs relicta a pisanis tnebant subilia

وتدفق هؤلاء العرب نحو الساحل وملأوا الشاطىء

Ripa maris inisitentes et implentes litora

وأقعوا هزيمة ببقية البيزيين الذين كانوا يحرسون المرسى

Turbant relipuos pisanos servantes navilia

ملحق رقم (٥)

« مقتطفات من رسائل جنيزة القاهرة »

(١)

رسالة من أواخر القرن الحادى عشر الميلادى مرسلة إلى أبى الفرج نسيم الرقّى من أحد أقربائه سليمان بن ابراهيم الرقى بالفسطاط وفى الرسالة معلومات عن أسعار سلع مغربية بالفسطاط ، وفيما يلى فقرات من الرسالة :

« الأعمال هنا ضعيفة ، وتكاد تكون متوقفة ، إذ ثمة بلبلة كبرى فى أسعار الصرف، وفى هذا الوقت حوالى ٥٠ درهما للدينار الواحد ، الوباء متفش كثيراً فى جهات المدينة ، وبسببه انقطع وصول الدراهم الجيدة ، وكل واحد يواجه صعوبات فى أعماله التجارية ، أما بالنسبة للسلع من المغرب فإن القماش الأشقر « شقرة » يساوى ٤ دينار على الأكثر ، والأصناف الأخرى أقل من ٤ ، الفوط غير المقصرة ٧ دينار (للعشرة) ، وأما الفوط الحمراء فليس عليها طلب ... الملاحف سوقها راكدة .. الزيت يباع ٢٥ رطلاً بدينار ، لذلك فقد أمسكت عن بيع زيتى ، أملا فى أن يتحسن الوضع قليلاً .. كلمت أبا سعد عن الأقمشة التى أحضرتها من المغرب فقال إنه أوصى باحضارها إلى هنا (الفسطاط) ... ارجو ارسال هذه الأقمشة إذا وجد من ينقلها .. جباب الخز لا تسوى شيئا فالجبة تباع بأقل من أربعة دنانير ، الرجاء اعلام ابى الحسن بذلك ... وأرجو اخبار أبى الحسن الشامى أن لاينتقل بزيته ، فسوف يندم إن هو فعل ، وقد أخبرنى سيدى أبو سعد أن أبا البشر باع حريره للدولة وقبض الثمن ، ولم أشأ أن أسأله عن المبلغ الذى قبضه ، سأبيع ماعندى لأننى لا أعتقد أن ثمة أملاً كبيراً فى

Gotein,S.D: Letters of Medieval Jewish Traders, princeton University press, 1973, pp. 240 - 241

، انظر : أمين توفيق الطيبى : جوانب من النشاط الأقتصادى فى المغرب / ٤٦٣ ، ٤٦٤.

تحسن السعر » ...تركت جبتى من القطن التى أرتديها عادة فوق ردائى الفاختى ، وفى جيبها شهادة الضريبة (الجزية) .. فأرجو ارسال الشهادة فور قراءتك للخطاب ، لأننى سلمت كفالة عنها إلى حين وصولها .. الرجاء الكتابة لى بالتفصيل عن سعر الزيت عندكم ، وعن الأوضاع ، فاننى قلق جدا ... وابحث لى عن ميعة لأننى لم أجدها فى الرزمة .

(٢)

رسالة من اسحاق النيسابورى بالاسكندرية إلى أبى العلاء صاعد يوسف الدمشقى بالفسطاط فى حدود سنة ١١١٩م وفيها يتحدث عن تعطيل الملاحة من الأندلس ، وأثر ذلك على أسعار الحرير الأندلسى فى السوق كما يتحدث عن أسعار المرجان فيقول :

« أما بالنسبة للحرير ، فإنه عند وصول المركب الأندلسى ، توقفت الأعمال التجارية فلم يشتر أحد ولم يبع أحد .. وبعد ذلك بأيام بيعت كميات قليلة ب٢١ ـ ٢٢ دينار لكل عشرة أرطال ، ولما تأخر وصول جميع المراكب رغب التجار فى الشراء، إلا أن من كان عندهم حريرا احتفظوا به ، وقد انقضى اليوم ٣٣ يوما لم يصل فيه سوى مركب واحد ،ولم يقلع سوى مركب واحد ، يسود قلق واضطرب كبيران بشأن المراكب ، واليوم بيننا وبين عيد الصليب ٢٣ يوماً ، ولم يصل مركب واحد من المغرب ، كما لم تصل أية أخبار . الريح غير موافقة ، فهى لا شرقية ولا غربية ، وفى هذا اليوم دفع ٢٣ ديناراً ثمناً للحرير الخشن . لم يبق أحد ولن يبيع أحد إلى أن يعرف ما سيحدث » .

« مرجان تراب (غير منظوم) يباع اليوم فى الصنعة بمبلغ ١١٫٥ دينار ، ويبع بعضه حتى بثمانية دنانير ، بينما ما عندى من مرجان يسوى ٢٠ دينار ، وإلى الآن لم يصل شىء من المرجان لا من بلاد الروم ولا من المغرب » .

(٣)

رسالة من أبى سعيد بن أبى الحسن الأبزارى فى بلرم إلى أخيه أبى البركات فى الفسطاط فى حدود سنة ١١٤٠م ، والرسالة تبين مانجم عن هجمات أسطول النورمان على ساحل إفريقية وبخاصة بعد أخذ النورمان لجزيرة جربة سنة ١١٣٥م يقول : « .

« ... صدموا وقلبوا مركب اللقنتى ◦◦ ووقعت السيف ... ودخلت صقلية مع أسرتى قادماً من مدينة تونس بسبب الحرمان والفاقة هناك والأهوال التى حلت بافريقية ... وكان هدفى التوجه إلى مصرعن طريق صقلية ، إذ لم يعد من الممكن السفر إلى مصر من افريقية مباشرة ... وفى الطريق إلى صقلية ، حلت بنا كارثة لم أشهد مثلها قط ، فقد هبت عاصفة واضطررنا إلى النزول إلى البر فى جزيرة صغيرة اسمها قمور ، حيث أمضينا عشرين يوما و لم نجد مانأكله غير « الحريق » ولما تركنا الجزيرة تمنتنا البحار مدة ٣٥ يوما وكدنا نهلك ، فقد تركنا الجزيرة فى أربعة قوارب ، لم يصل سالماً منها سوى قاربنا ، ولما وصلنا صقلية منهكى القوى ، بحيث لم نستطع أن نأكل الخبز أو أن نفهم ما يقال لمدة شهر وهذا منعنى من المجىء إلى مصر هذا العام ... وليس الخبر كالعيان .. اكتب لى عن الجزية » .

وإذا أردت الانتقال فأفضل شىء المجيىء إلى صقلية إذ أن توابل الشرق رائجة هنا، ولذلك فان رحلتك ستكون نزاها وتجارة » .

Goitein: Letters of Medieval Jewish, p . 324

أمين توفيق الطيبى : جوانب من النشاط الاقتصادى فى المغرب / ٤٧٠ ، ٤٧١ .

(٤)

رسالة من ابراهيم بن يجو فى عدن إلى أخيه فى المهدية ، مؤرخة فى منتصف شهر سبتمبر عام ١١٤٩م ، وكان صاحب هذه الرسالة المؤثرة قد فارق أهله فى المهدية منذ سنوات ، وفى الرسالة يعبر عن قلقه الشديد بشأن مصير أهله فى افريقية بعد استيلاء النورمان على المهدية سنة ١١٤٨م ... يقول فيها :

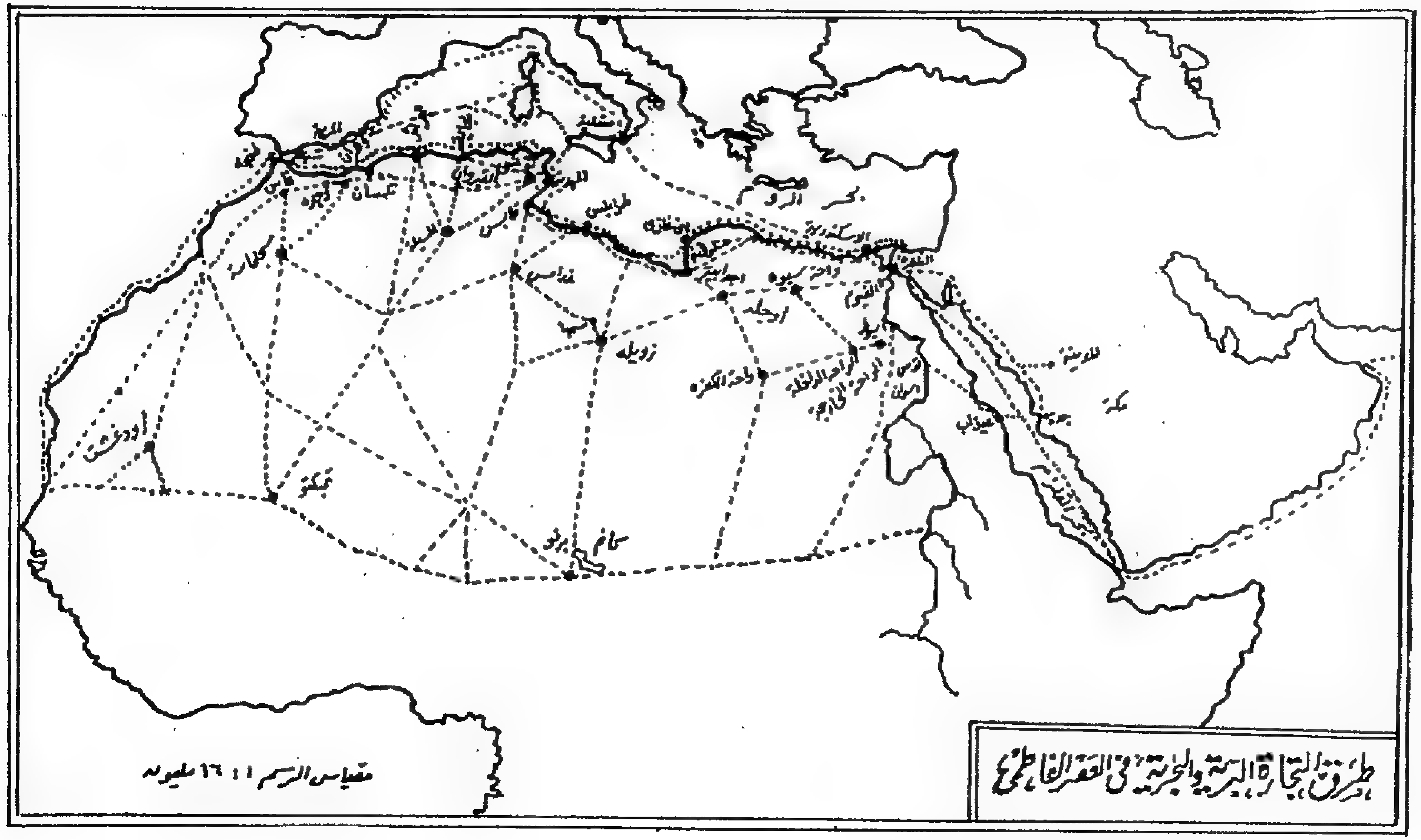
« أعلمك يا أخى بأننى أبحرت من الهند ووصلت سالماً إلى عدن ـ حرسها الله ـ مع أموالى وأطفالى ... وأود الآن إعلامك أن لدىّ ما يكفى لسد حاجتنا جميعاً ...إننى عاتب عليك يا أخى لأنك جئت إلى مصر ، ولم تتوجه إلى عدن . بعثت لك فى مصر كمية من عطر الزباد تسوى ٤٠ ديناراً ، ووزنها حوالى ٥٠ أوقية ... وعلمت بعد ذلك ... أن عطر الزباد وصل إلى مصر (الفسطاط) ، ولأنهم لم يجدوك فيها فانهم أرسلوه إليك إلى صقلية مع يهودى موثوق به من الجزيرة . أرجو أن يكون قد وصلك .

قابلت سليمان بن جباى الذى أخبرنى أن الحال قد وصلت بكم إلى درجة أصبحتم لا تحصلون فيها إلا على رغيف واحد من الخبز فى اليوم . لذا أطلب أن تجيىء إلىّ بدون تأخير مهما كانت الظروف ، وأنا أتكفل بإعالتكم ... لى ابن وابنة ، خذهما وخذ معهما كل ثروتى ، فذلك افضل من أن يأخذها الأغراب .

... بعد مجيئك الىّ سنعيش إما فى عدن وإما فى الفسطاط ، وإما فى الاسكندرية إذا تعذر علينا الذهاب إلى المهدية أو إفريقية ، أى تونس أو القيروان .

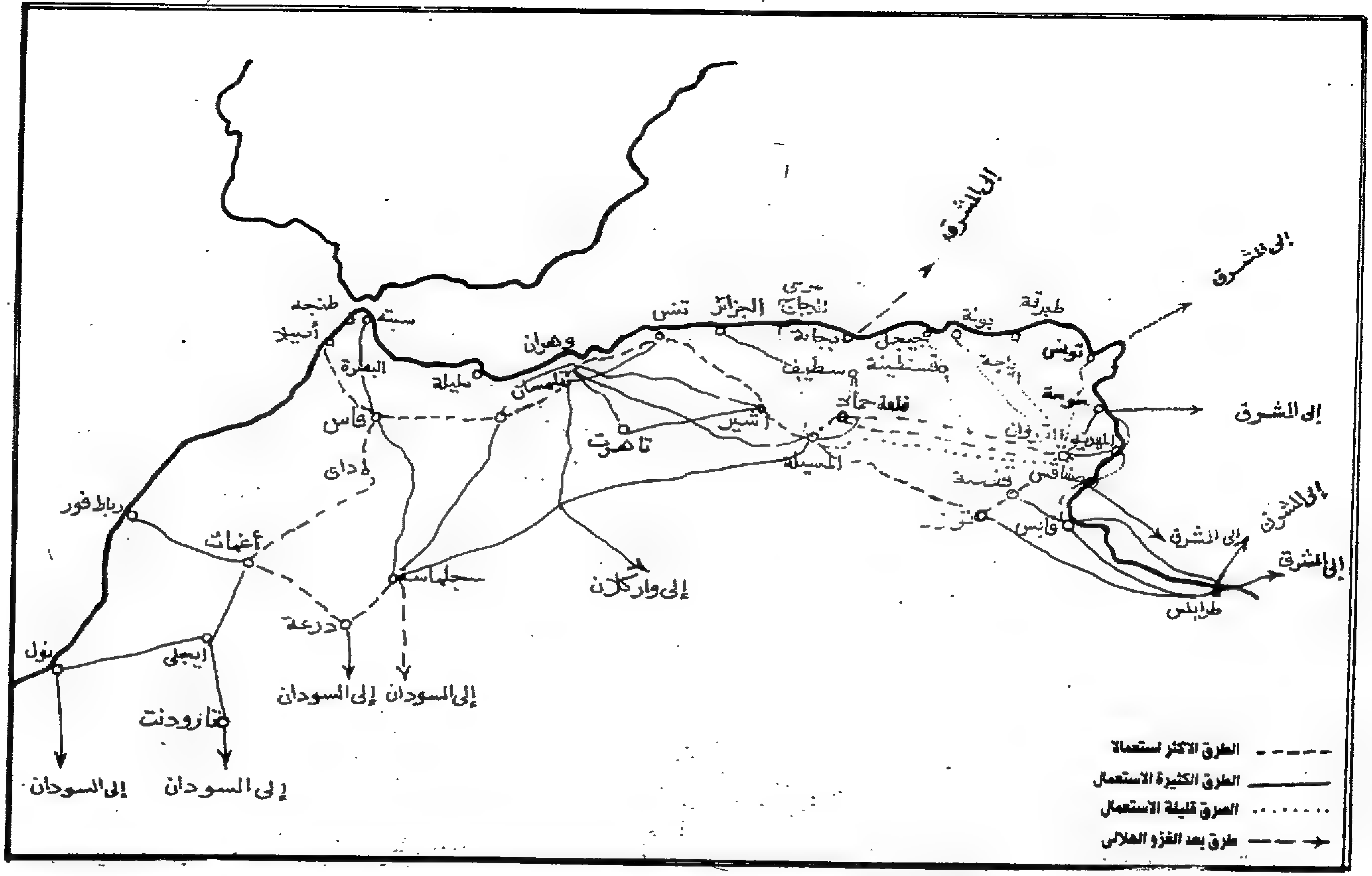
Goitein: Letters of Medieval Jewish Traders , pp . 265 - 267

... سمعت عما حل بساحل افريقية ، طرابلس الغرب ، وجربه ، وقرقنة ، وصفاقس ، والمهدية ، إلا أنه لم يصلنى أية رسالة تمكننى من معرفة من مات ، ومن بقى على قيد الحياة ، أناشدك الله أن تكتب تفاصيل دقيقة ، وأن تبعث برسائلك مع أناس يعتمد عليهم كى يطمئن بالى ...» .



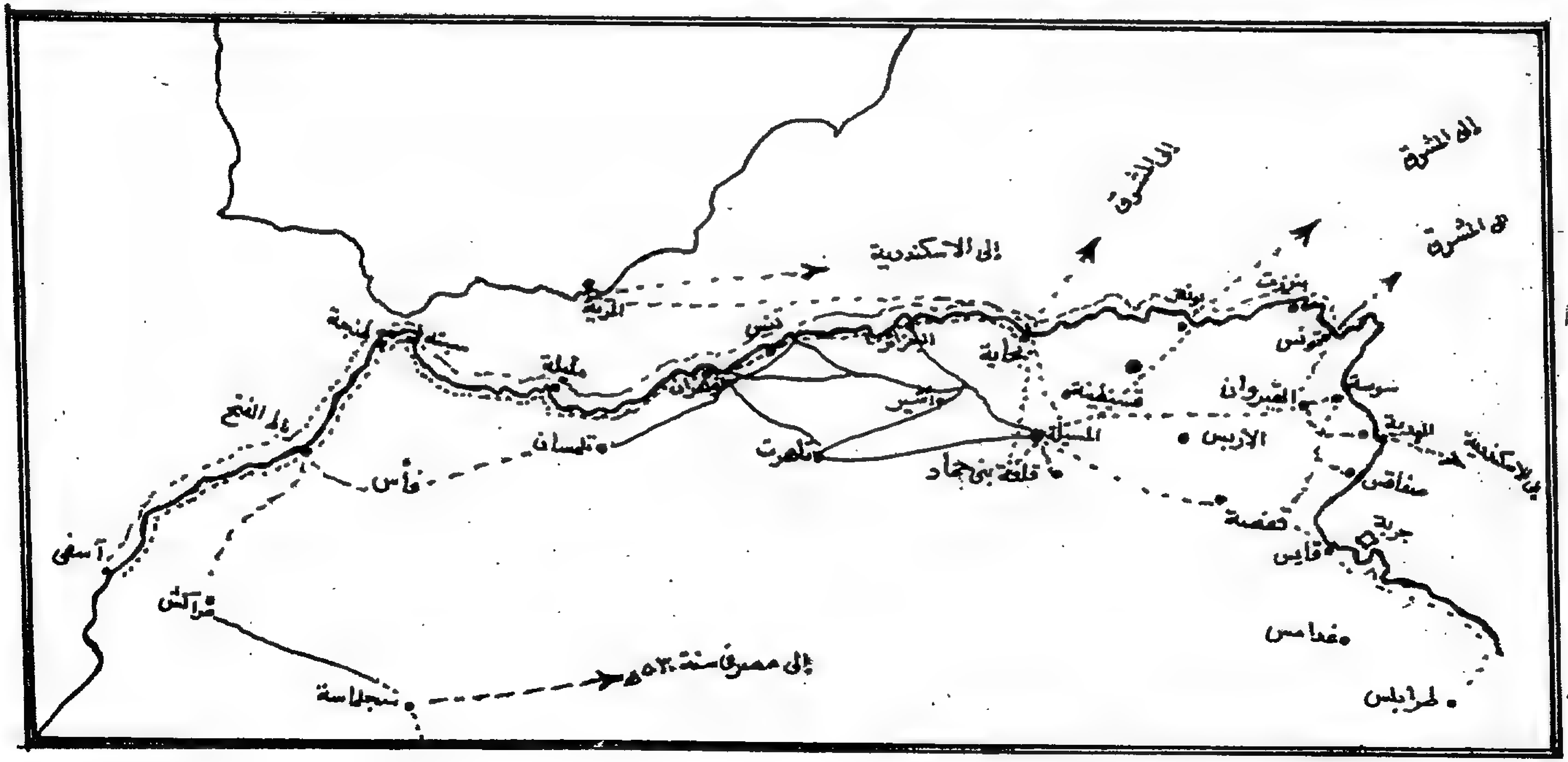
نقلا عن : عفيفي محمود إبراهيم : أحوال بلاد المغرب الاقتصادية

خريطة رقم (١)



خريطة رقم (٢)

الطرق التجارية قبل الغزو الهلالي نقلا عن: عز الدين أحمد موسى النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي



خريطة رقم (٣)

الطرق التجارية فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى

المصادر والدراسات

ثبت المصادر والدراسات

أولا : المخطوطات :

(١) إيليا المطران :

« مقالة إيليا المطران فى المكاييل والأوزان »

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٩ رياضيات . (ميكروفيلم رقم ٤٥٢٢٢)

(٢) ابن بسام التنيسى :

« الأنيس الجليس فى أخبار تنيس »

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٨٥٢ أدب (ميكروفيلم رقم ٣١٧٨٦)

(٣) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) :

« المقفى الكبير » مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٢١٤٤ ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢هـ تاريخ

(ميكروفيلم رقم ١٠٦٥٦)

(٤) مؤلف مجهول :

« شرح اللمعة من أخبار المعز » نسخة مصورة بجامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٢

(٥) النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) : «نهاية الارب فى فنون الأدب » ، المجلد السادس والعشرين مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٥٥٩) معارف عامة ، (ميكروفيلم رقم ٤٢١٥١) .

ثانيا : المصادر المطبوعة :

(٦) ابـن الابـار ، أبـو عـبـد الـلـه محمـد بـن عبد الله القضـاعـى (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) : « الحلة السيـراء » ، تحـقـيق د . حـسين مـؤنس ، القاهرة ١٩٦٣م .

(٧) ابن الأثير ، عز الدين ابو الحسن على بن محـمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) : «الكامل فى التاريخ » ، بيروت ، دار صادر ١٩٧٩م.

(٨)ادريس عماد الدين بن الحسن بن عبد الله القرشى (ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م): عيون الأخبار وفنون الآثار ، السبع السادس ، تحقيق د. مصطفى غالب دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٤ .

(٩) الادريسى ، الشـريف أبـو عـبـد الله مـحـد بن عـبـد العزيز (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٤م) : « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المتشاق فى اختراق الآفاق » ، نشره دى غويه ودوزى ، ليدن ١٨٦٦م.

(١٠) ابن أبى أصيبعة ، موفق الدين أبو العـباس أحمـد (ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م) : «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، تحقيق د . نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ .

(١١) ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣ م) : « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، بولاق ١٣١١هـ.

(١٢) ابن بسام ، أبو الحسن على الشنترينى (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٦م) : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، القسم الرابع ، المجلد الثانى ، تحقيق د. احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ، ١٩٧٩ .

(١٣) ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت : ٥٧٨هـ / ١١٨٣ م) :
كتاب الصلة ، سلسلة تراثنا ، المكتبة الأندلسية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦م.

(١٤) ابن بعره ، منصور بن بعره الذهبى الكاملى :

« كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، تحقيق د . عبد الرحمن فهمى ، القاهرة ١٩٦٩ م.

(١٥) البكرى ، أبو عبد الله بن عبد العزيز المرسى (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م) :
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دى سلان بعنوان :

Description de Iáfrique sept entrionalle الجزائر ، ١٩١١م.

(١٦) البلاذرى ، أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) :
فتوح البلدان ، ، بيروت ١٩٥٧م.

(١٧) بنيامين التطيلى ، بنيامين بن بونه التطيلى الأندلسى (ت فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى) :

رحلة بنيامين (٥٦١ – ٥٦٩هـ) ، ترجمها عن الأصل العبرى عزرا حداد ، بغداد ، ١٩٤٥.

(١٨) البيذق ، أبو بكر على الصنهاجى (ت فى القرن السادس الهجرى /١٢م) :
«أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، نشر ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٢٨.

(١٩) التجانى ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (ت حوالى ٧١٧هـ/١٣١٧م) :
« رحلةالتجانى ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، تونس ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨.

(٢٠) ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٧٠م) «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » طبعة دار الكتب .

(٢١) الثعالبى ، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧ م) : « يتيمة الدهر » ، بيروت ١٩٧١

(٢٢) ابن جبير ، محمد بن احمد الأندلسى (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) « رحلة ابن جبير » دار الكتاب اللبنانى ، بيروت (بدون تاريخ) .

(٢٣) جروهمان (أودلف) :

أوراق البردى العربية ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٧٤ م

(٢٤) الجزنائى ، أبو الحسن على :

« كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس »

نشره الفردبل ، الجزائر ١٩٢٢

(٢٥) ابن جلجل ، أبو داود سليمان بن حسن الأندلسى المعروف بابن جلجل

« طبقات الأطباء والحكماء » ، تحقيق فؤدا سيد ، القاهرة ١٩٥٥

(٢٦) الجهشيارى ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (٣٣١ هـ / ٩٤٣م):

« كتاب الوزراء والكتاب » مطبعة مصطفى البابى ، القاهرة ١٤٠١هـ / ١٩٨٠.

(٢٧) الجوذرى ، أبو على منصور العزيزى الجوذرى (القرن الرابع الهجرى / ١٠):
« سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين »

تحقيق محمد كامل حسين ، محمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ١٩٥٤.

(٢٨) حاجى خليفة (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) :

« كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون »

نشره ج . فلوجل G. flugel, ليبسك ولندن ١٨٣٥ – ١٨٥٨

(٢٩) ابن حجر ، أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢هـ / ١٩٤٨ م) : « رفع الاصر عن قضاة مصر » القاهرة ١٩٥٧ .

(٣٠) ابن حماد ، أبو عبد الله محمد بن على حماد (ت ٦٢٨هـ / ١٢٣١م) : «أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم » .

تحقيق د. التهامى نقره ، د. عبد الحليم عويس ، دار الصحوة ، القاهرة ١٤٠١هـ

(٣١) الحميرى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت ٨٦٦ هـ/ ١٤٦١) : « كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار » تحقيق د . احسان عباس الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٠ .

(٣٢) ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م): « صورة الأرض » ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (بدون تاريخ) .

(٣٣) ابن خرداذية ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (توفى حوالى عام ٣٠٠ هـ/٩١٢م) .

« المسالك والممالك » نشر دى غويه ، ليدن ١٨٨٩

(٣٤) ابن الخطيب ، لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) : «اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاسلام من ملوك الاسلام » .

الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، نشره د. أحمد مختار العبادى ، ومحمد

ابراهيم الكتانى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ .

(٣٥) ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م):

« كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر » دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١ .

(٣٦) ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨١ م) : «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت١٩٧٢ .

(٣٧) ابن خلدون ، « مقدمة ابن خلدون » ، طبعة رابعة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٧٨ .

(٣٨) الداودارى ، أبو بكر عبد الله بن أيبك (من علماء أواسط القرن الثامن الهجرى) : « الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية » تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٦١

(٣٩) الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى (ت ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٧ م) : « معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان » تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة ، تونس ، ١٩٧٨ .

(٤٠) ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد المصرى (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م):

« الانتصار بواسطة عقد الأمصار » حـ ٤ ، حـ ٥ ، بولاق ١٣٠٩ هـ

(٤١) الدمشقى ، أبو الفضل جعفر بن على (ت ٧٢٧ هـ):

« الاشارة إلى محاسن التجارة » القاهرة ١٣١٨ هـ

(٤٢) ابن أبى دينار ، أبو عبد الله محمد أبى القاسم الرعينى القيروانى

(١١١٠هـ/١٦٩٨م) : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، ، تونس ١٢٨٦ هـ

(٤٣) ابن رشيد السبتى ، محمد بن عمر (ت ٧٣١ هـ / ١٣٢١ م):

، رحلة ابن رشيد المعروفة ملء العيبة فى ماجمع بطول الغيبة فى الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة ، .

تحقيق نجاح صلاح الدين القابسى ، رسالة دكتوراه آداب عين شمس ١٩٧٨ .

(٤٤) ابن رشيق ، أبو على الحسن بن رشيق القيروانى الازدى (ت ٤٥٦ هـ /١٠٦٤ م) ، العمدة ، حـ ١ ، حـ ٢ القاهرة ١٩٦٣ .

(٤٥) ابن رشيق ، الأنموذج ، تحقيق محمد المطوى وبشير البكوش ، تونس ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م) .

(٤٦) الرشيد بن الزبير ، رشيد الدين أبو الحسين أحمد بن على من ابراهيم بن الزبير الأسوانى (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) :

، الذخائر والتحف ، ، تحقيق محمد حميد الله ، الكويت ١٩٥٩ .

(٤٧) ابن أبى زرع ، أبو الحسن على بن عبد الله (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥م):

، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، : تعليق محمد الهاشمى الفيلالى ، الرباط ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦

(٤٨) ابن زولاق ، الحسن بن زولاق (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) :

، كتاب أخبار سيبويه ، تحقيق محمد ابراهيم سعد وحسن الديب ، مكتبة الأبحاث العلمية ، طبعة ثانية ، القاهرة ١٤١٠ هـ

(٤٩) السجلات المستنصرية :

« سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى دعاة اليمن وغيرهم ... » تحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٥٤

(٥٠) ابن سعيد المغربى (ت ٦٨٥ هـ /١٢٨٦ م):

« المغرب فى حلى المغرب » القسم الخاص بالفسطاط ، تحقيق د . زكى محمد حسن وآخرون ، القاهرة ١٩٥٣

(٥١) ابن سعيد ، « النجوم الزاهرة فى حلى حضرة صاحب القاهرة » تحقيق د . حسين نصار ، مركز تحقيق التراث ، القاهرة ١٩٧٠

(٥٢) ابن سعيد « كتاب الجغرافيا » تحقيق اسماعيل العربى ، بيروت ١٩٧٠ .

(٥٣) ابن سلام ، أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨م): « الأموال » طبعة أولى ، بيروت ١٩٨١

(٥٤) السلاوى ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧) :

« الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » تحقيق ولدى المؤلف جعفر ومحمد، الدار البيضاء ، ١٩٥٤

(٥٥) السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر جلال (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)

« حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ١ » تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٨٧ هـ /١٩٦٧

(٥٦) السيوطى « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه » تحقيق محمد أبو الفضل

ابراهيم ، جـ ١ ، القاهرة ١٩٦٤

(٥٧) أبو شامة ، مشهاب الدين عبد الرحمن (ت ٦٦٥ هـ/١١٤٧ م) :

« الروضتين فى أخبار الدولتين ، تحقيق د . محمد حلمى القاهرة ١٩٦٢

(٥٨) الشيزرى ، عبد الرحمن بن نصر (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣) :

« نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق د . الباز العرينى ، القاهرة ١٩٤٦

(٥٩) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك (ت ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م)

« تاريخ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين » .

« السفر الثانى ، تحقيق الأستاذ عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤ .

(٦٠) ابن الصيرفى ، أبو القاسم على بن منجب بن سليمان (ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م) :

« القانون فى ديوان الرسائل والاشارة إلى من نال الوزارة »

تحقيق د. أيمن فؤدا سيد ، القاهرة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠

(٦١) الضبى ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م):

« بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس » ، القاهرة ١٩٦٧

(٦٢) ابن أبى الضياف ، احمد (ت ١٢٩١ هـ) :

« اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان » تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشئون الثقافية والأخبار ، تونس ١٩٦٣ .

(٦٣) الطرطوشى ، أبو بكر محمد بن الوليد الأندلسى (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م):

« سراج الملوك » ، القاهرة ١٣١١ هـ .

(٦٤) ابن ظافر ، جمال الدين أبو الحسن على بن أبى منصور ظافر الازدى(ت٦١٢هـ /١٢١٥) :

« أخبار الدول المنقطعة » المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٧٢.

(٦٥) العبد رى الحيحى ، أبو عبد الله محمد بن محمد :

الرحلة المغربية ، تحقيق محمد الفاسى ، الرباط ١٩٦٨

(٦٦) ابن عبدون ، محمد بن أحمد التجيبى

« رسالة فى القضاء والحسبة » نشرها ليفى بروفنسال ضمن ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، القاهرة ١٩٥٥.

(٦٧) ابن عذارى المراكشى ، أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشى (كان حياً سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢م) :

« البيان المغرب فى أخبار المغرب »

- الجزء الأول تحقيق دوزى ، مكتبة صادر ، بيروت (١٩٤٧ – ١٩٥٠).

- الجزء الرابع نشر وتحقيق د . احسان عباس ، بيروت ١٩٦٧ .

(٦٨) أبو العرب تميم ، محمد بن أحمد بن تميم القيروانى (ت ٣٣٣ هـ / ٩٤٤) :

« طبقات علماء إفريقية وتونس»

تحقيق على الشابى ونعيم حسن اليافى ، تونس ١٩٦٨

(٦٩) ابن العربى القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى (ت ٥٤٣ هـ/١١٤٨م) :

« العواصم من القواصم » تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٨٧هـ

(٧٠) العماد الأصفهانى ، أبو عبد الله محمد بن صفى الدين (ت ٥٩٧هـ/١٤٦٧) :

« خريدة القصر وجريدة العصر » القسم الرابع ، ج ١ تحقيق عمر الدسوقى وعلى عبد العظيم ، القاهرة ١٩٦٤

(٧١) عمارة اليمنى ، أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على الملقب بنجم الدين (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤) :

« النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية » شالون ١٨٩٧ .

(٧٢) الغبرينى ، أبو العباس أحمد (ت ٧١٤ هـ / ١٣١٥ م)

« عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية »

نشر محمد بن أبى شنب ، الجزائر ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠م .

(٧٣) ابن فرحون ، ابراهيم بن على بن محمد (ت ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦م) :

« الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب » تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، جـ ١ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٧٥

(٧٤) القاضى ، عياض بن موسى اليحصبى (ت٥٤٤هـ / ١١٤٩م) :

« ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك »

جـ ١ تحقيق د. أحمد بكير محمود، بيروت ١٣٨٤/ ١٩٦٥

(٧٥) قدامة بن جعفر (ت ٣٢٨ هـ / ٩٤٨م)

« نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة » نشر دى غويه ، ليدن ١٨٨٩

(٧٦) ابن القطان ، أبو الحسن على بن محمود الكتامى الفاسى (ت٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م):

« جزء من كتاب نظم الجمان » تحقيق د. محمد على مكى ، منشورات كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس بالرباط ، تطوان ١٩٦٤

(٧٧) القفطى ، جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٦هـ .

(٧٨) القفطى « إنباه الرواة على أنباه النحاة » ٤ أجزاء تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة (١٩٥٠ – ١٩٥٥) .

(٧٩) ابن القلانسى ، أبو يعلى حمزة بن أسد التميمى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م)

« ذيل تاريخ دمشق » ، بيروت ١٩٠٨

(٨٠) القلقشندى ، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م)

« صبح الأعشى فى صناعة الانشاء » ١٤ جزء ، دار الكتب ١٣٣٢ هـ

(٨١) الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ / ٩٦١م): «كتاب الولاة وكتاب القضاة والذيل» ، بيروت ١٩٠٨ .

(٨٢) ابن الكندى ، عمر بن محمد بن يوسف (كان حياً فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى « فضائل مصر » ، تحقيق د. ابراهيم العدوى القاهرة ١٩٧١ .

(٨٣) المالكى، أبو عبد الله بن أبى عبد الله المالكى (ت فى القرن الخامس الهجرى):
، كتاب رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم ، تحقيق د. حسين مؤنس القاهرة ١٩٥٤.

(٨٤) مجموعة الوثائق الفاطمية :

تحقيق د. جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٥ .

(٨٥) المراكشى ، عبد الواحد بن على (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩) :

، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، لجنة احياء التراث الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٣

(٨٦) المسبحى ، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م):

، أخبار مصر ، الجزء الأربعون ، تحقيق أيمن فؤدا سيد وتيارى بيانكى المعهد العلمى الفرنسى ١٩٧٨.

(٨٧) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٦م):

، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ١ ، بيروت ١٩٨٣.

(٨٨) المقدسى ، شمس الدين بن عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشارى (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) :

، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ، ليدن ١٩٠٦ .

(٨٩) المقرى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١م): ، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩.

(٩٠) المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م):

، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جزءان ، القاهرة ١٩٩٠.

(٩١) المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء جـ١ تحقيق د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ ، جـ٢ ، جـ٣ تحقيق د. محمد حلمى محمد القاهرة١٩٧١ ، ١٩٧٣

(٩٢) المقريزى ، النقود الاسلامية القسطنطينية ١٢٩٨ هـ .

(٩٣) المقريزى ، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، الاسكندرية ١٩٨٩.

(٩٤) المقريزى ، ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ، تقديم د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الهلال ١٩٩٠.

(٩٥) المقريزى ، المقفى الكبير ، تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية ، إختيار وتحقيق محمد اليعلاوى ، بيروت ، دار الغرب الاسلامى ١٩٨٧.

(٩٦) المقريزى ، ترجمة المهدى عبيد الله ، من كتاب المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوى ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد ٥٢ ، ١٩٨٦ .

(٩٧) ابن مماتى،أبو المكارم أسعد بن مهاذب الخطير ابى سعيد بن مينا(ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) ، قوانين الدواوين ، حققة عزيز سوريال عطية ، الجمعية الملكية الزراعية ، القاهرة ١٩٤٣.

(٩٨) ابن منظور ، أبو الفضل بن منظور :

، لسان العرب، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ).

(٩٩) مؤلف مجهول : « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى ، نشر وتحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ١٩٥٨ .

(١٠٠) مؤلف مجهول : « الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية » لمؤلف أندلسى من أهل القرن الثامن الهجرى تحقيق د. سهيل زكار ، والأستاذ / عبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م .

(١٠١) مؤلف مجهول : « كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس فى عصر الموحدين » نشر أويثى ميراندا ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلدان التاسع والعاشر ، ١٩٦١ - ١٩٦٢ .

(١٠٢) ابن ميسر ، تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب (ت ٦٧٧ هـ/١٢٧٨م): « أخبار مصر - المنتقى من » انتقاه تقى الدين المقريزى ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، القاهرة - المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ١٩٨١ .

(١٠٣) ناصر خسرو علوى (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨) : سفر نامه « ترجمة يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ .

(١٠٤) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب اسحاق المعروف بالوراق (ت ٤١٢ هـ / ١٠٢١ تقريبا) : « الفهرست » تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٣٥٠ هـ / ١٩٧١ .

(١٠٥) النعمان القاضى ابو حنيفة بن محمد بن حيون المغربى (٣٦٣هـ / ٩٧٤م) : « المجالس والمسايرات » تحقيق الحبيب الفقى وابراهيم شبوح ، ومحمد اليعلاوى منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٨ .

(١٠٦) ،، « رسالة افتتاح الدعوة » تحقيق وداد القاضى ، بيروت ١٩٧١ .

(١٠٧) النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٣هـ/١٣٣١م):

« نهاية الأرب فى فنون الأدب » جـ ٢٤ ، تحقيق د. حسين نصار ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣.

(١٠٨) ابن هانىء الأندلسى : « ديوان ابن هانىء الاندلسى » تحقيق أكرم البستانى ، بيروت ١٩٥٢.

(١٠٩) الهمدانى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٢٤هـ/٩٤٥م) «صفة جزيرة العرب » تحقيق محمد بن على الأكوع ، طبعة ثالثة ، بيروت ١٩٨٣.

(١١٠) ابن الوزان ، الحسن بن محمد الوزان الزياتى (ت حوالى ١٥٥٢م) :

وصف افريقيا » ترجمة من الايطالية إلى الفرنسية A. EPAUL ARD وعلق عليها آ. ايبلار، ث . مونو ، ترجمه من الفرنسية الى العربية د. عبد الرحمن حميده، منشورات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، كلية العلوم الاجتماعية ، الرياض ١٩٧٩ .

(١١١) ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م):

« معجم الأدباء » ٢٠ جزء القاهرة ١٩٣٨

(١١٢) ياقوت « معجم البلدان » ، ١٠ أجزاء ، بيروت ، دار صادر ١٩٨٤م

(١١٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٦م):

« تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى » باريس ١٩٢٤ ، بيروت ١٩٠٩ .

(١١٤) اليعقوبى ، أحمد أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) « تاريخ اليعقوبى » النجف ١٣٥٨هـ .

(١١٥) اليمانى ، طاهر بن ابراهيم الحارثى اليمانى (ت ٥٨٤هـ/ ١٢١١م):

، الأنوار اللطيفة ، ملحق بكتاب الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والاثنى عشرية ، لمحمد حسن الأعظمى ، القاهرة ١٩٧٠ .

(١١٦) ابن يوسف الحكيم ، أبو الحسن على بن يوسف :

، الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد السادس ، العد (١ – ٢) ١٩٥٨ .

ثالثاً : المراجع العربية :

(١١٧) ابتسام مرعى خلف الله (الدكتوره) :

العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الاسلامى ، دار المعارف ١٩٨٥

(١١٨) ابراهيم أحمد العدوى (الدكتور) :

بلاد الجزائر ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ١٩٧٠ .

(١١٩) ابراهيم العبيدى التوزرى :

تاريخ التربية بتونس ، ج ١ ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس

(١٢٠) أحمد بن عامر :

الدولة الصنهاجية ، تونس ١٩٧٠ .

(١٢١) أحمد فكرى (الدكتور) :

مساجد القاهرة ومدارسها ، ج٢ ، القاهرة ١٩٦٩ .

(١٢٢) أحمد مختار العبادى (الدكتور):

دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس طبعة أولى ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

(١٢٣) أحمد مختار العبادى (الدكتور)

فى التاريخ العباسى والفاطمى ، بيروت ١٩٧١ .

(١٢٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده جزءان ، القاهرة ١٩٤١ .

(١٢٥) ارشيبا لدلويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ .

(١٢٦) انستاس مارى الكرملى البغدادى :

النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ .

(١٢٧) برنارد لويس: (Bernard Lewis) :

The Origins of Ismailism

نقلة إلى العربية حكمت تلحوق بعنوان :

أصول الاسماعيلية والفاطمية والقرمطية ، بيروت ١٩٨٠

(١٢٨) جمال الدين الشيال (الدكتور) :

اعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٥

(١٢٩) جمال الدين الشيال (الدكتور)

تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى

(١٣٠) جواتين : دراسات فى التاريخ الاسلامى والنظم الاسلامية

تعريب وتحقيق الدكتور عطية القوصى ، بيروت ١٩٨٠

(١٣١) جورج مارسيه : بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامى

ترجمة محمد عبد الحميد هيكل ، مراجعة الدكتور مصطفى أبو ضيف ، الاسكندرية ١٩٩١

(١٣٢) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ،تعريب محمد مزالى ، البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٧٨

(١٣٣) الحبيب الجنحانى (الدكتور) :

«القيروان» ، تونس ١٩٦٦

(١٣٤) الحبيب الجنحانى (الدكتور) :

دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمغرب الاسلامى ، طبعة ثانية ، دار الغرب الاسلامى ، بيروت ١٩٨٦ .

(١٣٥) حسن ابراهيم حسن (الدكتور) :

تاريخ الدولة الفاطمية ، طبعة ثالثة ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٤ .

(١٣٦) حسن أحمد محمود (الدكتور) :

قيام دول المرابطين ـ صفحة مجيدة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧ .

(١٣٧) حسن حسنى عبد الوهاب :

بساط العقيق فى حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق

المطبعة التونسية ، تونس (بدون تاريخ)

(١٣٨) حسن حسنى عبد الوهاب :

ورقات عن الحضارة العربية بافريقية ، تونس ١٩٦٤

(١٣٩) حسنين محمد ربيع (الدكتور) :

وثائق الجنيزا وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانىء اليمن والحجاز فى العصور الوسطى ، الكتاب الأول ، جـ ٢ ، الرياض ١٩٧٩

(١٤٠) حسين مؤنس (الدكتور) :

معالم تاريخ المغرب والأندلس ، القاهرة ١٩٨٠

(١٤١) حسين مؤنس (الدكتور) :

تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٩١

(١٤٢) خطاب عطية خطاب (الدكتور) :

التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول ، القاهرة ١٩٤٧

(١٤٣) دائرة المعارف الاسلامية .

(١٤٤) رابح بونار : المغرب العربى - تاريخه وثقافته ، الجزائر ١٩٦٨

(١٤٥) راشد البراوى (الدكتور) :

حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨

(١٤٦) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ، ترجمة الدكتور زكى محمد حسن والدكتور حسن أحمد محمود ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١ - ١٩٥٢

(١٤٧) زكى محمد حسن (الدكتور) : كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨ .

(١٤٨) ستانلى لينبول : سيرة القاهرة ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرون ، القاهرة ١٩٥١ .

(١٤٩) سعاد ماهر (الدكتوره) : القاهرة القديمة وأحياؤها ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٦٢ .

(١٥٠) سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) :

تاريخ المغرب العربى ، جـ ٣ ، الاسكندرية ١٩٩٠

(١٥١) السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) :

المغرب الاسلامى ، كتاب الشعب عد ١٣٨ - ١٣٩ ، القاهرة ١٩٦١ .

(١٥٢) السيد عبد العزيز سالم (الدكتور) :

المغرب الكبير (العصر الاسلامى) ، الاسكندرية ١٩٦٦

(١٥٣) السيد محمود شكرى الألوس:

بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٤٣ /١٩٢٥ .

(١٥٤) سيدة اسماعيل كاشف (الدكتوره):

مصر فى عصر الاخشيديين ، القاهرة ١٩٧٠ .

(١٥٥) شوقى ضيف (الدكتور) :

عصر الدول والامارات (مصر) ،طبعة ثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٠

(١٥٦) شوقى عبد القوى عثمان (الدكتور) :

تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الاسلامية ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٩٠ .

(١٥٧) الصادق الرزقى :

الأغانى التونسية ، الدار التونسية للنشر ، تونس ١٩٦٧

(١٥٨) عبد الحميد يونس (الدكتور) :

الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى القاهرة ١٩٥٦ .

(١٥٩) عبد الرحمن زكى (الدكتور) :

القاهرة ، تاريخها وآثارها ، القاهرة ١٩٦٦

(١٦٠) عبد الرحمن فهمى محمد (الدكتور) :

موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٥

(١٦١) عبد الرحمن قيقة :

من أقاصيص بنى هلال ، تعريب الطاهر قيقة ، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨

(١٦٢) عبد القادر جغلول (الدكتور):

مقدمات فى تاريخ المغرب العربى القديم والوسيط ، ترجمة فضيله الحكيم ، بيروت ١٩٨٢

(١٦٣) عبد الله خورشيد البرى (الدكتور) :

القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، القاهرة ١٩٦٧ .

(١٦٤) عبد الله على علام (الدكتور) :

الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على ، القاهرة ١٩٧١ .

(١٦٥) عبد المنعم سلطان (الدكتور) :

المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى ، دار المعارف ، الاسكندرية ١٩٨٥ .

(١٦٦) عبد المنعم ماجد (الدكتور) :

نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، جزءان، القاهرة ١٩٥٣ ، ١٩٥٥ .

(١٦٧) عبد الواحد شعيب :

دور المرابطين فى الجهاد بالأندلس ، دار اقرأ ، مالطا ١٣٩٩ هـ / ١٩٩٠

(١٦٨) عثمان الكعاك :

مراكز الثقافة فى المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية ، جامعة الدول العـــربية ، القاهرة ١٩٥٨ .

(١٦٩) عز الدين أحمد موسى (الدكتور) :

النشاط الاقتصادى فى المغرب الاسلامى ، (خلال القرن السادس الهجرى بيروت ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ .

(١٧٠) عطية القوصى (الدكتور) :

تجارة مصر فى البحر الأحمر- منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٦

(١٧١) عفيفى محمود ابراهيم (الدكتور) :

بنو زيرى وعلاقتهم السياسية بالقوى الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٨٩ .

(١٧٢) على ابراهيم حسن (الدكتور) :

تاريخ جوهر الصقلى ، القاهرة ١٩٣٣ .

(١٧٣) على ابراهيم حسن (الدكتور) :

تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٣ .

(١٧٤) على عبد الواحد وافى :

لمحة من تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ١٩٦٠ .

(١٧٥) على مبارك : « الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها بلادها القديمة والشهيرة » طبعة بولاق ، القاهرة ١٣٠٦ هـ .

(١٧٦) عمر رضا كحالة:

أعلام النساء ، ٥ أجزاء ، بيروت ١٩٧٧ .

(١٧٧) عمر صالح البرغوثى :

الوزير اليازورى ، دار الفكر العربى ، القاهرة (بدون تاريخ)

(١٧٨) غوستاف لوبون (الدكتور) :

حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، طبعة ثالثة ، القاهرة ١٩٥٦ .

(١٧٩) فيليب حتى وآخرون :

تاريخ العرب ، بيروت ١٩٤٩

(١٨٠) محمد أمين صالح (الدكتور) :

النظم الاقتصادية فى مصر والشام فى صدر الاسلام ، القاهرة ١٩٧١ .

(١٨١) محمد أمين صالح (الدكتور) :

تاريخ الجيزة فى العصر الاسلامى ، القاهرة ١٩٩١ .

(١٨٢) محمد بن تاويت ـ محمد الصادق عفيفى :

الأدب المغربى ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٦٠ .

(١٨٣) مجمد جمال الدين سرور (الدكتور) :

ـ الدولة الفاطمية فى مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ .

ـ تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ، القاهرة ١٩٦٥ .

(١٨٤) محمد حسن الأعظمى :

الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والاثنى عشرية ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٧٠ .

(١٨٥) محمد حمدى المناوى (الدكتور) :

الوزارة والوزراء فى العصر الفاطمى القاهرة ١٩٧٠ .

(١٨٦) محمد ضياء الدين الريس (الدكتور) :

الخراج فى الدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٧ .

(١٨٧) محمد عبد الله عنان :

تاريخ الجامع الأزهر ، طبعة ثانية ، القاهرة ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ .

(١٨٨) محمد عبد الله عنان :

عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٤ .

(١٨٩) محمد على دبوز :

تاريخ المغرب الكبير ، جـ٢ ، جـ ٣ ، القاهرة ١٩٦٣ .

(١٩٠) محمد كامل حسين (الدكتور)

فى أدب مصر الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٣ .

(١٩١) محمد محمود خطاب السبكى:

الدين الخالص ، جـ ٨ ، القاهرة ١٩٥٠ .

(١٩٢) مصطفى محمد كامل :

الشريف الادريسى وأثره فى الجغرافيا ، القاهرة ١٩٦٤ .

(١٩٣) الموسوعة المصرية ، تاريخ وآثار مصر الاسلامية ، الجزء الثالث من المجلد الأول ، الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة .

(١٩٤) نقولا زيارة (الدكتور) :

الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦ .

(١٩٥) وزارة الأقاف وشئون الأزهر :

الأزهر- تاريخه وتطوره ، القاهرة ١٩٦٤.

(١٩٦) هايد :

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة احمد محمد رضا ، وتقديم د. عز الدين . فوده ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٨٥ .

رابعاً : الرسائل الجامعية :

(١٩٧) أحمد عبد اللطيف حنفى (الدكتور) :

الدور السياسى والحضارى للجاليات المغربية فى مصر الاسلامية ، رسالة ماجستير آداب طنطا ١٩٨٧ .

(١٩٨) بدر عبد الرحمن محمد (الدكتور):

النشاط التجارى فى مصر فى العصر الفاطمى ، رسالة ماجستير آداب القاهرة ١٩٧٧

(١٩٩) حسن خضيرى أحمد (الدكتور) :

قيام الدولة الزيدية فى اليمن ، رسالة ماجستير آداب القاهرة ١٩٨٩ .

(٢٠٠) حسن على حسن عبد العواد (الدكتور) :

الحياة الادارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس الهجرى ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، القاهرة ١٩٧٢ .

(٢٠١) حورية عبده عبد المجيد سلام (الدكتوره):

علاقات مصر ببلاد المغرب من الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية ، رسالة دكتوراه ، آداب القاهرة ١٩٧٤ .

(٢٠٢) عبد الحليم عبد الفتاح عويس (الدكتور) :

دولة بنى حماد فى الجزائر ، رسالة ماجستير ، كلية دار العلوم ، القاهرة ١٩٧٣

(٢٠٣) عفيفى محمود ابراهيم (الدكتور) :

ـ مظاهر الحضارة فى بلاد المغرب منذ انتقال الخلافة الفاطمية الى مصر رسالة دكتوراه . آداب القاهرة ١٩٨٠ .

(٢٠٤) لقبال موسى بن علاوة (الدكتور) :

دور قبيلة كتامة فى تاريخ الدولة الفاطمية رسالة دكتوراه آداب عين شمس ١٩٧٢ .

(٢٠٥) محمد أمين صالح (الدكتور) :

التنظيمات الحكومية لتجارة مصر فى عصر المماليك ، رسالة دكتوراه آداب عين شمس ١٩٦٩ .

(٢٠٦) مصطفى أبو ضيف احمد (الدكتور):

القبائل العربية فى المغرب فى عصر الموحدين والمرينيين ، رسالة ماجستير . آداب الاسكندرية ١٩٧٥ .

خامسا : الدوريات :

(٢٠٧) احسان عباس (الدكتور) :

« رحلة ابن العربى إلى المشرق ، كما صورها قانون التأويل » الجزء الثانى ، العدد ٤٩٣ ، مجلة الأبحاث الأمريكية ، كانون الأول ١٩٦٨ ، الجامعة الأمريكية بيروت .

(٢٠٨) أحمد السيد دراج (الدكتور) :

« عيذاب » مجلة نهضة افريقيا ، يوليو ـ أغسطس ١٩٥٨ ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٢٠٩) أحمد مختار العبادى (الدكتور) :

« سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » صحيفة معهد الدراسات

الاسلامية فى مدريد ، المجلد الخامس ، العدد الأول والثانى ١٩٥٧ .

(٢١٠) أحمد ممو :

« التحولات فى أقاصيص بنى هلال » مجلة التراث الشعبى ، العدد الحادى عشر ، بغداد ١٩٧٧ .

(٢١١) ادريس صالح الحرير (الدكتور) :

« الفاطميون فى تونس » مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول ، السنة العاشرة ، منشورات جامعة الفاتح ليبيا ١٩٨٨ .

(٢١٢) أمين الطيبى (الدكتور) :

« جوانب من النشاط الاقتصادى فى المغرب فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى » مجلة البحوث التاريخية ، السنة السادسة ، العدد الثانى يوليو ١٩٨٤ ، منشورات جامعة الفاتح ليبيا .

(٢١٣) أمين الطيبى (الدكتور) :

« بنو هلال ودورهم فى الجهاد فى افريقيا والأندلس » ، مجلة البحوث التاريخية العدد الأول ، ١٩٨٥ ، منشورات جامعة الفاتح / ليبيا

(٢١٤) أيمن فؤدا سيد (الدكتور) :

دراسة نقدية لمصادر تاريخ الفاطميين فى مصر مجلة ، دراسات عربية واسلامية ، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ .

(٢١٥) بشير ابراهيم بشير : « عيذاب ـ حياتها الدينية » ، مجلة الدراسات السودانية ، العدد الثالث ، يوليو ١٩٧٩ .

(٢١٦) بورييه : « بجاية » كتالوج سلسلة الفن والثقافة ، نشر وزارة الأخبار

الجزائرية، مدريد ١٩٧٠ .

(٢١٧) جعفر ماجد :

« العلاقات الأدبية بين قرطبة والقيروان فى القرنين الرابع والخامس » حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١٣ ، ١٩٧٦ .

(٢١٨) حسن أحمد محمود (الدكتور) :

« محنة الشيعة بافريقية فى القرن الخامس الهجرى » مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مجلد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٠ .

(٢١٩) حسن عبد الوهاب باشا :

« العمارة الاسلامية فى العصر الفاطمى » مجلة العمارة ، العدد ٥ - ٦ سنة ١٩٤٠ .

(٢٢٠) سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) :

« فترة حاسمة من تاريخ المغرب » مجلة كلية الآداب والتربية ، بنى غازى ، الجامعة الليبية ، المجلد الأول ١٩٥٨ .

(٢٢١) سعد زغلول عبد الحميد (الدكتور) :

« الأثر المغربى والأندلسى فى المجتمع السكندرى » مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ١٩٧٥ .

(٢٢٣) سليمان مصطفى زبيس :

« تاريخ القاهرة الاقتصادى » تاريخ العرب والعالم ، العدد ٩٥- ٩٨ (١٤٠٧هـ/١٩٨٦) .

(٢٢٣) الشاذلى عطا الله :

، دور القيروان فى نشر العلم ، مجلة القيروان ، الدار التونسية للنشر ١٩٥٨ .

(٢٢٤) صبحى لبيب :

،التجارة الكارمية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع، مايو١٩٥٢ .

(٢٢٥) عبد المنعم ماجد (الدكتور) :

، أصل حفلات الفاطميين فى مصر ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ .

(٢٢٦) عطية مصطفى مشرفة :

، المذهب الشيعى قبيل الدولة الفاطمية وفى أيامها ، ، مجلة المقتطف ، أبريل ١٩٤٥، القاهرة .

(٢٢٧) محمد باقر الحسينى :

، دراسة تحليلية عن نقود الدعاية والاعلام ، مجلة المسكوكات ، العدد السادس ١٩٧٥

(٢٢٨) محمد خضر محمد :

، يعقوب بن كلس التاجر الذى أصبح وزيراً ، وفقيها للفاطميين ، مجلة الدارة، العدد ٢ ، رجب ١٣٩٦هـ/يوليو ١٩٧٦ .

(٢٢٩) محمود على مكى (الدكتور) :

، التشيع فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد المجلد الثالث ، ١٩٥٤ .

سادساً : المراجع الاوربية :

(230) Alfred Bel: " La Dijiazya" in Journal asiatque, XIX -- XX 1902 - 1903

(231) Amari, M.: Diplomi Arabi del archivio, .I, Firenze, Le Mannier, 1863

(232) Cawdrey , H.E,: "The Mahdia Campaign of 1087" in English Hisstorical. Review, Vol 362 , Jan ., 1977

(233) Creswell, K.A.C., The foundation of Cairo, Bulletin of The faculty of Arts, Egyptian University, Vol . I , 1933

(234) De slane : Histoire des Berberes, T.I, ALGER , 1856

(235) Dozy, R : Dictionnaire detaille nome de vetements Chez les Arabes , Ames ter dam , 1845

(236) ,, Supp lement aux Dictionnaires Arabes, Leyden 1887

(237) Encyclopaedia of Islam.

(238) Goitein, S.D.: The Ex change of Gold and silver money in Fatimid and Ayyubid Times. Journal of E conomic and social History of the Orient , V, III, 1965

(239) ,, The Bankers and accounts from the Eleventh Century A.D (Jeaho, V.I X, part 1- 11, November 1966)

(240) Goitein : A Mediterranean Society, Vol,1, California Press 1967.

(241) Goitein : Letters of Medieval Jewish Traders, Princeton University Press 1973

(242) Hassan Ibrahim Hassan : Relations between the fatimids in North Africa and Egypt, during the 4th A.H (10th Century A.D) Bulletin of the Faculty of Arts Cairo University, Vol, X , part 11, December, 1948

(243) Heyd, W, Histoire du Commerce du Leant au Moyen Age. Paris, 1885.

(244) Idris, H.R.: La Berbérie Orientale sous Les Zirides X-XII Siécle, Tom I, Paris, 1962.

(245) Julien, C.A. : Histoire de L'Afrique du Nord de la conquete Arabe, Paris 1964.

(246) Lavoix , H.: Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque Nationales de paris DCCXCI.

(247) Marcais, G.: Les Aarbes en Berberie du XI au XIV siécles Paris , 1913 .

(248) Marcais, G.: Manuel D'art Musulman L'architecture, Vol,I, Paris 1920

(249) Mas - Latrie: Relations et Commerce de L'Afrique septentrionale Ou Magreb avec Les nations chretiennes, Paris, 1886.

(250) Stanly Lan - Poole: Catalogue of the collection of Arabic Coins Preserved in the Khedivial Library in Cairo, Oxford, 1897 .

(251) Stanly Lan - Poole: Catalogue of oriental coins in the British Museum, IV Cainage of Egypt, London, 1897 .

(252) Stanly, Ahistory o Egypt in the middle age, Landon, 1901 .

(253) Terase, H. : Histoire du Maroc, T., I. Cassablanca, 1949.

(254) Tritton, A,S. : Muslim Theology, London, 1947 .

هذه السلسلة تضم :

١ ـ فتح العرب لمصر
٢ ـ تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
٣ ـ الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
٤ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
٥ ـ تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦ ـ تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر
٧ ـ ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨ ـ تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩ ـ تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
١٠ ـ فتوح مصر وأخبارها
١١ ـ تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم
١٢ ـ قوانين الدواوين
١٣ ـ تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث
١٤ ـ الحكم المصري في الشام
١٥ ـ تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
١٦ ـ آثار الزعيم سعد زغلول
١٧ ـ مذكراتي
١٨ ـ الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩ ـ وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠ ـ الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١ ـ الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢ ـ السلطان قلاوون (تاريخه ـ أحوال مصر في عهده ـ منشآته المعمارية
٢٣ ـ صفوة العصر
٢٤ ـ المماليك في مصر
٢٥ ـ تاريخ دولة المماليك في مصر
٢٦ ـ سلاطين بني عثمان
٢٧ ـ محمود فهمي النقراشي
٢٨ ـ دور القصر في الحياة السياسية
٢٩ ـ مذكرات اللورد كيللرن
٣٠ ـ عادات المصريين
٣١ ـ خنقاوات الصوفية ج١
٣٢ ـ خنقاوات الصوفية ج٢
٣٣ ـ تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
٣٤ ـ تاريخ عمرو بن العاص
٣٥ ـ
٣٦ ـ علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب

MADBOULI BOOKSHOP
مكتبة مدبولي
6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421 ٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ ت : ٥٧٥٦٤٢١